

البداية والنهاية

الامام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي الدمشقي الشافعي

المولود في سوريا عام 700 هـ والمتوفي 774 هـ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول الآخر، الباطن الظاهر، الذي هو بكل شيء عليم، الأول فليس قبله شيء، الآخر فليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، الباطن فليس دونه شيء، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً بصفات الكمال، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلي الكبير المتعال، العلي العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

ورفع السماوات بغير عمد، وزينها بالكواكب الزاهرات، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وسوّى فوقهن سريراً، شرجعاً عالياً منيفاً متسعاً مقبياً مستديراً - وهو العرش العظيم - له قوائم عظام، تحمله الملائكة الكرام، وتحفّه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم.

وكذا أرجاء السماوات مشحونة بالملائكة، ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفاً إلى البيت المعمور بالسماوات الرابعة لا يعودون إليه، آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم.

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام قبل خلق السماء، وأثبت فيها من كل زوجين اثنين، دلالة للألباء من جميع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم.

وبدأ خلق الإنسان من طين، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين، في قرار مكين. فجعله سمياً بصيراً، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وشرفه بالعلم والتعليم، خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جنته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فأنس بها وحدته، وأسكنهما جنته، وأسبغ عليهما نعمته، ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم. وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وقسمهم بقدره العظيم ملوكاً ووعاء، وفقراء وأغنياء، وأحراراً وعبداً، وحراراً وإماء.

وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعرض، وجعلهم خلانف فيها يخلف البعض منهم البعض، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم. وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار، تشق الأقاليم إلى الأمصار، ما بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار، وأنبع لهم العيون والآبار. وأرسل عليهم السحاب بالأمطار، فأثبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار. وأتاهم من كل ما سألوهم بلسان حالهم وقالهم ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34] فسبحان الكريم العظيم الحليم.

وكان من أعظم نعمه عليهم. وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم: مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة.

فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد، والنواهي بالتعظيم. ففاز بالنعيم المقيم، وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم، والعذاب الأليم.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، يملأ أرجاء السماوات والأرضين، دائماً أبد الأبدين، ودهر الدهرين، إلى يوم الدين، في كل ساعة وأن، ووقت وحين، كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم ووجهه الكريم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا وزير له ولا مشير له، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليئه، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم، خاتم الأنبياء، وصاحب الحوض الأكبر الرواء، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه الله المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم، وأعلى تشریف وتكريم.

ورضى الله عن جميع أصحابه الغر الكرام، السادة النجباء الأعلام، خلاصة العالم بعد الأنبياء. ما اختلط الظلام بالضياء، وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم.

أما بعد فهذا الكتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن الغليل.

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشرط الساعة. ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم، وما يقع فيه من الأمور الهائلة. ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المعقولة عند العلماء وورثة الأنبياء، الأخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه. وبالله المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال الله تعالى في كتابه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99].

وقد قصَّ الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضية، وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحل بأعدائه. وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُمَّته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه، صلوات الله وسلامه عليه. من ذلك تلو الآيات الواردة في ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجع في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه. وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا وما خالفه فوقع فيه الإنكار.

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في (صحيحه) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))، فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته، إلا على سبيل الإنكار والإبطال.

فإذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير.

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال علي بن أبي طالب:

كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونياً ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وقال أبو ذر، رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علماً.

وقال البخاري في كتاب بدء الخلق: وروي عن عيسى بن موسى غنجان عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال سمعت عمر بن الخطاب يقول:

قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم. وأهل النار منازلهم. حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه.

قال أبو مسعود الدمشقي في أطرافه: هكذا قال البخاري، وإنما رواه عيسى غنجان عن أبي حمزة عن رقية.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في (مسنده): حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت، حدثنا علباء بن الأحمر اليشكري: حدثنا أبو زيد الأنصاري، قال:

((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر. ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا)).

انفرد بإخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن من (صحيحه) عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي وحجاج بن الشاعر، جميعاً عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبي زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

فصل

قال الله تعالى في كتابه العزيز: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: 62] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له، مربوب مدبر، مكون بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه.

فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه، وملكه وعبده وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيبته {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم. فاختلّفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون؟ على قولين كما بيّنا ذلك في التفسير، وستعرض لإيراده في موضعه. واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه: لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض.

وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر لقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: 7].

وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي: ((كان الله ولم يكن قبله شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض)).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حدى، عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي، أنه قال:

يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟

قال: ((كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء)).

رواه عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة به. ولفظه: ((أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ وباقيه سواء)). وأخرجه الترمذي: عن أحمد بن منيع، وابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح، ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي حسن.

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً؟

فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير، وابن الجوزي، وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق.

واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) لفظ أحمد.

وقال الترمذي حسن صحيح غريب.

والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره: أن العرش مخلوق قبل ذلك.

وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في (صحيحه)، حيث قال: حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرج، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الجيلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء)).

قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير.

وقد دلّ هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فنبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير. كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم.

ويؤيد هذا ما رواه البخاري: عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

جنناك لتنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر.

فقال: ((كان الله ولم يكن شيء قبله -وفي رواية معه وفي رواية غيره - وكان عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض)).

وفي لفظ: ((ثم خلق السموات والأرض)).

فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض. ولهذا قالوا جنناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش. رواه السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا:

إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء.

وحكى ابن جرير، عن محمد بن إسحاق، أنه قال: أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة، ثم ميّز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهراً مضيئاً مبصراً.

قال ابن جرير: وقد قيل: إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي، ثم خلق بعد الكرسي العرش، ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة، ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء. والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل: فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي

قال الله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]. وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116].

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26].

وقال: ﴿هُوَ الْعَفْوَورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 14-15].

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: 5].

وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: 2]. في غير ما آية من القرآن.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب: ((لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا يحيى بن العلاء، عن عمه شعيب بن خالد، حدثني سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن عباس بن عبد المطلب، قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالبطحاء، فمرت سحابة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أتدرون ما هذا؟))

قال: قلنا السحاب.

قال: ((والمزن)).

قال: قلنا: والمزن.

قال: ((والعنان)).

قال: فسكتنا.

فقال: ((هل تدرون كم بين السماء والأرض؟))

قال قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((بينهما مسيرة خمسمائة سنة. ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة. وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة.))

وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعله كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعله كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء)).

هذا لفظ الإمام أحمد، ورواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، من حديث سماك بإسناده نحوه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك، ووقفه.

ولفظ أبي داود: ((وهل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟)).

قالوا: لا ندري.

قال: ((بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاثة وسبعون سنة)) والباقي نحوه.

وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، ومحمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وأحمد بن سعيد الرباطي، قالوا: حدثنا وهب بن جرير.

قال أحمد: كتبناه من نسخته، وهذا لفظه، قال حدثنا أبي، قال سمعت محمد بن إسحاق، يحدث عن يعقوب بن عقبة، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي، فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ويحك أتدري ما تقول؟))

وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه.

ثم قال: ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك.

ويحك أتدري ما الله؟! إن عرشه على سمواته لهكذا.

وقال: بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه لينط به أطيظ الزحل بالراكب)).

قال ابن بشار في حديثه: ((إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته...)) وساق الحديث

وقال عبد الأعلى: وابن المثنى، وابن بشار، عن يعقوب بن عقبة، وجبير بن محمد بن جبير، عن أبيه، عن جده.

قال أبو داود: والحديث بإسناد أحمد بن سعيد، وهو الصحيح، وافقه عليه جماعة منهم: يحيى بن معين، وعلي بن المدني، ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق، كما قال أحمد أيضا.

وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار في نسخة واحدة فيما بلغني، تفرد بإخراجها أبو داود.

وقد صنف الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي جزءا في الرد على هذا الحديث سماه: ببيان الوهم والتخليط، الواقع في حديث الأطيظ.

واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار، راويه، وذكر كلام الناس فيه، ولكن قد روي هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق.

فرواه عبد بن حميد، وابن جرير، في (تفسيريهما)، وابن أبي عاصم، والطبراني، في كتابي (السنة) لهما، والبخاري في (مسنده)، والحافظ الضياء المقدسي في (مختاراته)، من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال:

أنت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة.

قال: ((عظّم الربّ تبارك وتعالى.

وقال: إن كرسیه وسع السموات والأرض، وإن له أطيّطاً، كأطيّط الزحل الجديد من ثقله)).

عبد الله بن خليفة هذا: ليس بذاك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر، ثم منهم من يرويه موقوفاً، ومرسلاً، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة، والله أعلم.

وثبت في (صحيح البخاري): عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال:

((إذا سألتكم الله الجنة، فسلوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن)).

يروى (وفوقه) بالفتح على الظرفية، وبالضم، قال: شيخنا الحافظ المزي، وهو أحسن، أي وأعلاها عرش الرحمن.

وقد جاء في بعض الآثار: أن أهل الفردوس يسمعون أطيّط العرش، وهو تسبيحه وتعظيمه وما ذاك إلا لقربهم منه.

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

((لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ)).

وذكر الحافظ ابن الحافظ: محمد بن عثمان بن أبي شيبة، في كتاب (صفة العرش) عن بعض السلف: أن العرش مخلوق من ياقوته حمراء، بُعد ما بين قطريه، مسيرة خمسين ألف سنة.

وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4] أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة، واتساعه خمسون ألف سنة.

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس، والأثير.

وهذا ليس بجيد، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل، وأيضاً فإنه فوق الجنة، والجنة فوق السموات، وفيها مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك.

وأيضاً فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23] وليس هو فلکاً، ولا تفهم منه العرب ذلك. والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7]

وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية، وفوق ظهورهن العرش، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

وقال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن محمد، هو أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عقبة، عن عكرمة، عن ابن عباس:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال:

رجل وثور تحت رجل يمينه * و النسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صدق)).

فقال:

والشمس تطلع كل آخر ليلة * حمراء مطلع لونها متورد

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها * إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صدق)).

فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فيعارضه حديث الأوعال. اللهم إلا أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم. والله أعلم.

ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله:

مجدوا الله فهو للمجد أهل * ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بهر النا * س وسوى فوق السماء سريرا

شرجعاً لا يناله بصر العي * ن ترى حوله الملائك صورا

صور: جمع، أصور: وهو المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرجع: هو العالي المنيف.

والسرير: هو العرش في اللغة.

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق * وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا

وتحملة ملائكة كرام * ملائكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبد البر، وغير واحد من الأئمة.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)).

ورواه ابن أبي عاصم، ولفظه محقق الطير مسيرة سبعمائة عام.

وأما الكرسي

فروى ابن جرير من طريق جويبر - وهو ضعيف - عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش، وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره.

وعن ابن عباس وسعيد بن جببر أنهما قالوا في قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: 255] أي علمه.

والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في (مستدركه). وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل.

وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس في (تفسيره): عن أبي عاصم النبيل، عن الثوري، فجعله مرفوعاً.

والصواب: أنه موقوف على ابن عباس.

وحكاه ابن جرير: عن أبي موسى الأشعري، والضحاك بن مزاحم، وإسماعيل ابن عبد الرحمن السدي الكبير، ومسلم البطين.

وقال السدي عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش.

وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش.

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم: من طريق الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: لو أن السموات السبع، والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن ببعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفارة.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما السموات السبع في الكرسي إلا كدارهم سبعة ألقيت في ترس)).

قال: وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)).

أول الحديث مرسل. وعن أبي ذر منقطع.

وقد روى عنه من طريق أخرى موصولاً.

فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في (تفسيره): أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، أنبأنا عبد الله ابن وهيب المغربي، أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد النخعي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)).

وقال ابن جرير في (تاريخه): حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا أبي، عن سفيان عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جببر قال: سئل ابن عباس عن قوله عز وجل: لَوْ كَانَ عَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ [هود: 7]. على أي شيء كان الماء؟

قال: على متن الريح، قال: والسماوات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل، ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي.

وروى عن وهب ابن منبه نحوه.

وفسر وهب الهيكل فقال: شيء من أطراف السماوات، يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط.

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت. وفيما زعموه نظر، لأنه قد ثبت أنه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير، ورد الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك.

فإن قال قائلهم: فنحن نعرف بذلك، ونسميه مع ذلك فلماً فنقول: الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك وإنما هو كما، قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه. ومثل هذا لا يكون فلماً.

وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه. هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم، والله أعلم.

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله، عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، الله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق، ويرزق، ويميت، ويحيي، ويعز، ويذل، ويفعل ما يشاء)).

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده، وأتبع رسله، أدخله الجنة.

قال: واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب. وحافته الدر والياقوت، ودفناه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك.

وقال أنس بن مالك، وغيره من السلف: اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل.

وقال مقاتل: هو عن يمين العرش.

ما ورد في خلق السماوات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: 1].

وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: 7] في غير ما آية من القرآن.

وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين:

فالجهمور: على أنها كأيامنا هذه.

وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وكعب الأحمري: إن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

واختار هذا القول الإمام أحمد ابن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية، وابن جرير وطائفة من المتأخرين، والله أعلم، وسيأتي ما يدل على هذا القول.

وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم، وغيره أن أسماء الأيام الستة (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت).

وحكى ابن جرير: في أول الأيام ثلاثة أقوال، فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال:

يقول أهل التوراة: ابتداء الله الخلق يوم الأحد.

ويقول أهل الإنجيل: ابتداء الله الخلق يوم الاثنين.

ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابتداء الله الخلق يوم السبت.

وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية، وغيرهم.

وسياتي فيه حديث أبي هريرة ((خلق الله التربة يوم السبت)) والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير، عن السدي، عن أبي مالك. وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة.

ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام، واختاره ابن جرير وهو نص التوراة.

ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء. وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا، كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذة المسلمون عيدهم في الأسبوع، وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
[البقرة: 29]

وقال تعالى {قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِوَابًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: 9 - 12].

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَنَبَارِكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [غافر: 64].

قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} إلى أن قال: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا} [النبا: 136 -].

وقال تعالى: {وَأولم يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: 30] أي: فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح، ونزلت الأمطار وجرت العيون والأنهار، وانتعش الحيوان.

ثم قال: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ} [الأنبياء: 32].

أي عما خلق فيها من الكواكب الثابتة، والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسماوات كما قال تعالى: {وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: 105 - 106].

فأما قوله تعالى: {ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات: 33-27].

فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض. فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين، ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء.

وقد كان ذلك مقدرًا فيها بالقوة كما قال تعالى: {وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: 10].

أي هيا أماكن الزرع، ومواضع العيون والأنهار، ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي، دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعًا فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار، ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحى بإخراج الماء والمرعى منها، وإرساء الجبال فقال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: 31-30].

وقوله: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات: 32].

أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها، وثبتها، وأكدها، وأطدها، وقوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذريات: 47-49].

بأيدي: أي بقوة.

وأنا لموسعون: وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها.

ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات. وهو أوسع منهن كلهن. والعرش أعظم من ذلك كله بكثير.

وقوله بعد هذا: {وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا} أي: بسطناها وجعلناها مهدًا أي قارة ساكنة غير مضطربة، ولا مائدة بكم. ولهذا قال: {فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} والواو لا تقتضي الترتيب في الوقوع. وإنما يقتضي الإخبار المطلق في اللغة، والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا عمر بن جعفر بن غياث، حدثنا أبي حدثنا الأعمش، حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز، أنه حدثه عن عمران بن حصين قال:

دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم، فقال

: ((اقبلوا البشرى يا بني تميم)).

قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين.

ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم)).

قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.

قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر. قال:

((كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض))
فنادى مناد ذهب نافتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي تقطع دونها السراب، فوالله لو ددت أني كنت تركتها.
هكذا رواه هاهنا.

وقد رواه في كتاب المغازي، وكتاب التوحيد، وفي بعض ألفاظه: ((ثم خلق السموات والأرض)) وهو لفظ
النسائي أيضاً.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا حجاج، حدثني ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن
عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال:

((خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم
الثلاث، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة، آخر خلق
خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل)).

وهكذا رواه مسلم عن سريخ بن يونس، وهارون بن عبد الله، والنسائي عن هارون، ويوسف بن سعيد ثلاثهم
عن حجاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج، به مثله سواء.

وقد رواه النسائي في التفسير: عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، عن محمد بن الصباح، عن أبي عبيدة الحداد،
عن الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم أخذ بيدي فقال:

((يا أبا هريرة إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق
التربة يوم السبت)).

وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج.

وقد تكلم في هذا الحديث على ابن المديني، والبخاري، والبيهقي، وغيرهم من الحفاظ.

قال البخاري في (التاريخ): وقال بعضهم عن كعب، وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة،
وتلقاه من كعب الأخبار، فإنهما كان يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بما
يصدقه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب، عن صحفه، فوهم
بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأكد رفعه بقوله: ((أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي)).

ثم في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك: أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض، وما فيها في سبعة
أيام.

وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان، وهو بخار الماء
الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة.

كما قال إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير، في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس،
وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ} [البقرة: 29].

قال: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قيل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء
دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسماه عليه فسماه سماء، ثم أبيض الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها، فجعل سبع
أرضين في يومين الأحد، والاثنين، وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال الله تعالى: {إِن وَالْقَلَمِ وَمَا
يَسْطُرُونَ} [القلم: 1].

والحوت في الماء، والماء على صفات، والصفات على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح. وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء، ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقرت.

وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والمدائن، والعمران، والخراب، وفتق السماء، وكانت رتقاً فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة.

وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، وأوحى في كل سماء أمرها.

ثم قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والبحار، وجبال البرد، وما لا يعلمه غيره. ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة، وحفظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب، استوى على العرش.

هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة، وكان كثير منها متلقي من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب، فيستمع له عمر تأليفاً له، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر، فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا.

ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل، لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير، وخطأ كثير.

وقد روى البخاري في (صحيحه): عن معاوية أنه كان يقول في كعب الأحبار: وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، أي: فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك، والله أعلم.

ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم. ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة، أو يكذبه، ويبقى الباقي مما لا يصدق، ولا يكذب، وبه المستعان وعليه التكلان.

قال البخاري: حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي)).

وكذا رواه مسلم والنسائي، عن قتيبة به.

ثم قال البخاري.

ما جاء في سبع أرضين

وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

ثم قال: حدثنا علي بن عبدالله، أخبرنا ابن عليه، عن علي بن المبارك، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك. فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين)).

ورواه أيضاً في كتاب المظالم، ومسلم، من طرق عن يحيى بن كثير به. ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة به، ورواه أيضاً عن يونس، عن إبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عائشة بمثله ثم قال البخاري: حدثنا بشر بن محمد، قال: أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه، خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين)).

ورواه في المظالم أيضاً عن مسلم بن إبراهيم، عن عبد الله هو ابن المبارك، عن موسى بن عقبة به، وهو من أفراده.

وذكر البخاري هاهنا حديث محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثني عشر شهراً)) الحديث.

ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أي في العدد.

كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول، فهذه مطابقة في الزمن، كما أن تلك مطابقة في المكان.

ثم قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة، عن هشام عن أبيه، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، أنه خاصمته أروى في حق، زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان فقال سعيد رضي الله عنه: أنا أنتقص من حقها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول من أخذ شبراً من الأرض ظلماً، فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)) ورواه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، وأبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن لهيعة، حدثنا عبد الله ابن أبي جعفر، عن أبي عبد الرحمن، عن ابن مسعود، قال: قلت يا رسول الله أي الظلم أعظم؟ قال:

((ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه، فليس حصة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها)) تفرد به أحمد. وهذا إسناد لا بأس به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين)).

تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، حدثني أبي، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين)).

تفرد به أيضاً، وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين)) تفرد به أيضاً.

وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قررة، عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى، والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة، حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها، وفي وسطها المركز، وهي نقطة مقدرة متوهمة. وهو محط الأثقال، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع.

واختلفوا هل هن مترامكات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء، على قولين. وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً.

والظاهر أن بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين، وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً. والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة، لظاهر قوله تعالى:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} الآية [الطلاق: 12].

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مرت سحابة فقال:

((أتدرون ما هذه؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((العنان، وزوايا الأرض، تسوقه إلى من لا يشكرونه من عباده، ولا يدعونه. أتدرون ما هذه فوقكم؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((الرفيع موج مكفوف، وسقف محفوظ. أتدرون كم بينكم وبينها؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((مسيرة خمسمائة سنة)).

ثم قال: ((أتدرون ما الذي فوقها؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((مسيرة خمسمائة عام حتى عدَّ سبع سموات)).

ثم قال: ((أتدرون ما فوق ذلك؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((العرش. أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة؟)) قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((مسيرة خمسمائة عام)).

ثم قال: ((أتدرون ما هذه تحتكم؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((أرض، أتدرون ما تحتها؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((أرض أخرى، أتدرون كم بينهما؟)).

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((مسيرة سبعمائة عام حتى عدّ سبع أرضين)).

ثم قال: ((وأيّ الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط)).

ثم قرأ {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

ورواه الترمذي: عن عبد بن حميد، وغير واحد، عن يونس بن محمد المؤدب، عن شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، قال: حدث الحسن عن أبي هريرة، وذكره. إلا أنه ذكر أن بُعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام وذكر في آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد.

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

قال: ويروى عن أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد أنهم قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة.

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في (تفسيره): من حديث أبي جعفر الرازي عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره.

ورواه ابن جرير في (تفسيره): عن بشر، عن يزيد، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا، وقد يكون هذا أشبهه، والله أعلم.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، والبيهقي: من حديث أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يصح إسناده، والله أعلم.

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال، ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له. وفيه وبعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام، وكثفها أي سمكها خمسمائة عام.

وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث ((طوقه من سبع أرضين)) أنها سبعة أقاليم.

فهو قول يخالف ظاهر الآية، والحديث الصحيح، وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة. ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم.

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب، وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا، من أن هذه الأرض من تراب، والتي تحتها من حديد، والأخرى من حجارة من كبريت، والأخرى من كذا، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله.

وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال: في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كأدمكم، وإبراهيم كأبراهيمكم، فهذا ذكره ابن جرير مختصراً، واستقصاه البيهقي في (الأسماء والصفات)، وهو محمول إن صح نقله عنه، على أنه أخذ ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها، فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟

قال: نعم الحديد.

قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟

قال: نعم النار.

قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟

قال: نعم الريح.

قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟

قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله)) تفرد به أحمد.

وقد ذكر أصحاب الهيئة إعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً، وذكروا طولها وبعد امتدادها وارتفاعها، وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

قال ابن عباس، وغير واحد: الجدد: الطرائق.

وقال عكرمة وغيره: الغرايب: الجبال الطوال السود.

وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين، وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة. عند الموصل امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام، وارتفاعه مسيرة نصف يوم، وهو أخضر، لأن فيه شجراً من البلوط، وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين، لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين، والله أعلم.

فصل في البحار والأنهار

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 14-18].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَسْتَوِي الْبَحْرَانَ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 53].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 19-20].

فالمراد بالبحرين: البحر الملح المر، وهو الأجاج، والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار، لمصالح العباد، قاله ابن جريج، وغير واحد من الأئمة.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوقِعْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾. [الشورى: 32-34].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهم مَوْجٌ كَالظُّلِّ دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: 31-32].

وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 164].

فامتنتُ تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار، فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض، وما ينبت منه في جوانبها، الجميع مالح الطعم مر، وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء، إذ لو كان حلوا لأنتن الجو، وفسد الهواء، بسبب ما يموت فيه من الحيوانات، فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم.

ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة. ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البحر قال: ((هو الطهور ماؤه، الحل ميتته)).

وأما الأنهار: فمأؤها حلو، عذب، فرات سائغ شرابها، لمن أراد ذلك. وجعلها جارية، سارحة ينبعها تعالى في أرض، ويسوقها إلى أخرى، رزقا للعباد. ومنها: كبار، ومنها: صغار، بحسب الحاجة والمصلحة.

وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار، والأنهار الكبار، وأصول منابعها، وإلى أين ينتهي سيرها، بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة.

وقوله تعالى: {هُوَ الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ} [الطور: 6].

فيه قولان:

أحدهما: أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال. وأنه فوق السموات السبع، بين أسفله وأعله، كما بين سماء إلى سماء، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث، فتحيا منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس.

والثاني: أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التي في الأرض، وهو قول الجمهور.

واختلفوا في معنى البحر المسجور: فقيل المملوء، وقيل: يصير يوم القيامة نارا توجب، فيحيط بأهل الموقف، كما ذكرناه في التفسير، عن علي، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن مجاهد، وغيرهم.

وقيل: المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى، فيغمر الأرض ومن عليها، فيغرقوا.

رواه الوالبي عن ابن عباس، وهو قول السدي وغيره، ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل، قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ليس من ليلة، إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض، يستأذن الله عز وجل أن يتفصح عليهم، فيكفه الله عز وجل)).

ورواه إسحاق بن راهويه، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لمحرس، لم يخرج أحد من المحرس غيري، فأتيت الميناء، فصعدت، فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف، يحاذي برعوس الجبال، فعل ذلك مراراً، وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال:

حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن يتفصح عليهم، فيكفه الله عز وجل)).

في إسناده رجل مبهم، والله أعلم.

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم، وسخره لهم، يحمل مراكبهم ليلبغوا عليها إلى الأقاليم النائية، بالتجارات وغيرها، وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض، من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم، وبما خلق لهم فيه من اللآلئ، والجواهر النفيسة، العزيزة الحسنة الثمينة، التي لا توجد إلا فيه، وبما خلق فيه من الدواب الغريبة، وأحلها لهم حتى ميبتها.

كما قال تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾ [المائدة: 96].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هو الظهور ماؤه، الحل ميته)).

وفي الحديث الآخر:

((أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال)).

رواه أحمد، وابن ماجه، وفي إسناده نظر.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في (مسنده): وجدت في كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه قال:

((كلم الله هذا البحر الغربي، وكلم البحر الشرقي، فقال للغربي: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فكيف أنت صانع بهم؟.

قال أغرقهم.

قال: بأسك في نواحيك، وحرمة الحلية والصيد.

وكلم هذا البحر الشرقي، فقال: إني حامل فيك عبداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟.

قال: أحملهم على يدي، وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحلية والصيد. ثم قال لا تعلم أحداً)).

ما رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وهو منكر الحديث.

قال: وقد رواه سهيل، عن عبد الرحمن بن أبي عياش، عن عبد الله بن عمرو موقفاً.

قلت: الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه، فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات، منها: المعروف، والمشهور، والمنكور، والمردود.

فأما المعروف: فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، أبو القاسم المدني قاضيها.

قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء، وقد سمعته منه، ثم مزقت حديثه، كان كذاباً، وأحاديثه مناكير.

وكذا ضعّفه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والجوزجاني، والبخاري، وأبو داود، والنسائي.

وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التفسير: المتكلمون على العروض، والأطوال، والبحار، والأنهار، والجبال، والمساحات، وما في الأرض من المدن، والخراب والعمارات، والأقاليم السبعة الحقيقية، في اصطلاحهم، والأقاليم المتعددة العرفية، وما في البلدان والأقاليم من الخواص، والنباتات، وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات.

قالوا: الأرض مغمورة بالماء العظيم، إلا مقدار الربع منها، وهو: تسعون درجة، والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها، لتعيش الحيوانات عليها، وتنبت الزرع، والثمار منها، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْكُفْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 10-13].

قالوا: المعمور من هذا البادي منها قريب الثلاثين منه، أو أكثر قليلاً، وهو خمس وتسعون درجة.

قالوا: فالبحر المحيط الغربي، ويقال له: أوقيانوس، وهو الذي يتاخم بلاد المغرب، وفيه الجزائر الخالدات، وبينها وبين ساحله عشر درج، مسافة شهر تقريباً.

وهو بحر لا يمكن سلوكه، ولا ركوبه، لكثرة موجه، واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج، وليس فيه صيد، ولا يستخرج منه شيء، ولا يسافر فيه لمتجر، ولا لغيره، وهو أخذ في ناحية الجنوب، حتى يسامت الجبال القمر.

ويقال جبال القمر، التي منها أصل منبع نيل مصر، ويتجاوز خط الإستواء، ثم يمتد شرقاً، ويصير جنوبي الأرض.

وفيه هناك جزائر الزابج، وعلى سواحلها خراب كثير. ثم يمتد شرقاً وشمالاً، حتى يتصل بحر الصين والهند. ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة. وهناك بلاد الصين.

ثم ينعطف في شرق الصين، إلى جهة الشمال، حتى يجاوز بلاد الصين، ويسامت سد يأجوج، ومأجوج.

ثم ينعطف، ويستدير على أراضي غير معلومة الأحوال.

ثم يمتد مغرباً في شمال الأرض، ويسامت بلاد الروس، ويتجاوزها، ويعطف مغرباً وجنوباً، ويستدير على الأرض، ويعود إلى جهة الغرب، وينبثق من الغربي، إلى متن الأرض الزقاق، الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب.

ثم يأخذ في بلاد الروم، حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقي بحار آخر، فيها جزائر كثيرة، حتى إنه يقال: إن في بحر الهند ألف جزيرة، وسبعمائة جزيرة، فيها مدن، وعمارات، سوى الجزائر العاطلة، ويقال لها: البحر الأخضر. فشرقيه بحر الصين، وغربيه بحر اليمن، وشماله بحر الهند، وجنوبيه غير معلوم.

وذكروا أن بين بحر الهند، وبحر الصين، جبلاً فاصلة بينهما، وفيها فجاج يسلك المراكب بينها، يسيرها لهم الذي خلقها، كما جعل مثلها في البر أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31].

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند، في كتابه المسمى (بالمجسطي) الذي عُرب في زمان المأمون، وهو أصل هذه العلوم، أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي، والجنوبي والشمال، كثيرة جداً.

فمنها ما هو واحد، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القلزم. والقلزم: قرية على ساحله، قريب من أيلة.

وبحر فارس، وبحر الخزر، وبحر ورنك، وبحر الروم، وبحر بنطش، وبحر الأزرق، مدينة على ساحله. وهو بحر القرم أيضاً، ويتضايق حتى يصب في بحر الروم، عند جنوبي القسطنطينية، وهو خليج القسطنطينية.

ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحر الروم، وتبطيء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم، لاستقبالها جريان الماء.

وهذا من العجائب في الدنيا، فإن كل ماء جار، فهو حلو إلا هذا، وكل بحر راكد، فهو ملح أجاج، إلا ما يذكر عن بحر الخزر، وهو بحر جرجان، وبحر طبرستان، أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً، على ما أخبر به المسافرون عنه.

قال أهل الهيئة: وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو. وقيل: إنه مثلث كالقلع، وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط، بل منفرد وحده، وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة، وقيل أكثر من ذلك، والله أعلم.

ومن ذلك: البحر الذي يخرج منه المد والجزر، عند البصرة، وفي بلاد المغرب، نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر، ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه، وهو المد.

ثم يشرع في النقص، وهو الجزر، إلى آخر الشهر.

وقد ذكروا تحديد هذه البحار، ومبتدأها، ومنتهاها، وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار، وغيرها من السيول، وهي البطائح.

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها، ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه، وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث.

وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 23-34].

ففي (الصحيحين): من طريق قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما ذكر سدره المنتهى، قال:

((فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان، ونهران ظاهران.

فأما الباطنان: ففي الجنة، وأما الظاهران: فالنيل، والفرات)).

وفي لفظ في البخاري: وعنصرهما أي مادتهما، أو شكلهما، وعلى صفتها، ونعتها، وليس في الدنيا مما في الجنة، إلا سماوية.

وفي (صحيح مسلم): من حديث عبيد الله بن عمر، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، كل من أنهار الجنة)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، ويزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((فجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات، والنيل، وسيحان، وجيحان)). وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وكان المراد، والله أعلم من هذا: أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفاتها وعذوبتها وجريانها، ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها، كما قال في الحديث الآخر، الذي رواه الترمذي، وصححه من طريق سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم)).

أي تشبه ثمر الجنة، لا أنها مجتناة من الجنة، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك، فتعين أن المراد غيره.

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم:

((الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء)).

وكذا قوله: ((إذا اشتد الحمى، فأبردوها بالماء، فإن شدة الحر من فيح جهنم)).

وهكذا هذه الأنهار، أصل منبعها مشاهد من الأرض.

أما النيل: وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته، ولطافته، وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه؛ فمبتداه من الجبال القمر، أي البيض. ومنهم من يقول: جبال القمر بالإضافة إلى الكواكب، وهي: في غربي الأرض، وراء خط الإستواء، إلى الجانب الجنوبي.

ويقال: إنها حمر ينبع من بينها عيون، ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة، ثم يجتمع كل خمسة منها في بحر، ثم يخرج منها أنهار ستة، ثم يجتمع كلها في بحيرة أخرى، ثم يخرج منها نهر واحد هو: النيل، فيمر على بلاد السودان الحبشة، ثم على النوبة، ومدينتها العظمى دمقلة، ثم على أسوان، ثم يفد على ديار مصر.

وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها، واجترف من ترابها، وهي محتاجة إليهما معاً، لأن مطرها قليل، لا يكفي زروعها، وأشجارها.

وتربها رمال، لا تنبت شيئاً، حتى يجيء النيل بزيادته وطينه، فينبت فيه ما يحتاجون إليه، وهي من أحق الأراضي، بدخولها في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [السجدة: 27].

ثم يجاوز النيل مصر قليلاً، فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه، يقال لها: شطنوف، فيمر الغربي على رشيد، ويصب في البحر المالح.

وأما الشرقي: فتفترق أيضاً عند جوجر فرقتين، تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها، ويصب في البحر. والشرقية منهما تمر على أشمون طنح، فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط، يقال لها بحيرة تنيس، وبحيرة دمياط.

وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه. ولهذا كان لطف المياه.

قال ابن سينا: له خصوصيات دون مياه سائر الأرض.

فمنها: أنه أبعدا مسافة من مجراه إلى أقصاه.

ومنها: أنه يجري على صخور ورمال، ليس فيه خز، ولا طحلب، ولا أوحال.

ومنها: أنه لا يخضر فيه حجر، ولا حصاة، وما ذاك إلا لصحة مزاجه، وحلاوته، ولطافته.

ومنها: أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار، ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها.

وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع، اطلع عليه بعض الناس، فرأى هناك هولاً عظيماً، وجواري حسناً، وأشياء غريبة، وأن الذي اطلع على ذلك، لا يمكنه الكلام بعد هذا، فهو من خرافات المؤرخين، وهذيانات الأفاكين.

وقد قال عبدالله بن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حدثه قال: لما فتح عمرو بن عاص مصر، أتى أهلها إليه، حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم القبطية، فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة، لا يجري إلا بها.

فقال لهم: وما ذاك؟

قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة، خلعت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبيوها، فأرضينا أبيوها، وجعلنا عليها من الحلبي، والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو:

إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا بؤنة، والنيل لا يجري لا قليلاً، ولا كثيراً.

وفي رواية: فأقاموا بؤنة، وأبييب، ومسرى، وهو لا يجري، حتى هموا بالجملاء.

فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإنني قد بعثت إليك بطاقة، داخل كتابي هذا، فألقها في النيل.

فلما قدم كتابه، أخذ عمرو البطاقة، ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى نيل مصر، أما بعد:

فإن كنت تجري من قبلك، فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله أن يجريك.

فألقي عمرو البطاقة في النيل، فأصبح يوم السبت. وقد أجرى الله النيل، ستة عشر ذراعاً، في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السنة، عن أهل مصر إلى اليوم.

وأما الفرات: فأصلها من شمالي أرن الروم، فتمر إلى قرب ملطيه، ثم تمر على شمشاط، ثم على البيرة قبلها، ثم تشرق إلى البلس، وقلعة جعبر، ثم الرقة، ثم إلى الرحبة شماليها، ثم إلى عانة، ثم إلى هيت، ثم إلى الكوفة، ثم تخرج إلى فضاء العراق، ويصب في بطائح كبار، أي بحيرات وترد إليها، ويخرج منها أنهار كبار معروفة.

وأما سيحان: ويقال له سيحون أيضاً، فأوله من بلاد الروم، ويجري من الشمال، والغرب، إلى الجنوب، والشرق، وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر، وهو ببلاد الأرض التي تعرف اليوم ببلاد سبب، وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين.

فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية، وملكوا الشام وأعمالها، عجزوا عن صونها عن الأعداء، فتغلب تقفور الأرمني على هذه البلاد، أعني بلاد سبب، في حدود الثلاثمائة، وإلى يومنا هذا. والله المسؤول عودها إلينا بحوله وقوته.

ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنه فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في بحر الروم بين آياس، وطرسوس.

وأما جيحان: ويقال له جيحون أيضاً، وتسميه العامة جاهان. وأصله في بلاد الروم، ويسير في بلاد سبب، من الشمال إلى الجنوب، وهو يقارب الفرات في القدر، ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنه، فيصيران نهراً واحداً، ثم يصبان في البحر عند آياس، وطرسوس، والله أعلم.

فصل

قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*} وفي الأرض قطعاً متجاورات وجناتاً من أعنابٍ وزرْعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: 2-4].

وقال تعالى: {مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ*} أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النمل: 60-61].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُبَيِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل: 10-12].

فذكر تعالى: ما خلق في الأرض، من الجبال، والأشجار، والثمار، والسهول، والأوعار، وما خلق من صنوف المخلوقات، من الجمادات، والحيوانات في البراري، والفقار، والبر، والبحار، ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه، وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه، في ليلها ونهارها، وصيفها وشتائها، وصباحها ومساءها.

كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: 6].

وقد روى الحافظ أبو يعلى، عن محمد بن المثنى، عن عبيد بن واقد، عن محمد بن عيسى بن كيسان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((خلق الله ألف أمة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تتابعت مثل النظام، إذا قطع سلكه)).

عبيد بن واقد أبو عباد البصري، وضعفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وشيخه أضعف منه.

قال الفلاس والبخاري: منكر الحديث.

وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يحدث عنه.

وضعفه ابن حبان، والدارقطني، وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره، والله أعلم.

وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَانِ مِمَّا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: 38].

ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 29].

وقال تعالى: {قُلْ أُنذِرُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: 9-12].

وقال تعالى: {ءَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاحًا} [النازعات: 27-30]، فإن الدحي غير الخلق، وهو بعد خلق السماء. (ج/ص: 31/1)

وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك: 1-5].

وقال تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا} [النبأ: 12-13].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح: 16-15].

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 61-62].

وقال تعالى: {إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ * إِنَّا مِّنْ حَظِيفِ الْخَطِيفَةِ فَاتَّبِعْهُ شِهَابٌ تَائِبٌ} [الصافات: 6-10].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبِعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} [الحجر: 16-18].

وقال تعالى: {هُوَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: 47].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 32-33].

وقال تعالى: {هُوَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: 37-40].

وقال تعالى: {فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: 96-97].

وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

والآيات في هذا كثيرة جداً، وقد تكلمنا على كل منها في التفسير.

والمقصود: أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها، وارتفاعها، وأنها في غاية الحسن والبهاء، والكمال والسناء.

كما قال تعالى: {هُوَ السَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات: 7]، أي الخلق الحسن.

وقال تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: 3-4]. أي: خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي كليلاً ضعيفاً.

ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب، لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكوكب ألقها، كما قال: {هُوَ السَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: 1] أي: النجوم.

وقيل: محال الحرس التي يرمي منها بالشهب لمسترق السمع، ولا منافاة بين القولين.

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ} [الحجر: 16-17].

فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات، الشمس والقمر، والنجوم الزاهرات، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها، وهذا زينة معنى فقال: وحفظناها من كل شيطان رجيم.

كما قال: {إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى} [الصفافات: 6-7].

قال البخاري في كتاب بدء الخلق، وقال قتادة: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك: 5].

خلق هذه النجوم الثلاث، جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وهذا الذي قاله قتادة مصرح به في قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: 5].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: 97].

فمن تكلف غير هذه الثلاث، أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها، وأن ذلك يدل على حوادث أرضية فقد أخطأ.

وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس، وظنون كاذبة، ودعاوى باطلة، وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً أي: واحدة فوق واحدة.

واختلف أصحاب الهيئة: هل هن مترامات؟ أو متفصلات بينهن خلاء؟ على قولين:

والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة، عن الأحنف، عن العباس في حديث الأوعال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((أتدرون كم بين السماء والأرض؟))

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((بينهما مسيرة خمسمائة عام، ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة سنة...)).

الحديث بتمامه رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذي، وحسنه.

وفي (الصحيحين) من حديث أنس في حديث الإسراء قال فيه:

((ووجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فرد عليه السلام.

وقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت - إلى أن قال - ثم عرج إلى السماء الثانية، وكذا ذكر في الثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة)).

فدل على التفاضل بينها لقوله: ((ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية، فاستفتح فقيل من هذا؟)) الحديث، وهذا يدل على ما قلناه، والله أعلم.

وقد حكى ابن حزم، وابن المنير، وأبو الفرج ابن الجوزي، وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات: كرة مستديرة. واستدل على ذلك بقوله: كل في فلك يسبحون.

قال الحسن: يدورون، وقال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل.

قالوا: ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب، ثم تطلع في آخرها من المشرق، كما قال أمية ابن أبي الصلت.

والشمس تطلع كل آخر ليلة * حمراء مطلع لونها متورد

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها * إلا معذبة وإلا تجلد

فأما الحديث الذي رواه البخاري حيث قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس:

((تدري أين تذهب؟))

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، وبوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]).

هذا لفظه في بدء الخلق، ورواه في التفسير.

وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضاً، ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش، ومن طريق يونس بن عبيد، وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة، كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك، عن أبيه، عن أبي ذر به نحوه.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السموات على أشهر القولين، ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون قد أبطلنا قولهم فيما سلف، ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش، بل هي تغرب عن أعيننا، وهي مستمرة في فللكها الذي هي فيه، وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير.

وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس، وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقضيه، فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه، وهو وقت نصف الليل مثلاً في اعتدال الزمان، بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي، فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبب من جهة وجه العالم، وهذا محل سجودها كما يناسبها.

كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا، فإذا كانت في محل سجودها، استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق، فيؤذن لها، فتبدو من جهة الشرق، وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم، ولهذا قال أمية:

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها * إلا معذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عاداتها، وتستأذن في الطلوع من عاداتها، فلا يؤذن لها، فجاء أنها تسجد أيضاً، ثم تستأذن، فلا يؤذن لها، ثم تسجد، فلا يؤذن لها، وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير، فنقول: يا رب إن الفجر قد اقترب، وإن المدى بعيد.

فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها.

فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، وفسروا بذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: 38]

قيل: لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها.

وقيل: مستقرها: موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش.

وقيل: منتهى سيرها، وهو آخر الدنيا.

وعن ابن عباس أنه قرأ: والشمس تجري لا مستقر لها، أي: ليست تستقر، فعلى هذا تسجد وهي سائرة.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

أي: لا تدرك الشمس القمر، فتطلع في سلطانه ودولته، ولا هو أيضاً، ولا الليل سابق النهار، أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذلك عنه فيها، بل إذا ذهب النهار جاء الليل في أثره متعقباً له.

كما قال في الآية الأخرى: {.... يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]، أي: يخلف هذا لهذا، وهذا لهذا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار، وليس بينهما غيرهما، ولهذا قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: 13] فيولج من هذا في هذا، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا، فيعتدلان كما في أول فصل الربيع، يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهار قصيراً، فلا يزال الليل ينقص، والنهار يتزايد، حتى يعتدلا، وهو أول الربيع.

ثم يشرع النهار يطول ويتزايد، والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف.

ثم يشرع الليل يطول، ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف، ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً، ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً، حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا، وهكذا في كل عام.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي اخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المؤمنون: 80] أي: هو المتصرف في ذلك كله، الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع.

ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السموات، والنجوم، والليل والنهار {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: 38].

أي: العزيز الذي قد فهر كل شيء، ودان له كل شيء، فلا يمانع ولا يغالب، العليم بكل شيء، فقدر كل شيء تقديرًا على نظام لا يختلف ولا يضطرب.

وقد ثبت في (الصحيحين)، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال الله: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار)).

وفي رواية: ((فأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره)).

قال العلماء كالشافعي، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وغيرهما: يسب الدهر، أي يقول: فعل بنا الدهر كذا، يا خيبة الدهر، أيتم الأولاد، أرمل النساء.

قال الله تعالى: ((وأنا الدهر)) أي: أنا الدهر الذي يعنيه، فإنه فاعل ذلك، الذي أسنده إلى الدهر، والدهر مخلوق، وإنما فعل هذا هو الله، فهو يسب فاعل ذلك، ويعتده الدهر، والله هو الفاعل لذلك، الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، كما قال: ((وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره)).

وكما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَلَكَ مَلِكًا لِيُؤْتِيَ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26-27].

((إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم)).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَوَّنُونَ﴾ [يونس: 5-6].

أي: فاوت بين الشمس والقمر في نورهما، وفي شكلهما، وفي وقتهما، وفي سيرهما، فجعل هذا ضياءً، وهو شعاع الشمس برهان ساطع، وضوء باهر، والقمر نوراً أي أضعف من برهان الشمس، وجعله مستفاداً من ضوئها، وقدره منازل أي:

يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً، قليل النور، لقربه من الشمس، وقلة مقابلته لها، فيقدر مقابلته لها يكون نوره.

ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى، فيكون نوره بضعف النور أول ليلة.

ثم كلما بعدُ ازداد نوره، حتى يتكامل إبطاره ليلة مقابلته إياها من المشرق، وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر.

ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر، فيستتر، حتى يعود كما بدأ في أول الشهر الثاني.

فيه تعرف الشهور، وبالشمس تعرف الليالي والأيام، وبذلك تعرف السنين والأعوام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ أَحْسَنَهُ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير، فالكواكب التي في السماء، منها سيارات، وهي المتخيرة في اصطلاح علماء التفسير، وهو علم غالبه صحيح، بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل، ودعوى ما لا دليل عليه، وهي سبعة:

القمر في سماء الدنيا.

وعطارد في الثانية.

والزهرة في الثالثة.

والشمس في الرابعة.

والمريخ في الخامسة.

والمشتري في السادسة.

وزحل في السابعة.

وبقية الكواكب يسمونها الثوابت، وهي عندهم في الفلك الثامن، وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين.

وقال آخرون: بل الكواكب كلها في السماء الدنيا، ولا مانع من كون بعضها فوق بعض، وقد يستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].

ويقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12].

فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب، فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك، وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون، والله أعلم.

وعندهم: أن الأفلاك السبعة، بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت، والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق، فالقمر يقطع فلكه في شهر. والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة.

فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت، وحركاتهما متقاربة، كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة، وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلاثمائة وستين مرة.

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب، وسيرها، وحركاتها، وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام، وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية، ومما لا علم لكثير منهم به.

وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام يدهور لهم في هذا كلام كثير، يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق، وجعلوا لها أبواباً سبعة، وجعلوا على رأس كل باب هيكل على صفة الكواكب السبعة، يعبدون كل واحد في هيكله، ويدعونه بدعاء يآثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ، وغيرهم.

وذكره صاحب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم، وغيره من علماء الحرانيين (فلاسفة حران) في قديم الزمان، وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبع، وهم طائفة من الصابئين.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37].

وقال تعالى إخباراً عن الهدد: أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26-23].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْقَهُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 48-50].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: 15].

وقال تعالى: ﴿تَسْبِخُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السموات والأرض هي الكواكب، وأشرفهن منظراً، وأشرفهن معتبراً: الشمس والقمر، استدل الخليل على بطلان إلهية شيء منهن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]. أي للغائبين.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 77-79].

فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس، لا يصلح شيء منها للألوهية، لأنها كلها مخلوقة مربوبة، مدبرة مسخرة في سيرها، لا تحيد عما خلقت له، ولا تزيف عنه إلا بتقدير متفن محرر، لا تضطرب ولا تختلف.

وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37].

وثبت في (الصحيحين) في صلاة الكسوف، من حديث ابن عمر، وابن عباس، وعائشة وغيرهم، من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يومئذ:

((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)).

وقال البخاري في بدء الخلق: حدثنا مسدد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناج، حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الشمس والقمر مكوران يوم القيامة)).

انفرد به البخاري.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق، فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج، سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد -مسجد الكوفة- وجاء الحسن، فجلس إليه، فحدث قال: حدثنا أبو هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة)).

فقال الحسن: وما دينهما؟

فقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول وما دينهما.

ثم قال البزار لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الشمس والقمر ثوران عقيران في النار)).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، وعمر بن عبد الله الأزدي، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1] قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً.

فدللت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله، خلقها الله لما أراد، ثم يفعل فيها ما يشاء، وله الحجة الدافعة، والحكمة البالغة، فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته، ومشينته النافذة، وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب.

وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب (السيرة) من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل، في خلق السماء والأرض، والشمس والقمر، وغير ذلك.

قال ابن هشام: هي لأمية بن أبي الصلت:

إلى الله أهدي مدحتي وثنائيا * وقولا رضيا لا يني الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه * إله ولا رب يكون مدانيا

ألا أيها الإنسان إياك والردى * فإنك لا تخفي من الله خافيا

وإياك لا تجعل مع الله غيره * فإن سبيل الرشد أصبح باديا

حنانيك إن الجن كانت رجاء هم * وأنت إلهي ربنا ورجائيا

رضيت بك اللهم ربا فلن أرى * أدين إلهها غيرك الله ثانيا

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة * بعثت إلى موسى رسولا مناديا

فقلت له اذهب وهارون فادع * إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

وقولا له أنت سويت هذه * بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا

وقولا له أنت رفعت هذه * بلا عمد ارفق إذا بك بانيا

وقولا له أنت سويت وسطها * منيرا إذا ماجنه الليل هاديا

وقولا له من يرسل الشمس غدوة * فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا

وقولا له من ينبت الحب في الثرى * فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤسه * وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

وأنت بفضل منك نجيت يونس * وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وإني لو سبحت باسمك ربنا * لأكثر إلا ما غفرت خطائيا

فرب العباد ألق سيبيا ورحمة * علي وبارك في بني وماليا

فإذا علم هذا، فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة، خلقها الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12].

وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت، من أن الزهرة كانت امرأة، فراودها على نفسها، فأبت إلا أن يعلمها الاسم الأعظم، فعلمها فقالت، فرفعت كوكبا إلى السماء، فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كعب الأخبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية، والتحديث عن بني إسرائيل.

وقد روى الإمام أحمد، وابن حبان في (صحيحه)، في ذلك حديثاً رواه أحمد، عن يحيى ابن بكير، عن زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر القصة بطولها.

وفيه: ((فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها)) وذكر القصة.

وقد رواه عبد الرزاق في (تفسيره) عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن كعب الأحبار به. وهذا أصح وأثبت.

وقد روى الحاكم في (مستدركه) هو ابن أبي حاتم في (تفسيره) عن ابن عباس، فذكره، وقال فيه: ((وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب)) وذكر تمامه.

وهذا أحسن لفظ روي في هذه القصة، والله أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا مبشر بن عبيد، عن يزيد بن أسلم، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وحدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سهيلاً فقال:

((كان عشاراً ظلوماً، فمسخه الله شهاباً)).

ثم قال: لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد، وهو ضعيف الحديث. ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث.

وإنما ذكرناه على ما فيه من علة، لأننا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين. قلت: أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي، وأصله من الكوفة، فقد ضعفه الجميع، وقال فيه الإمام أحمد، والدارقطني: كان يضع الحديث، ويكذب.

وأما إبراهيم بن يزيد فهو - الخوزي - وهو ضعيف باتفاقهم، قال فيه أحمد، والنسائي: متروك.

وقال ابن معين: ليس بثقة، وليس بشيء.

وقال البخاري: سكتوا عنه.

وقال أبو حاتم، وأبو زرعة: منكر الحديث، ضعيف الحديث.

ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية، وإذا أحسننا الظن قلنا: هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها، والله أعلم.

المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة، فسيخبرني عما أسألهم عنه.

قال: فكتب إليه يسأله عن المجرة، وعن القوس، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة.

قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول، قال: إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا، من لهذا؟

قيل: ابن عباس، فطوى معاوية كتاب هرقل، فبعث به إلى ابن عباس، فكتب إليه:

أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة: باب السماء الذي تنشق منه الأرض، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار: فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني؛ حدثنا أبو الزنباغ: روح بن الفرخ، حدثنا إبراهيم بن مخلد، حدثنا الفضل بن المختار، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن ابن أبي يحيى، عن مجاهد، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا معاذ.. إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب، فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء، فقل: هي لعاب حية تحت العرش)).

فإنه حديث منكر جداً، بل الأشبه أنه موضوع، وراويها الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري، ثم انتقل إلى مصر.

قال فيه أبو حاتم الرازي: هو مجهول، حدث بالأباطيل.

وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث جداً.

وقال ابن عدي: لا يتابع على أحاديثه، لا تمتناً ولا إسناداً.

وقال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيَسْبِخُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: 12-13].

وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 164].

وروى الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن شيخ من بني غفار قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك)).

وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبراهيم أنه قال: إن نطقه الرعد، وضحكه البرق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام، عن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق.

وقد روى الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، والبخاري في كتاب الأدب، والحاكم في (مستدرکه) من حديث الحجاج بن أرطاة، حدثني ابن مطر، عن سالم، عن أبيه، قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال: ((اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك)).

وروى ابن جرير من حديث ليث، عن رجل، عن أبي هريرة رفعه:

كان إذا سمع الرعد قال: ((سبحان من يسبح الرعد بحمده)).

وعن علي أنه كان يقول: سبحان من سبحت له.

وكذا عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس، وغيرهم.

وروى مالك، عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض.

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((قال ربكم: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد، فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكرًا)).

وكل هذا مبسوط في التفسير، والله الحمد والمنة.

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم

قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 29-26].

وقال تعالى: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحٍ وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} [الشورى: 5].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [غافر: 7-8].

وقال تعالى: {فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت: 38].

وقال: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 19-20].

وقال تعالى: {هُوَ مَا مِثْلًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصفات: 164-166].

وقال تعالى: {هُوَ مَا نَنْتَهِزُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: 64].

وقال تعالى: {هُوَ إِنْ عَلَيْنَا لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الإنفطار: 10-12].

وقال تعالى: {هُوَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: 31].

وقال تعالى: {والمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 23-24].

وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَتْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر: 1].

وقال تعالى: {هُوَ يَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: 25].

وقال تعالى: {هُوَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: 21-22].

وقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 98].

وقال تعالى: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَا أُنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحریم: 6].

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً، يفهم تعالى بالقوة في العبادة، وفي الخلق، وحسن المنظر، وعظمة الأشكال، وقوة الشكل في الصور المتعددة، كما قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 7776 -] الآيات.

فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء، من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان، امتحاناً واختباراً، حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة؛ فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، وتارة في صورته التي خلق عليها.

له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين، كما بين المشرق والمغرب، كما رآه على هذه الصفة مرتين.

مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض، وتارة عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

وهو قوله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: 85 -] .

أي جبريل: كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو ذر، وعائشة {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: 9 - 10] أي: إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم قال تعالى: {وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَى * عَبْدٌ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: 13-17].

وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء، في سورة سبحان، أن سدرة المنتهى، في السماء السابعة.

وفي رواية في السادسة، أي أصلها وفروعها في السابعة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها.

قيل: غشيها نور الرب جل جلاله.

وقيل: غشيها فراش من ذهب.

وقيل: غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة.

وقيل: غشيها الملائكة مثل الغربان.

وقيل: غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها. أي من حسننها وبهائنها.

ولا منافاة بين هذه الأقوال، إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة.

وذكرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كالقلال)).

وفي رواية: ((كقلال هجر، وإذا ورقها كأذان الفيلة)) وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان، ونهران ظاهران. فأما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران فالنيل والفرات.

وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض، وما فيها من البحار والأنهار.

وفيه: ((ثم رفع لي البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودونه إليه آخر ما عليهم)).

وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام، مستنداً ظهره إلى البيت المعمور. وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور، هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض.

وقد روى سفیان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعة، أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال: هو مسجد في السماء يقال له: الضُّرَّاح، وهو بحيال الكعبة من فوقها. حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون إليه أبداً.

وهكذا روى علي بن ربيعة، وأبو الطفيل، عن علي مثله.

وقال الطبراني: أنبأنا الحسن بن علوية القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة، حدثنا ابن جريج، عن صفوان بن سليم، عن كريب، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((البيت المعمور في السماء، يقال له: الضُّرَّاح، وهو على مثل البيت الحرام بحياله، لو سقط لسقط عليه، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يروونه قط، فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة)) يعني في الأرض.

وهكذا قال العوفي، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والربيع بن أنس، والسدي، وغير واحد، وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه:

((هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال: مسجد في السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم)).

وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة، يقال لهم: الجن، من قبيلة إبليس لعنه الله، كان يقول: سدنته وخدامه منهم، والله أعلم.

وقال آخرون: في كل سماء بيت، يعمره ملائكته بالعبادة فيه، ويفدون إليه بالنوبة والبدل، كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام، والاعتماد في كل وقت، والطواف والصلاة في كل آن.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، في أوائل كتابه المغازي: حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد أن الحرم حرم مناه، يعني قدره من السماوات السبع، والأرضين السبع، وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت، وفي كل أرض بيت، لو سقطت سقط بعضها على بعض.

ثم روى مجاهد، قال: مناه أي مقابله، وهو حرف مقصور.

ثم قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سليمان مؤذن الحجاج، سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إن الحرم محرم في السموات السبع، مقداره من الأرض، وإن بيت المقدس، مقدس في السماوات السبع، مقداره من الأرض. كما قال بعض الشعراء:

إن الذي سمك السماء بنى لها * بيتاً دعائمه أشد وأطول

واسم البيت الذي في السماء: بيت العزة، واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها: إسماعيل. فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم، إلى البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه، آخر ما عليهم، أي لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر. يكونون من سكان السماء السابعة وحدها.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مورك، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات، تجأرون إلى الله عز وجل)).

فقال أبو ذر: والله لو ددت أني شجرة تعضد.

ورواه الترمذي، وابن ماجه، من حديث إسرائيل فقال الترمذي: حسن غريب. ويروى عن أبي ذر موقوفاً.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا حسين بن عرفة المصري، حدثنا عروة بن عمران الرقي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم بن مالك، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما في السموات السبع موضع قدم، ولا شبر، ولا كف، إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راکع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لا نشرك بك شيئاً)).

فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السموات السبع، إلا وهو مشغول بالملائكة، وهم في صنوف من العبادة.

منهم: من هو قائم أبداً.

ومنهم: من هو راکع أبداً.

ومنهم: من هو ساجد أبداً.

ومنهم: من هو في صنوف آخر، والله أعلم بها.

وهم دائمون في عبادتهم، وتسبيحهم، وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ مَا مِثْلًا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 164-166].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها!

قالوا: وكيف يصفون عند ربهم؟

قال: يكملون الصف الأول، ويتراصون في الصف)).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها لنا طهوراً، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة)).

وكذلك يأتون يوم القيامة، بين يدي الرب، جلَّ جلاله، صفوفاً كما قال تعالى: ﴿هُوَ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22].

ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم، عز وجل، يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38].

والمراد بالروح ههنا: بنو آدم، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

وقيل: ضرب من الملائكة، يشبهون بني آدم في الشكل. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح، والأعمش.

وقيل: جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك.

وقيل: ملك يقال له: الروح، بقدر جميع المخلوقات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: {يَوْمَ يَفُومُ الرُّوحُ} قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا داود بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال: الروح في السماء الرابعة، هو أعظم السماوات والجبال، ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة، يحيي يوم القيامة صفاً وحده. وهذا غريب جداً.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصري، حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء، عن عبد الله بن عباس، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن الله ملكاً، لو قيل له التقم السماوات، والأرضين بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت)).

وهذا أيضاً حديث غريب جداً، وقد يكون موقوفاً.

وذكرنا في صفة حملة العرش، عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)).

رواه أبو داود، وابن أبي حاتم، ولفظه: ((مخفق الطير سبعمائة عام)).

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم، قال الله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}.

قالوا: كان من شدة قوته، أنه رفع مدائن قوم لوط، وكن سبعاً بمن فيها من الأمم، وكانوا قريباً من أربعمائة ألف، وما معهم من الدواب، والحيوانات، وما لتلك المدن من الأراضي، والمعتملات، والعمارات، وغير ذلك.

رفع ذلك كله على طرف جناحه، حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب، وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فهذا هو شديد القوى.

وقوله: {ذُو مِرَّةٍ} أي: خلق حسن، وبهاء، وسناء.

كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [التكوير: 19]، أي: جبريل رسول من الله كريم، أي: حسن المنظر.

{ذِي قُوَّةٍ} أي: له قوة وبأس شديد.

{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} أي: له مكانه، ومنزلة عالية رفيعة، عند الله.

{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [البروج: 19]، {مُطَاعٌ تَمَّ} أي: مطاع في الملأ الأعلى.

{أَمِينٌ} أي: ذي أمانة عظيمة.

ولهذا كان هو السفير بين الله، وبين أنبيائه عليهم السلام، الذي ينزل عليهم بالوحي، فيه الأخبار الصادقة، والشرائع العادلة، وقد كان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه في صفات متعددة، كما قدمنا.

وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين، له ستمائة جناح. كما روى البخاري: عن طلق بن غنام، عن زائدة الشيباني، قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 8-9] قال: حدثنا عبد الله يعني ابن مسعود، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك عن جامع بن راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت، ما الله به عليم.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 13-14] قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت)).

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين، حدثني عاصم بن بهدلة، سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((رأيت جبريل على السدرة المنتهى، وله ستمائة جناح)) فسألت عاصماً عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذه أسانيد جيدة قوية، انفرد بها أحمد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حصين، حدثني شقيق، سمعت ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أتاني جبريل في خضر تعلق به الدر)).

إسناده صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بزيع البغدادي، قال: حدثنا إسحاق بن منصور، قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال:

((رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه حلتا رفراف، قد ملأ ما بين السماء والأرض)).

إسناد جيد قوي.

وفي (الصحيحين) من حديث عامر الشعبي، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فقال:

((إنما ذلك جبريل، لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض)).

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن زر (ح) وحدثني يحيى بن جعفر، حدثنا وكيع، عن عمر بن زر، عن أبيه، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية [مريم: 64].

وروى البخاري من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة.

وقال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن ابن شهاب، أن عمر بن عبد العزيز أخرج العيص شيئاً، فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: أعلم ما تقول يا عروة.

قال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((نزل جبريل فأمني، فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات)).

ومن صفة إسرائيل عليه السلام - وهو أحد حملة العرش - وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة:

أولاهن: نفخة الفزع.

والثانية: نفخة الصعق.

والثالثة: نفخة البعث. كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته، وحسن توفيقه.

والصور: قرن ينفخ فيه. كل دارة منه كما بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث، فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج.

فيقول الرب جلّ جلاله:

((وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا، فتدخل على الأجساد في قبورها، فتدب فيها كما يدب السم في اللدغ، فتحيا الأجساد، وتنشق عنهم الأجداث، فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر))، كما سيأتي تفصيله في موضعه.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له)).

قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟

قال: ((قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)).

رواه أحمد، والترمذي، من حديث عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعد الطائي، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور فقال:

((عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل)) عليهم السلام.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمر، أن ابن أبي ليلى، حدثني عن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال:

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل بناحية، إذ انشق أفق السماء، فأقبل إسرائيل يدنو من الأرض ويتمايل، فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبي عبد، أو ملك نبي؟

قال: فأشار جبريل إلي بيده أن تواضع، فعرفت أنه لي ناصح، فقلت: ((عبد نبي)).

فخرج ذلك الملك إلى السماء.

قلت: ((يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة، فمن هذا يا جبريل؟)).

فقال: هذا إسرافيل عليه السلام، خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه، لا يرفع طرفه بينه، وبين الرب سبعون نوراً، ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق، بين يديه لوح، فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض، ارتفع ذلك اللوح، فضرب جبهته، فينظر فإن كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به.

قلت: ((يا جبريل وعلى أي شيء أنت؟)).

قال: على الريح والجنود.

قلت: ((وعلى أي شيء ميكائيل؟)).

قال: على النبات والقطر.

قلت: ((وعلى أي شيء ملك الموت؟)).

قال: على قبض الأنفوس، وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة، وما الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة. هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وفي (صحيح مسلم)، عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول:

((اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)).

وفي حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق، لينفخ في الصور.

وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة، فجوزي بولاية اللوح المحفوظ، حكاة: أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام).

وقال تعالى: وقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 98].

عطفهما على الملائكة لشرفهما، فجبريل: ملك عظيم، قد تقدم ذكره.

وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والنبات، وهو ذو مكانة من ربه عز وجل، ومن أشراف الملائكة المقربين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا ابن عباس، عن عمارة بن غزنة الأنصاري، أنه سمع حميد بن عبيد، مولى بني المعلى يقول: سمعت ثابتاً البناني، يحدث عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل: ((ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط؟)).

فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار.

فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن، وفي الصحاح، هم المذكورون في الدعاء النبوي: اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

فجبريل: ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم.

وميكائيل: موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله.

وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض.

وإسرافيل: موكل بالنفخ في الصور، للقيام من القبور، والحضور يوم البعث والنشور، ليفوز الشكور، ويجازى الكفور، فذاك ذنبه مغفور، وسعيه مشكور، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور، وهو يدعو بالويل والثبور.

فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى.

وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق.

وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء.

وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11].

وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته، حتى تبلغ الحلقوم، فيتناولها ملك الموت بيده، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها منه، فيلقوها في أكفان تليق بها، كما قد بسط عند قوله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].

ثم يصعدون بها، فإن كانت سالحة فتحت لها أبواب السماء، وإلا غلقت دونها، وألقى بها إلى الأرض، قال الله تعالى: ﴿هُوَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ * ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهَ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 61-62].

وعن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد أنهم قالوا: إن الأرض بين يدي ملك الموت، مثل الطست يتناول منها حيث يشاء.

وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله، إن كان مؤمناً أتاه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، طيبة الأرواح. وإن كان كافراً فبالضد من ذلك، عياداً بالله العظيم من ذلك.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر، قال: سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت، عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن)).

فقال ملك الموت: يا محمد طب نفساً، وقر عيناً، فأني بكل مؤمن رقيق، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدر، ولا شعر، في بر ولا بحر، إلا وأنا أتفحصهم في كل يوم خمس مرات، حتى إنني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك، حتى يكون الله هو الأمر بقبضها.

قال جعفر بن محمد: أبي هو الصادق بلغني بتفحصهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضر عند الموت، فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة، دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان، ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة.

هذا حديث مرسل، وفيه نظر.

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاص، عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بطوله.

وفيه ((ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السماوات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا، جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل.

فيقول: يا رب قد مات أهل السماوات والأرض، إلا من شئت.

فيقول الله -وهو أعلم بمن بقي-: فمن بقي؟

فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت حملة عرشك، وبقي جبريل، وميكائيل.

فيقول: ليمت جبريل، وميكائيل، فينطق الله العرش.

فيقول: يا رب يموت جبريل، وميكائيل!

فيقول: اسكت، فإنني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي، فيموتان.

ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل.

فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل.

فيقول الله -وهو أعلم بمن بقي-: فمن بقي؟

فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت حملة عرشك، وبقيت أنا.

فيقول الله: لتمت حملة عرشي، فتموت.

ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يأتي ملك الموت.

فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك.

فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟

فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت أنا.

فيقول الله: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما أردت فمت، فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كان آخراً كما كان أولاً)).

وذكر تمام الحديث بطوله.

رواه الطبراني، وابن جرير، والبيهقي، ورواه الحافظ أبو موسى المدني، في كتاب (الطوالات) وعنده زيادة غريبة وهي قوله: ((فيقول الله له: أنت خلق من خلقي، خلقتك لما أردت، فمت موتاً لا تحيي بعده أبداً)).

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن: هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف.

وقد ورد في قصتهما، وما كان من أمرهما آثار كثيرة، غالبها إسرائيليّات.

وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر، وصححه ابن حبان في تقاسيمه. وفي صحته عندي نظر.

والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر، ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتي بيانه، والله أعلم.

وفيه أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر.

وعن علي، وابن عباس، وابن عمر أيضاً أن الزهرة كانت امرأة، وأنهما لما طلبا منها ما ذكر، أبت إلا أن يعلمها الاسم الأعظم، فعلمهاها. فقالت، فارتفعت إلى السماء، فصارت كوكباً.

وروى الحاكم في (مستدرکه) عن ابن عباس قال: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب.

وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة.

ثم قيل: كان أمرهما، وقصتهما في زمان إدريس.

وقيل: في زمان سليمان بن داود، كما حررنا ذلك في التفسير.

وبالجمله، فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار، كما رواه عبد الرزاق في (تفسيره)، عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب الأحبار بالقصة، وهذا أصح إسناداً، وأثبت رجالاً، والله أعلم.

ثم قد قيل: إن المراد بقوله ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِ بِيَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: 102]. قبيلان من الجان، قاله ابن حزم، وهذا غريب، وبعيد من اللفظ.

ومن الناس من قرأ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِ﴾ بالكسر، ويجعلها علجين من أهل فارس. قاله الضحاك.

ومن الناس من يقول: هما ملكان من السماء، ولكن سيق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما، إن صح به الخبر، ويكون حكمهما حكم إبليس، إن قيل إنه من الملائكة، لكن الصحيح أنه من الجن، كما سيأتي تقريره.

ومن الملائكة المسمين في الحديث: منكر ونكير عليهما السلام.

وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر، وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

وهما فتانا القبر، موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه، ودينه، ونبيه، ويمتحنان البر، والفاجر، وهما أزرقان أفرقان، لهما أنياب، وأشكال مزعجة، وأصوات مفزعة، أجارنا الله من عذاب القبر، وثبتنا بالقول الثابت أمين.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن وهب، حدثني يونس، عن ابن شهاب، حدثني عروة أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: ((لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً)).

ورواه مسلم من حديث ابن وهب به.

فصل: ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام

فمنهم: حملة العرش كما تقدم ذكرهم.

ومنهم: الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش، وهم الملائكة المقربون، كما قال تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} [النساء: 172].

ومنهم: جبريل، وميكائيل عليهما السلام.

وقد ذكر الله عنهم أنه يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب، كما قال تعالى: {.... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: 7-9].

ولما كانت سجايهم هذه السجية الطاهرة، كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة، فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال:

((إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب، قال الملك آمين ولك بمثل)).

ومنهم: سكان السماوات السبع، يعمرونها عبادة دائبة، ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، كما قال تعالى: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 20].

فمنهم: الراكع دائماً، والقائم دائماً، والساجد دائماً.

ومنهم: الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور، كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

ومنهم: الموكلون بالجنان، وإعداد الكرامة لأهلها، وتهيئة الضيافة لساكنيها، من ملابس، ومصاغ، ومسكن، ومأكل، ومشارب، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وخازن الجنة: ملك يقال له رضوان، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث.

ومنهم: الموكلون بالنار، وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، وخازنها مالك، وهو مقدم على جميع الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} الآية [غافر: 49].

وقال تعالى: {وَتَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَاثِرُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف: 77].

وقال تعالى: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6].

وقال تعالى: {لَوْ آخَ لِلْبَشَرِ * عَلَيهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [المدثر: 29-31].

وهم الموكلون بحفظ بني آدم، كما قال تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: 9-10].

قال الوالبي عن ابن عباس: {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} وهي الملائكة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه، ويقظته، من الجن والإنس والهوام. وليس شيء يأتيه يريده إلا وقال وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصبيه.

وقال أبو أسامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك، يزود عنه حتى يسلمه للذي قدر له.

وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي فقال: إن نقرأ من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. (مقابلة)

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال العباد، كما قال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 17-18].

وقال تعالى: {هُوَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الأنفطار: 9-12].

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في (تفسيره): حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسرر، عن علقمة بن يزيد، عن مجاهد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أكرموا الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين، الجنابة والغائط، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بغيره، أو يستتره أخوه)).

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد وصله البزار في (مسنده) من طريق جعفر بن سليمان.

وفيه كلام عن علقمة، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من الله والذين معكم، الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستر بثوبه، أو بجذم حائط، أو بغيره)).

ومعنى إكرامهم: أن يستحي منهم، فلا يملئ عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها، فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم.

ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح، والسنن، والمسانيد، من حديث جماعة من الصحابة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جنب)).

وفي رواية عن عاصم بن ضمرة، عن علي، ((ولا بول)).

وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً: ((لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال)).

وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً: ((لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال)).

وفي رواية ذكوان أبي صالح السماك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب، أو جرس)).

ورواه زرارة بن أوفى عنه: ((لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس)).

وقال البزار: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس، حدثنا بيان بن حمران، حدثنا سلام، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن ملائكة الله يعرفون بني آدم - وأحسبه قال - ويعرفون أعمالهم، فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله، ذكروه بينهم، وسموه، وقالوا أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله، ذكروه بينهم، وسموه، وقالوا هلك فلان الليلة)).

ثم قال سلام: أحسبه سلام المدائني، وهو لين الحديث.

وقد قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الملائكة يتعاقبون، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون)).

هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق، وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه.

وقد أخرجه في (الصحيحين) في البدء من حديث مالك، عن أبي الزناد به.

وقال البزار: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيح، عن الحسن يعني البصري، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها، استغفاراً إلا قال الله: غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة)).

ثم قال تفرد بن تمام بن نجيح، وهو صالح الحديث.

قلت: وقد وثقه ابن معين، وضعفه البخاري، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والنسائي، وابن عدي، ورواه ابن حبان بالوضع، وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره.

والمقصود: أن كل إنسان له حافظان، ملكان اثنان، واحد من بين يديه، وآخر من خلفه، يحفظانه من أمر الله، بأمر الله عز وجل، وملكان كاتبان عن يمينه، وعن شماله، وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال، كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 17-18].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة)).

قالوا: وإياك يا رسول الله؟

قال: ((وإياي ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير)).

انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به. فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة، غير القرين بحفظ الإنسان، وإنما هو موكل به ليهديه، ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير، وطريق الرشاد، كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين، لا يألوه جهداً في الخبال، والإضلال. والمعصوم من عصمه الله عز وجل، وبالله المستعان.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، والأغر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد، ملائكة يكتبون الأول، فالأول، فإذا جلس الإمام طورا الصحف، وجاؤوا يسمعون الذكر)).

وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه، وهو في (الصحيحين) من وجه آخر.

وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ قَرَأَ الْقُرْآنَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْقَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿هُوَ قَرَأَ الْقُرْآنَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْقَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال:

((تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار)).

ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أسباط. وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: وهو منقطع.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل، وملائكة النهار في صلاة الفجر))

يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿هُوَ قَرَأَ الْقُرْآنَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْقَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

قال البخاري: حدثنا مسدد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت، فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح)) تابعه شعبة، وأبو حمزة، وأبو داود، وأبو معاوية عن الأعمش

وثبت في (الصحيحين): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه)).

وفي (صحيح البخاري): حدثنا إسماعيل بلفظ:

((إذا قال الإمام آمين، فإن الملائكة تقول في السماء آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه)).

وفي (صحيح البخاري): حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد، فإن من وافق قوله قول الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه)).

ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد، هو شك يعني الأعمش قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن لله ملائكة سياحين في الأرض، فضلاً عن كتاب الناس، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله، فنادوا هلموا إلى بغيتكم، فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا.

فيقول الله: أي شيء تركتم عبادي يصنعون؟

فيقولون: تركناهم يحمدونك، ويمجدونك، ويذكرونك.

فيقول: وهل رأوني؟

فيقولون: لا.

فيقول: كيف لو رأوني.

فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تحميداً، وتمجيداً، وذكراً.

قال: فيقول فأي شيء يطلبون؟

فيقولون: يطلبون الجنة.

فيقول: وهل رأوها؟

فيقولون: لا.

فيقول: وكيف لو رأوها؟

فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً.

قال: فيقول من أي يتعودون؟

فيقولون: من النار.

فيقول: وهل رأوها؟

فيقولون: لا.

فيقول: فكيف لو رأوها.

فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها هرباً، وأشد منها خوفاً.

قال: فيقول أشهدكم أنني قد غفرت لهم.

قال: فيقول إن فيهم فلاناً الخطاء، لم يردهم إنما جاء لحاجة.

فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)).

وهكذا رواه البخاري: عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش به. وقال: رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه.

ورفعه سهيل عن أبيه.

وقد رواه أحمد عن عفان، عن وهيب، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه، كما ذكره البخاري معلقاً عن سهيل.

ورواه مسلم: عن محمد بن حاتم، عن بهز بن أسد، عن وهب به.

وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن غندر، عن شعبة، عن سليمان - هو الأعمش - عن أبي صالح، عن أبي هريرة، كما أشار إليه البخاري - رحمه الله -

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، وابن نمير، أخبرنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة.

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة.

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)).

وكذا رواه مسلم، من حديث أبي معاوية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة، وأبي سعيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ما اجتمع قوم يذكرون الله، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)).

وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل، وسفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق به، نحوه.

ورواه مسلم من حديث شعبة، والترمذي، من حديث الثوري، وقال: حسن صحيح.

ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن آدم، عن عمار بن زريق، عن أبي إسحاق، بإسناد نحوه. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة

وفي (مسند) الإمام أحمد، والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً:

((وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، رضاً بما يصنع)) أي: تتواضع له، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24].

وقال تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن لله ملائكة سياحين في الأرض، ليبلغوني عن أمتي السلام)).

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري، وسليمان الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع، وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به. والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً، وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى، وله الحمد.

فصل: وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال:

فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين، والخلاف فيها مع المعتزلة، ومن وافقهم، وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة، ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص، أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز، وعنده جماعة، فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم. واستدل بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: 7].

ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد، فقال عراك بن مالك: ما أحد أكرم على الله، من ملائكته، هم خدمة داريه، ورسله إلى أنبيائه. واستدل بقوله تعالى: {مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [الأعراف: 20].

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: ما تقول أنت يا أبا حمزة؟ فقال: قد أكرم الله آدم، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وجعل من ذريته الأنبياء والرسل، ومن يزوره الملائكة.

فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم، واستدل بغير دليله. وأضعف دلالة ما صرح به من الآية، وهو قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، مضمونة أنها ليست بخاصة بالبشر، فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله: {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ}، وكذلك الجان {هُوَ أَتَى لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى أَمَّا بِهِ} {هُوَ أَتَى مِّنَّا الْمُسْلِمُونَ} [الجن: 13 - 14].

قلت: وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة، ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وهو أصح، قال:

لما خلق الله الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها، ونشرب، فإنك خلقت الدنيا لبني آدم، فقال الله: لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان.

باب خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: 14 - 16].

وقال تعالى: {هُوَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ} [الحجر: 26-27].

وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: {هُمِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ} قالوا: من طرف اللهب.

وفي رواية من خالصه، وأحسنه.

وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)) رواه مسلم.

قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض، الحن والبن، فسلط الله الجن عليهم فقتلوه، وأجلوه عنها، وأبادوه منها، وسكنوها بعدهم.

وذكر السدي في (تفسيره) عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما فرغ الله من خلق ما أحب، استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سماوا الجن لأنهم خُزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خزاناً، فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة.

وذكر الضحاك عن ابن عباس: أن الجن لما أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة، فقتلوه، وأجلوهم عن الأرض، إلى جزائر البحور.

وقال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس، كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، ومن أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، وكان من حي يقال لهم الجن.

وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، عنه، كان اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة.

وقد أسند عن حجاج، عن ابن جريح قال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خزاناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وقال صالح - مولى التوأمة - عن ابن عباس: كان يسوس ما بين السماء والأرض، رواه ابن جرير.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين، وأنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل البشر.

وقال شهر بن حوشب، وغيره: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعضهم، وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير.

قالوا فلما أراد الله خلق آدم، ليكون في الأرض هو وذريته من بعده، وصور جثته منها، جعل إبليس، وهو رئيس الجن، وأكثرهم عبادة إذ ذاك، وكان اسمه عزازيل، يطيف به، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق لا يتمالك.

وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت علي لأعصينك، فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي، وأمر الملائكة بالسجود له، دخل إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له.

وقال: أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين.

فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل، وأخطأ في قوله، وابتعد من رحمة ربه، وأنزل من مرتبته، التي كان قد نالها بعبادته، وكان قد تشبه بالملائكة، ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار، وهم من نور.

فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه، ورجع إلى أصله النار.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 30-31].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَرَبِّيَنَّهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]. (ج/ص: 601 /)

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى، وحرّم عليه قدر أن يسكنه، فنزل إلى الأرض، حقيراً، ذليلاً، مذموماً، مدحوراً، متوعداً بالنار، هو ومن اتبعه من الجن، والإنس، إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم، بكل طريق، وبكل مرصد.

كما قال: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَحْرَقْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَسَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: 62-65].

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام. والمقصود أن الجان خلقوا من النار، وهم كبنی آدم، يأكلون، ويشربون، ويتناسلون، ومنهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، كما أخبر تعالى عنهم في سورة الجن في قوله تعالى:

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أُحْيِيُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف: 3229-].

وقال تعالى: {قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَا مِنْهَا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَقِّنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن: 1-17].

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة، وتمام القصة، في آخر سورة الأحقاف.

وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك، هنالك.

وأن هؤلاء النفر، كانوا من جن نصيبين.

وفي بعض الآثار، من جن بصرى، وأنهم مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قائم يصلي بأصحابه، ببطن نخلة، من أرض مكة. فوقفوا، فاستمعوا لقرآته.

ثم اجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة، فسألوه عن أشياء، أمرهم بها، ونهاهم عنها، وسألوه الزاد، فقال لهم:

((كل عظم ذكر اسم الله عليه، تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل روثة علف لدوابكم)).

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم، أن يستنجي بهما، وقال: ((إنهما زاد إخوانكم الجن)).

ونهى عن البول في السرب، لأنها مساكن الجن.

وقرأ عليهم، رسول الله صلى الله عليه وسلم، سورة الرحمن، فما جعل يمر فيها بآية {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

وقد أتني عليهم، النبي صلى الله عليه وسلم، في ذلك، لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا. فقال:

((الجن كانوا أحسن منكم رداءً، ما قرأت عليهم، فبأي آلاء ربكما تكذبان، إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا، نكذب، فلك الحمد)).

رواه الترمذي، عن جبير، وابن جرير، والبخاري، عن ابن عمر.

وقد اختلف في مؤمني الجن، هل يدخلون الجنة، أو يكون جزاء طائعهم، أن لا يعذب بالنار فقط. على قولين:

الصحيح: أنهم يدخلون الجنة، لعموم القرآن، ولعموم قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ * فِيهَا أَلَاءٌ رُبَّمَا تُكْدَّبَانُ﴾ [الرحمن: 46 - 47].

فامتن تعالى عليهم بذلك، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره، وعده عليهم من النعم. وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة وحده، والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا قتيبة، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن أبي صعصعة، عن أبيه، أن أبا سعيد الخدري، قال له: إني أراك، تحب الغنم، والبادية، فإذا كنت في غنمك، وباديتك، فأذنت بالصلاة، فأرفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة.

قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، انفرد به البخاري، دون مسلم.

وأما كافرو الجن، فمنهم الشياطين، ومقدمهم الأكبر: إبليس، عدو آدم، أبي البشر. وقد سلطه هو، وذريته، على آدم، وذريته.

وتكفل الله عز وجل، بعصمة من آمن به، وصدق رسله، واتبع شرعه منهم، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِذَا تَفَرَّقُوا فَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 20 - 21].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا آدَمُ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ لَأَنْ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 28 - 44].

وقد ذكر تعالى، هذه القصة، في سورة البقرة، وفي الأعراف، وهاهنا، وفي سورة سبحان، وفي سورة طه، وفي سورة ص.

وقد تكلمنا على ذلك كله، في مواضعه، في كتابنا (التفسير)، والله الحمد. وسنوردها في قصة آدم، إن شاء الله.

والمقصود: أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة، محنة لعباده، واختياراً منه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 2322 -] .

فإبليس لعنه الله حي الآن، منظر إلى يوم القيامة، بنص القرآن، وله عرش على وجه البحر، وهو جالس عليه، ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن، وقد قال الله تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: 76].

وكان اسمه قبل معصيته العظيمة: عزازيل.

قال النقاش: وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد: ما ترى؟ قال: أرى عرشاً على الماء، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((اخساً فلن تعدو قدرك)) فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها، شيطانية، مستمدة من إبليس، الذي هو يشاهد عرشه على البحر، ولهذا قال له اخساً فلن تعدو قدرك، أي لن تجاوز قيمتك الدنية، الخسيسة، الحقيرة.

والدليل على أن عرش إبليس على البحر، الذي رواه الامام أحمد، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني معاذ التميمي، عن جابر بن عبد الله، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم، يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة للناس))

ورواه.

وقال أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((عرش إبليس على البحر، يبعث سراياه، فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده أعظم فتنة)) تفرد به من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا علي بن زيد، عن أبي نضرة، عن جابر، بن عبد الله قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صائد: ((ما ترى؟)).

قال: أرى عرشاً على الماء، أو قال: على البحر حوله حيات.

قال صلى الله عليه وسلم: ((ذاك عرش إبليس)) هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن صائد:

((ما ترى؟))

قال: أرى عرشاً على البحر حوله الحيات.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صدق؛ ذاك عرش إبليس)).

وروى الإمام أحمد، من طريق معاذ التميمي، وأبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الشيطان قد يؤس أن يعبد المصلون، ولكن في التحريش بينهم)).

وروى الإمام مسلم، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان، طلحة بن نافع، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة، أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته، وهو يقول: كذا وكذا.

فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله.

قال: فيقربه، ويدنيه. ويقول: نعم أنت)).

يروى بفتح النون، بمعنى نعم، أنت ذاك الذي تستحق الإكرام، وبكسرها، أي نعم، منك. وقد استدل به بعض النحاة، على جواز كون فاعل نعم مضمرأ، وهو قليل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج، الأول. ورجحه، ووجهه، بما ذكرناه، والله أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث، عند قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ﴾ [البقرة: 102].

يعني: أن السحر المتلقي عن الشياطين، من الإنس، والجن، يتوصل به إلى التفرقة بين المتألفين، غاية التألف، المتوادين، المتحابين، ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك.

فالذي ذمّه الله يمدحه، والذي يغضب الله يرضيه، عليه لعنة الله. وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين، مطردة لأنواع الشر، وأسبابه، وغاياته. ولا سيما سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 1-6].

وثبت في (الصحيحين) عن أنس، وفي صحيح البخاري: عن صفية بنت حسين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)).

عند مسلم صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الصواب.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن جبير، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياد النميري، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس)).

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب، كان فيه تذكّار للناس كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَسِيْتَ﴾ [الكهف: 24].

وقال صاحب موسى: ﴿وَمَا أُنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: 63].

وقال تعالى: ﴿فَأَنسَأَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: جزء من الآية 42] يعني: الساقى لما قال له يوسف: اذكرني عند ربك، نسي الساقى أن يذكره لربه. يعني مولاة الملك.

وكان هذا النسيان من الشيطان، فلبث يوسف في السجن بضع سنين، ولهذا قال بعده، ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، أي: مدة. وقرئ بعد أمة، أي نسيان.

وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقى هو الصواب من القولين، كما قررناه في التفسير، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، سمعت أبا تميمة، يحدث عن رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم حماره فقلت: نفس الشيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لا تقل نفس الشيطان، فإنك إذا قلت نفس الشيطان تعاضم، وقال بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب)).

تفرد به أحمد وهو إسناده جيد.

وقال أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا الضحاك بن عثمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأيس به، كما ينس الرجل بدابته، فإذا سكن له زنقة أو أجمه)) قال أبو هريرة: وأنتم ترون ذلك.

أما المزنوق، فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلا الله.

وأما الملجم، ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل. تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا ثور، يعني ابن يزيد، عن مكحول، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((العين حق ويحضرها الشيطان، وحسد ابن آدم)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن زر بن عبد الله الهمداني، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء - لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)).

ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور، زاد النسائي، والأعمش كلاهما عن أبي زر به.

وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)).

وهكذا رواه مسلم من حديث الليث، ومن حديث الزهري، وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة به.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 97-98].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 10098-].

وروى الإمام أحمد، وأهل السنن، من حديث أبي المتوكل: عن أبي سعيد قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفته)).

وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم، وعبد الله بن مسعود، وأبي أسامة الباهلي.

وتفسيره في الحديث:

فهزمه: الموتة، وهو الخنق الذي هو الصرع.

ونفخه: الكبر. ونفته: الشعر.

وثبت في (الصحيحين): عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء قال:

((أعوذ بالله من الخبث والخبائث)).

قال كثير من العلماء: استعاذ من ذكران الشياطين، وإناتهم.

وروى الإمام أحمد عن شريح، عن عيسى بن يونس، عن ثور، عن الحسين، عن ابن سعد الخير، وكان من أصحاب عمر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ومن أتى الغائط فليستتر، فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيباً فليستدبره، فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم، من فعل فقد أحسن، ومن لا فلا حرج)).

ورواه أبو داود، وابن ماجه، من حديث ثور بن يزيد به.

وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن سرد: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)).

فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم؟.

فقال: إني لست بمجنون.

ورواه أيضاً مسلم، وأبو داود، والنسائي، من طرق عن الأعمش.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله)).

وهذا على شرط (الصحيحين) بهذا الإسناد، وهو في الصحيح من غير هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم، عن عروة، عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أنبأنا شعبة، عن أبي زياد الطحان، سمعت أبا هريرة، يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له:

((قه)).

قال: لم؟.

قال: ((أيسرك أن يشرب معك الهر)).

قال: لا.

قال: ((فإنه قد شرب معك من هو شر منه: الشيطان)). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لاستقاء)).

قال: وحدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثل حديث الزهري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن ابن الزبير أنه سأل جابراً سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا دخل الرجل بيته، فذكر اسم الله حين يدخل، وحين يطعم، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء هاهنا.

وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله، قال: أدركتم المبيت.

وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء. قال: نعم)).

وقال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا عبدة، حدثنا محمد عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني الشيطان - أو الشياطين -)) لا أدري أي ذلك، قال هشام.

ورواه مسلم، والنسائي، من حديث هشام به.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى المشرق، فقال:

((ها إن الفتنة هاهنا، إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان)).

هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه.

وفي السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

نهى أن يجلس بين الشمس والظل، وقال: ((إنه مجلس الشيطان)).

وقد ذكروا في هذا معاني. من أحسنها: أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة، فيما يرى، كان يحبه الشيطان، لأن خلقته في نفسه مشوه، وهذا مستقر في الأذهان، ولهذا قال تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65].

الصحيح: أنهم الشياطين، لا ضرب من الحيات، كما زعمه من زعمه من المفسرين، والله أعلم.

فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين، وحسن خلق الملائكة، وإن لم يشاؤوا. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف: {حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: 31].

وقال البخاري: حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا ابن جريج، أخبرني عطاء، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا استنجح - أو كان جنح الليل - فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم الله، وأوك سقاءك، واذكر اسم الله، وخمر إناءك، واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئاً)).

ورواه أحمد: عن يحيى، عن ابن جريج، وعنده:

((فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن قط، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أغلقوا أبوابكم، وخمروا أنيتكم، وأوكئوا أسقيتكم، وأطفئوا سرجكم، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، ولا يكشف غطاء، ولا يحل وكاء، وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله - يعني الفأرة -)).

وقال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان، ولم يسلط عليه)).

وحدثنا الأعمش، عن سالم، عن كريب، عن ابن عباس مثله.

ورواه أيضاً عن موسى بن إسماعيل، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن كريب، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أما لو أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولداً، لم يضره الشيطان)).

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن سليمان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)).

هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم عن حمزة، حدثني ابن أبي حازم، عن يزيد، يعني ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم، عن عيسى بن طلحة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا استيقظ أحدكم من منامه، فتوضأ، فاستنثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه)).

ورواه مسلم، عن بشر بن الحكم، عن الدراوردي.

والنسائي، عن محمد بن زنيور، عن عبد العزيز بن أبي حازم، كلاهما عن يزيد بن الهادي به.

وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال:

((ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليله، ثم أصبح، قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه، أو قال: في أذنه)).

ورواه مسلم، عن عثمان، وإسحاق، كلاهما عن جرير به.

وأخرجه البخاري أيضاً، والنسائي، وابن ماجه، من حديث منصور بن المعتمر به.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، أنبأنا الأوزاعي، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط، فإذا قضى أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضى أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا، وكذا، حتى لا يدري أثلاثاً صلى، أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً، سجد سجدتي السهو)).

هكذا رواه منفرداً به، من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا جعفر يعني الأحمر، عن عطاء بن السائب، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((راصوا الصفوف، فإن الشيطان يقوم في الخلل)).

وقال أحمد: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:

((راصوا الصفوف، وقاربوا بينها، وحاذوا بين الأعناق، فالذي نفس محمد بيده، إنى لأرى الشيطان، يدخل من خلل الصف، كأنه الحذف)).

وقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن حميد بن هلال، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا مرَّ بين يدي أحدكم شيء فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإن أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان)).

ورواه أيضاً مسلم، وأبو داود، من حديث سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا بشير بن معبد، حدثنا أبو عبيد، حاجب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي، قائماً يصلي، فذهبت أمرٌ بين يديه، فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام يصلي صلاة الصبح، وهو خلفه يقرأ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته، قال:

((لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أحنقه، حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين، الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان، لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم، أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد، فليفعل)).

وروى أبو داود منه، ((فمن استطاع إلى آخره)) عن أحمد بن أبي سريج، عن أبي أحمد، محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به.

وقال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا شبابة، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة، فقال:

((إن الشيطان عرض لي، فسدَّ عليَّ لقطع الصلاة علي، فأمكنني الله منه)) فذكر الحديث.

وقد رواه مسلم، و النسائي، من حديث شعبة به، مطولاً.

ولفظ البخاري، عند تفسير قوله تعالى، إخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال:

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [ص: 35].

من حديث روح، وغندر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن عفريتاً من الجن، تفلت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا، وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} - قال روح -: فرده خاسئاً)).

وروى مسلم، من حديث أبي إدريس، عن أبي الدرداء، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، فسمعناه يقول:

((أعوذ بالله منك، ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، وبسط يده، كأنه يتناول شيئاً.

فلما فرغ من الصلاة، قلنا يا رسول الله: قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً، لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟.

فقال: إن عدو الله إبليس، جاء بشهاب من نار، ليجمله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة)).

وقال تعالى: {قُلْنَا تَعَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرَتُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ} [لقمان: 33]. يعني: الشيطان.

وقال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: 6].

فالشيطان لا يألو الإنسان خبالاً، جهده وطاقته، في جميع أحواله، وحركاته، وسكناته، كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، كتاباً في ذلك، سمّاه: (مصائد الشيطان) وفيه فوائد جمّة.

وفي (سنن أبي داود)، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول في دعائه:

((وأعوذ بك، أن يتخبطني الشيطان، عند الموت)).

وروينا في بعض الأخبار، أنه قال:

((يا رب وعزك، وجلالك، لا أزال أغوهم، ما دامت أرواحهم، في أجسادهم، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي، ولا أزال أغفر لهم، ما استغفروني)).

وقال الله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268].

فوعد الله هو: الحق المصدق، ووعد الشيطان هو: الباطل.

وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن حبان، في (صحيحه)، وابن أبي حاتم، في (تفسيره)، من حديث عطاء بن السائب، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان، فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله. ومن وجد الأخرى، فليتعوذ من الشيطان

ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَىٰ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268].

وقد ذكرنا، في فضل سورة البقرة، أن الشيطان يفر من البيت، الذي تقرأ فيه.

وذكرنا في فضل آية الكرسي، أن من قرأها في ليلة، لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

((من قال لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل عمل أكثر من ذلك)).

وقال البخاري: أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال صلى الله عليه وسلم:

((كل ابن آدم يطعن الشيطان، في جنبه بإصبعه، حين يولد، غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن، فطعن في الحجاب)).

تفرد به من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عاصم بن علي، حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم، فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها، ضحك الشيطان)).

ورواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه النسائي، من حديث ابن أبي ذئب به.

وفي لفظ:

((إذا تثاءب أحدكم، فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله يحب العطاس، ويبغض، أو يكره التثاؤب، فإذا قال أحدكم: هاها، فإنما ذلك الشيطان، يضحك من جوفه)).

ورواه الترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن عجلان به.

(يتبع...)

(تابع... 1): قال الله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} *

وقال البخاري: حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن أشعث، عن أبيه، عن مسروق، قال: قالت عائشة: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التقات الرجل في الصلاة، فقال:

((هو اختلاس يختلسه الشيطان، من صلاة أحدكم)).

وكذا رواه أبو داود، والنسائي، من رواية أشعث بن أبي الشعثاء، سليم بن أسود المحاربي، عن أبيه، عن مسروق به.

وروى البخاري، من حديث الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير: حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم، فلما يخافه، فليصق عن يساره، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لا تضره)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا يشرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم، لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار)).

أخرجه من حديث عبد الرزاق.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5].

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ * إِنَّا مِنْ حَظِيفِ الْخَطِيفَةِ فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ تَأْتِبُ﴾ [الصفوات: 6 - 10].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِنَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: 1816 -].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ﴾ [الشعراء: 210-212].

وقال تعالى إخباراً عن الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: 8 - 9].

وقال البخاري: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، أن أبا الأسود، أخبره عن عروة، عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كلمة)).

هكذا رواه في صفة إبليس، معلقاً عن الليث به.

ورواه في صفة الملائكة، عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة بنحوه. تفرد بهذين الطريقين دون مسلم.

وروى البخاري في موضع آخر، ومسلم من حديث الزهري، عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: قالت عائشة: سألت ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال: ((إنهم ليسوا بشيء)).

فقالوا يا رسول الله: إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً.

فقال صلى الله عليه وسلم: ((تلك الكلمة من الحق، يخطفها من الجنى، فيقرقها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها مائة كذبة)).

هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟

قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير.

فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، - ووصف سفيان بكفه فحرفها، وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقياها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقياها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة.

فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)).

انفرد به البخاري.

وروى مسلم من حديث الزهري، عن علي بن الحسين زين العابدين، عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا.

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آيَاتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف: 36-38].

وقال تعالى: {وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرُونًا قُرَيْبًا لَّهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ....} الآية [فصلت: 25].

وقال تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق: 27-29].

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: 113-112].

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد، ومسلم، من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، واسمه رافع، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة.

قالوا: وإياك يا رسول الله؟

قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن قابوس، عن أبيه، واسمه حصين بن جندب، وهو أبو ظبيان الجنبى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين.

قالوا: وأنت يا رسول الله؟.

قال: نعم، ولكن الله أعانني عليه فأسلم)).

تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني أبو صخر، عن يزيد بن قسيط، حدثه أن عروة بن الزبير، حدثه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، قالت: فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: ((مالك يا عائشة أغرت)).

قالت: فقلت ومالي أن لا يغار مثلي على مثلك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أفأخذك شيطانك)).

قالت يا رسول الله: أو معي شيطان؟

قال: ((نعم)).

قلت: ومع كل إنسان.

قال: ((نعم)).

قلت: ومعك يا رسول الله؟

قال: ((نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم)).

وهكذا رواه مسلم عن هارون، وهو ابن سعيد الأيلي بإسناده نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن المؤمن لينصي شيطانه كما ينصي أحدكم بغيره في السفر)).

تفرد به أحمد من هذا الوجه. ومعنى لينصي شيطانه: ليأخذ بناصيته فيغلبه، ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه.

وقوله تعالى إخباراً عن إبليس: {قَالَ قِيمَا أُغْوِيَنِّي لِأَفْعُنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَنْبِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16-17].

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل -هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي فاكه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آباءك؟).

قال: فعصاه وأسلم.

قال: وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسمائك؟ وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطول.

فعصاه وهاجر.

ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهد النفس والمال. فقال: أتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال؟

قال: فعصاه وجاهد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هذه الدعوات حين يصبح، وحين يمسي:

((اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني، ودنياي، وأهلي، ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)).

قال وكيع: يعني الخسف.

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، من حديث عبادة بن مسلم به. وقال الحاكم صحيح الإسناد.

باب خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى:

{وَادَّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}{البقرة: 30-39].

وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: 59].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]. (ج/ص: 75 / 1)

كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...} [الأعراف: 189].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا

أَعْوَيْتَنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَاتَبَيَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

الظَّالِمِينَ * فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ {الأعراف: 11-25}.

كما قال في الآية الأخرى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: 55].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: 26-44].

وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِئْنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْرَزَ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلُكَ وَرَجَلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: 61-65].

وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَدُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: 50].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلَائِكِي لَا يَبْلَى فَاكُلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشَقِّقَ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى} [طه: 115-126].

وقال تعالى: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنَّ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنْتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْوَلُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * فَلِ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص: 67-88].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن.

وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير، ولنذكر هاهنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمت، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله المستعان.

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً، كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام: 165] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه. فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم، والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين.

{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة: 30].

قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا، ممن كان قبل آدم من الجن والبن، قاله قتادة.

وقال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور.

وعن ابن عباس نحوه.

وعن الحسن أنهموا ذلك.

وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ، فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له الشجل. رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر.

وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: جزء من الآية 30] أي: نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد.

فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدون، فهذا نحن لا نفتنر ليلاً ولا نهاراً، قال: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30] أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء، والمرسلون، والصديقون، والشهداء.

ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم، فقال: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: 31].

قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها.

وفي رواية: علمه اسم الصخرة، والقدر، حتى الفسوة، والفسية.

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

وكذا قال سعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته، والصحيح أنه علمه أسماء الذوات، وأفعالها، مكبرها ومصغرها، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكر البخاري هنا ما رواه هو، ومسلم، من طريق سعيد، وهشام عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)) وذكر تمام الحديث.

{لَمْ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 31].

قال الحسن البصري: لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا، وذلك قوله {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير.

{قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 32] أي: سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك، كما قال {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة: 255].

{قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: 33] أي: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله: {هُوَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ} ما قالوا أن تجعل فيها من يفسد فيها.

وبقوله: {هُوَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} المراد بهذا الكلام: إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام.

قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي، والضحاك، والثوري، واختاره ابن جرير.

وقال أبو العالية، والربيع، والحسن، وقتادة: {هُوَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} قولهم لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه، وأكرم عليه منه.

قوله {هُوَ الَّذِي فَطَرْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 34] هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، كما قال: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: 29]، فهذه أربع تشريفات:

خلق له بيده الكريمة.

ونفخه فيه من روحه.

وأمره الملائكة بالسجود له.

وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى، وتناظرا كما سيأتي: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء.

وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال في الآية الأخرى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ صَوَّرَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 11-12].

قال الحسن البصري: قاس إبليس، وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جريج. ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقاييس بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم، فامتنع من السجود له. مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود.

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار.

فإن الطين فيه: الرزانة، والحلم، والأناة، والنمو.

والنار فيها: الطيش، والخفة، والسرعة، والإحراق.

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده، ونفخه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له.

كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَارْجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: 28-35].

استحق هذا من الله تعالى؛ لأنه استلزم تنقصه لأدم، وازدراؤه به، وترفعه عليه، مخالفة الأمر الإلهي، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين، وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشد من ذنبه.

كما قال تعالى في سورة سبحان: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْرَزَ مِنْ اسْتِغْرَازِهِمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 61-65].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الآية 50] أي: خرج عن طاعة الله عمداً، وعناداً، واستكباراً عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه، ومادته الخبيثة أوح ما كان إليها، فإنه مخلوق من نار. كما قال وكما قدرنا في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة، فقتلوهم، وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء، فكان هناك فلما أمرت الملائكة بالسجود، امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وجماعة من الصحابة، وسعيد بن المسيب، وآخرون: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا.

قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل.

وفي رواية عن الحارث، قال النقاش، وكنيته: أبو كردوس.

قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة، يقال لهم الجن، وكانوا خزان الجنان، وكان من أشرفهم، وأكثرهم علماً وعبادة، وكان من أولى الأجنحة الأربعة، فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعْرِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِنْ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآيات: 71-85].

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لأفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَبِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16] أي بسبب إغوانك إياي لأفعدن لهم كل مرصد، ولأتبنهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خلفه، والشقي من اتبعه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل، هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سيرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه)).

وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس.

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم، أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات، وهو قول الجمهور. أو المراد بهم ملائكة الأرض، كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك، عن ابن عباس، وفيه انقطاع، وفي السياق نكارة، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث: ((وأسجد له ملائكته)) وهذا عموم أيضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى لإبليس: ((اهبط منها)) و ((واخرج منها)) دليل على أنه كان في السماء، فأمر بالهبوط منها، والخروج من المنزلة، والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتشبيهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره، وحسده ومخالفته لربه، فأهبط إلى الأرض مذموماً، محجوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية: 18-19].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشقى * إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: 116-119].

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة، لقوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق بن بشر، وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السدي عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشي ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه فسألها من أنت؟

قالت: امرأة.

قال: ولما خلقت؟

قالت: لتسكن إلي.

فقال له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟

قال: حواء.

قالوا: ولم كانت حواء؟

قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر، وهو نائم، ولأم مكانه لحماً. ومصدق هذا في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [النساء: الآية 1].

وفي قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ} [الأعراف: الآية 189]، وسنتكلم عليها فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

وفي (الصحيحين) من حديث زائدة، عن ميسرة الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً)). لفظ البخاري.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ} فقالوا: هو الكرم.

وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وجعدة بن هبيرة، ومحمد بن قيس، والسدي في رواية، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قال: وتزعم يهود أنها الحنطة.

وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن البصري، ووهب بن منبه، وعطية العوفي، وأبي مالك، ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

قال وهب: والحببة منه ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي مالك: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ} هي: النخلة.

وقال ابن جريج، عن مجاهد، هي: التينة.

وبه قال قتادة، وابن جريج.

وقال أبو العالية: كانت شجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي في الجنة حدث.

وهذا الخلاف قريب. وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها. ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا، لعينها لنا كما في غيرها من المحال، التي تبهم في القرآن.

وإنما الخلاف الذي ذكره، في أن هذه الجنة، التي دخلها آدم، هل هي في السماء، أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله، والخروج منه.

والجمهور: على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} والألف واللام، ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو

المستقر شرعاً من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام، لآدم عليه السلام: علام أخرجتنا، ونفسك من الجنة. الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في (صحيحه)، من حديث أبي مالك الأشجعي، واسمه سعد بن طارق، عن أبي حازم سلمة بن دينار، عن أبي هريرة، وأبو مالك عن ربعي، عن حذيفة، قالاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يجمع الله الناس، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة.

فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم)).

وذكر الحديث بطوله.

وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم، لم تكن جنة الخلد، لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول، محكي عن أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة في (المعارف)، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في (تفسيره)، وأفرد له مصنفاً على حدة.

وحكاه عن أبي حنيفة الإمام، وأصحابه رحمهم الله، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في (تفسيره)، عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني.

ونقله القرطبي في (تفسيره) عن المعتزلة، والقدرية.

وهذا القول: هو نص التوراة، التي بأيدي أهل الكتاب.

وممن حكى الخلاف في هذه المسألة: أبو محمد بن حزم، في (الملل والنحل) وأبو محمد بن عطية في (تفسيره)، وأبو عيسى الرماني في (تفسيره).

وحكى عن الجمهور الأول. وأبو القاسم الراغب، والقاضي الماوردي في (تفسيره)، فقال: واختلف في الجنة التي أسكنها يعني آدم وحواء، على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: جنة أعدّها الله لهما، وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء.

ومن قال بهذا: اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها في السماء، لأنه أهبطهما منها. وهذا قول الحسن.

والثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة، التي نهيا عنها، دون غيرها من الثمار.

وهكذا قول ابن يحيى، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم، والله أعلم بالصواب من ذلك.

هذا كلامه. فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة. وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة.

ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في (تفسيره)، في هذه المسألة أربعة أقوال، هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي، ورابعها الوقف.

وحكى القول بأنها في السماء، وليست جنة المأوى، عن أبي علي الجبائي.

وقد أورد أصحاب القول الثاني، سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب، فقالوا: لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس، حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية، وأمره بالخروج عنها، والهبوط منها، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية، بحيث يمكن مخالفته، وإنما هو أمر قدرى، لا يخالف، ولا يمانع، ولهذا قال: {أَخْرَجُ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا} [الأعراف: 18].

وقال: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [الأعراف: 13].

وقال: {قَالَ فَأَخْرُجُ مِنْهَا فِئْتِكَ رَجِيمًا} [الحجر: 34].

والضمير عائد إلى الجنة، أو السماء، أو المنزلة، وأياً كان، فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان، الذي طرد عنه، وأبعد منه، لا على سبيل الاستقرار، ولا على سبيل المرور، والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن، أنه وسوس لأدم وخاطبه بقوله له: {هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَنَا يَبْلَى} [طه: 120].

ويقوله: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِذَا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: 20-21].

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أجبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة، على سبيل المرور فيها، لا على سبيل الاستقرار بها، أو أنه وسوس لهما، وهو على باب الجنة، أو من تحت السماء، وفي الثلاثة نظر، والله أعلم.

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة، ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد، في (الزيادات) عن هذبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن يحيى بن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب، قال:

إن آدم لما احتضر اشتهى قطعاً من عنب الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه، فانتهاوا إليه، فقبضوا روحه، وغسلوه، وحنطوه، وكفنوه، وصلى عليه جبريل، ومن خلفه من الملائكة، ودفنوه. وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم. وسيأتي الحديث بسنده، وتام لفظه، عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة، التي كان فيها آدم، التي اشتهى منها القطف ممكناً، لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض، لا في السماء، والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف، واللام، في قوله: {وَيَا أَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} لم يتقدم عهد يعود عليه، فهو المعهود الذهني مسلم، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام، فإن آدم خلق من الأرض، ولم ينقل أنه رفع إلى السماء، وخلق ليكون في الأرض، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}.

قالوا: وهذا كقوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} [القلم: 17]. فالألف واللام، ليس للعموم، ولم يتقدم معهود لفظي، وإنما هي للمعهود الذهني، الذي دل عليه السياق، وهو البستان.

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء. قال الله تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} [هود: الآية 48].

وإنما كان في السفينة، حين استقر على الجودي، ونضب الماء عن وجه الأرض، أمر أن يهبط إليها، هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: {اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ} [البقرة: الآية 61].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 74]، وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانع، بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم، كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض، ذات أشجار، وثمار، وظلال، ونعيم، ونضرة، وسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: 118].

أي لا يذبل باطنك بالجوع، ولا يظهرك بالعري.

﴿وَأَنْتَ لَا تَطْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ أي: لا يمس باطنك حر الظمأ، ولا يظهرك حر الشمس.

ولهذا قرن بين هذا وهذا، وبين هذا وهذا، لما بينهما من الملاءمة.

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة، التي نهى عنها، أهبط إلى أرض الشقاء، والتعب، والنصب، والكدر، والسعي، والنكد، والابتلاء، والاختبار، والامتحان، واختلاف السكان ديناً، وأخلاقاً، وأعمالاً وقصوداً، وإرادات، وأقوالاً، وأفعالاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

ولا يلزم من هذا، أنهم كانوا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: 104]، ومعلوم أنهم كانوا فيها، لم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنة، والنار اليوم، ولا تلازم بينهما، فكل من حكى عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف، ممن ثبت وجود الجنة، والنار اليوم، كما دلت عليه الآيات، والأحاديث الصحاح، كما سيأتي إيرادها في موضعها، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من النعيم، والنضرة، والسرور، إلى دار التعب، والكدر، والنكد، وذلك بما وسوس لهما، وزينه في صدورهما، كما قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20].

يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين. أي: ولو أكلتما منها، لصرتما كذلك ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ أي هل أدلك على الشجرة، التي إذا أكلت منها، حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمرت في ملك لا يبيد، ولا ينقضي، وهذا من التفرير، والتزوير، والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود: أن قوله شجرة الخلد، التي إذا أكلت منها خلدت، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة عن أبي الضحاك، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها شجرة الخلد)).

وكذا رواه أيضاً عن غندر، وحجاج عن شعبة.

ورواه أبو داود الطيالسي، في (مسنده) عن شعبة أيضاً به.

قال غندر: قلت لشعبة هي شجرة الخلد، قال: ليس فيها هي.

تفرد به الإمام أحمد.

وقوله ﴿فَدَلَاهُمَا بِعُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22]. كما قال في طه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 121].

(يتبع...)

(تابع... 1): قال الله تعالى:.... ...

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حدثته على أكلها، والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا بشر بن محمد، حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه:

((لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)) تفرد به من هذا الوجه.

وأخرجه في (الصحيحين) من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة به.

ورواه أحمد، ومسلم، عن هارون بن معروف، عن أبي وهب، عن عمرو بن حارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب: أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة، هي الحية. وكانت من أحسن الأشكال، وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم عليه السلام، وليس فيها ذكر لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهما، وعلمتا أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين، وعملا ميازر، وفيها أنهما كانا عريانين.

وكذا قال وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها.

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم، وتحريف، وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة، لا يكاد يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى.

وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس، في قوله: ((ينزع عنهما لباسهما، ليريهما سواتهما)) فهذا لا يرد لغيره من الكلام، والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن بن اسكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن الحسن، عن أبي كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته، جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة، ففازها فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم مني تفر، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء)).

وقال الثوري: عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22].

وهذا إسناد صحيح إليه، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب، وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك، ويتقدير تسليمه فلا يضر، والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستين ذراعاً، كثير الشعر، موارى العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سواته، فخرج من الجنة، فلقيته شجرة، فأخذت بناصيته، فناده ربه أفراراً مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك، والله يا رب مما جنت به)).

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن الحسن، عن يحيى بن ضمرة، عن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أياً.

ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة بن سليمان الاطرابلسي، عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني، عن آدم بن أبي إياس، عن شيبان عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه.

{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 22 - 23].

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة، وتذلل، وخضوع، واستكانة، واققرار إليه تعالى، في الساعة الراهنة. وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه.

{قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف: 24].

وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس، قيل: والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة، في حال كونهم متعادين متحاربين.

وقد يستشهد لذكر الحية معهما، بما ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه أمر بقتل الحيات، وقال: ((ما سالمناهن منذ حاربناهن)).

وقوله في سورة طه: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [طه: 123].

هو أمر لآدم وإبليس، واستتبع آدم حواء، وإبليس الحية.

وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية، كما في قوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} [الأنبياء: 78].

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم، لا يحكم إلا بين اثنين: مدع، ومدعى عليه، قال: وكنا لحكمهم شاهدين.

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة، في قوله: {.. وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَنِي هُدَى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 39 - 36].

فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض. وهذا ضعيف لقوله في الأول: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول، والله أعلم.

والصحيح: أنه كرره لفظاً، وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً، فناطق بالأول: عداوتهم فيما بينهم، والثاني: الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك، فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الكريم.

وروى الحافظ بن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجوا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه، يقول: العفو العفو. فقال الله: فراراً مني. قال: بل حياء منك يا سيدي.

وقال الأوزاعي عن حسان، هو ابن عطية: مكث آدم في الجنة مائة عام. وفي رواية ستين عاماً، بكى على الجنة سبعين عاماً، وعلى خطيئته سبعين عاماً، وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً، رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له دحنا، بين مكة والطائف.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميستان من البصرة، على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال السدي: نزل آدم بالهند، ونزل معه بالحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند، فنبتت شجرة الطيب هناك

وعن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني عوف عن قدامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم في (مستدرکه): أنبأنا أبو بكر بن بالوية، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمر، عن زائدة، عن عمار بن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس.

ثم قال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)).

وفي الصحيح من وجه آخر: ((وفيه تقوم الساعة)).

وقال أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار، عن عبد الله بن فروخ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة)). على شرط مسلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر، من طريق أبي القاسم البغوي، حدثنا محمد بن جعفر الوركاني، حدثنا سعيد بن ميسرة، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((هبط آدم وحواء عربانيين جميعاً، عليهما ورق الجنة، فأصابه الحر حتى قعد بيكي، ويقول لها: يا حواء قد أداني الحر.

قال: فجاءه جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل، وعلمها، وأمر آدم بالحياقة، وعلمه أن ينسج.

وقال: كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة، حتى هبط منها، للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة.

قال: وكان كل واحد منهما ينام على حدة، ينام أحدهما في البطحاء، والآخر من ناحية أخرى، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله.

قال: وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها، جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك: قال: (صالحة)).

فإنه حديث غريب، ورفع منكر جداً.

وقد يكون من كلام بعض السلف، وسعيد بن ميسرة هذا، هو أبو عمران البكري البصري، قال فيه البخاري: منكر الحديث.

وقال ابن حبان يروي الموضوعات.

وقال ابن عدي: مظلم الأمر.

وقوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

قيل: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

روى هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عظام، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال آدم عليه السلام: رأيت يا رب إن تبت ورجعت أعاندي إلى الجنة؟))

قال: نعم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 37].

وهذا غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب، إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب الرحيم.

وروى الحاكم في (مستدرکه) من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال:

قال آدم: يا رب ألم تخلقني بيدك. قيل له: بلى.

ونفخت في من روحك. قيل له: بلى.

وعطست فقلت: یرحمک الله، وسبقت رحمتک غضبک. قيل له: بلى

وكتبت علي أن أعمل هذا. قيل له: بلى.

قال: أفرأيت إن تبت، هل أنت راجعي إلى الجنة. قال: نعم.

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضاً، والبيهقي، وابن عساكر، من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب: أسألك بحق محمد أن غفرت لي.

فقال الله: فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد.

فقال يا رب: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش، مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك.

فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك)).

قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، من هذا الوجه، وهو ضعيف، والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ} [طه: 121-122].

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((حاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبيك من الجنة وأشقيتهم.

قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتؤمنني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره علي قبل أن يخلقني.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحجَّ آدم موسى)).

وقد رواه مسلم، عن عمرو الناقد، والنسائي، عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن أيوب بن النجار به.

قال أبو مسعود الدمشقي: ولم يخرجاه عنه في (الصحيحين) سواه.

وقد رواه أحمد، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة.

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا أبو شهاب، عن حميد، بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة.

فقال له آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته، وبكلامه، تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحجَّ آدم موسى مرتين)).

قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري، ومسلم، من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس، وأخرجتهم من الجنة.

قال: فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، تلومني على عمل أعمله كتبه الله علي، قبل أن يخلق السموات والأرض.

قال: فحج آدم موسى)).

وقد رواه الترمذي، والنسائي، جميعاً عن يحيى بن حبيب بن عدي، عن معمر بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش به.

قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التيمي، عن الأعمش، قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قلت: هكذا رواه الحافظ، أبو بكر البزار في (مسنده)، عن محمد بن مثنى، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

ورواه البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه.

وقال أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، سمع طاووساً، سمع أبا هريرة، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة.

فقال له آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه، وقال مرة: برسالته، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي، قبل أن يخلقني بأربعين سنة.

قال: حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى)).

وهكذا رواه البخاري، عن علي بن المديني: حدثنا عن سفيان، قال: حفظناه من عمرو، عن طاووس، قال: سمعت أبا هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((قال احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة.

فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي، قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)) هكذا ثلاثاً.

قال سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله.

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من عشر طرق، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد عن عمار، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ثم فعلت.

فقال: أنت موسى الذي كلمك الله، واصطفاك برسالته، وأنزل عليك التوراة، أنا أقدم أم الذكر.

قال: لا بل الذكر. فحج آدم موسى)).

قال أحمد: وحدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وحميد عن الحسن، عن رجل قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((قال لقي آدم موسى (...)) فذكر معناه. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا الحسن، حدثنا جرير، هو ابن حازم، عن محمد هو ابن سيرين، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت.

قال آدم: يا موسى أنت الذي كلمه الله، وأنزل عليه التوراة.

قال: نعم.

قال: فهل تجده مكتوباً علي قبل أن أخلق؟

قال: نعم.

قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)).

وكذا رواه حماد بن زيد، عن أيوب، وهشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وكذا رواه علي بن عاصم، عن خالد، وهشام، عن محمد بن سيرين، وهذا على شرطهما من هذه الوجوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى.

قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك.

قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته، وكلامه، وأعطاك الألواح، فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة؟

قال موسى: بأربعين عاماً.

قال آدم: فهل وجدت فيها {وعصى آدم ربه فغوى}؟

قال: نعم.

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله، قبل أن يخلقني بأربعين سنة.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى)).

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد رواه مسلم، عن إسحاق بن موسى الأنصاري، عن أنس بن عياض، عن الحارث، بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز، والأعرج، كلاهما عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((احتج آدم وموسى، فقال موسى لآدم: يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار.

فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله برسالاته، وبكلامه، وأنزل عليك التوراة، فهل وجدت أن أهبط؟

قال: نعم.

قال: فحجه آدم)).

وهذا على شرطهما، ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وفي قوله: أدخلت ذريتك النار، نكارة.

فهذه طرق هذا الحديث، عن أبي هريرة، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان، وطاووس ابن كيسان، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعمار بن أبي عمار، ومحمد بن سيرين، وهمام بن منبه، ويزيد بن هرمز، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في (مسنده)، من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

حدثنا الحارث بن مسكين المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عمر بن الخطاب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((قال موسى عليه السلام: يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا، ونفسه من الجنة، فأراه آدم عليه السلام.

فقال: أنت آدم؟

فقال له آدم: نعم.

قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها؟

قال: نعم.

قال: فما حملك على أن أخرجتنا، ونفسك من الجنة؟

فقال له آدم: من أنت؟

قال: أنا موسى.

قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل، أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه؟

قال: نعم.

قال: تلومني على أمر، قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)).

ورواه أبو داود، عن أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب به.

قال أبو يعلى: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي، حدثنا عمران عن الرديني، عن أبي مجلز، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر قال أبو محمد: أكبر ظني أنه رفعه.

قال: ((التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: أنت أبو البشر، أسكنك الله جنته، وأسجد لك ملائكته.

قال آدم: يا موسى أما تجده على مكتوباً.

قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)).

وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به، والله أعلم.

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى، لهذا الحديث، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

ورواية الإمام أحمد له، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن رجل. قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((لقي آدم موسى)).

فذكر معناه.

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث؛ فرده قوم من القدرية، لما تضمن من إثبات القدر السابق.

واحتج به قوم من الجبرية، وهو ظاهر لهم بادئ الرأي، حيث قال: فحج آدم موسى، لما احتج عليه بتقديم كتابه. وسيأتي الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب، كمن لا ذنب له.

وقيل: إنما حجه لأنه أكبر منه، وأقدم.

وقيل: لأنه أبوه.

وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.

وقيل: لأنهما في دار البرزخ، وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

والتحقيق: أن هذا الحديث، روي بألفاظ كثيرة: بعضها مروى بالمعنى، وفيه نظر، ومدار معظمها في (الصحيحين)، وغيرهما، على أنه لامه على إخراج نفسه، وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة.

والذي رتب ذلك وقدره، وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي، أكثر ما أني نهيت عن الأكل من الشجرة، فأكلت منها.

وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدره الله، وصنعه، وله الحكمة في ذلك، فلهذا حج آدم موسى.

ومن كدّب بهذا الحديث فمعاند، لأنه متواتر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وناهيك به عدالة، وحفظاً، واتقاناً.

ثم هو مروى، عن غيره من الصحابة، كما ذكرنا.

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً، فهو بعيد من اللفظ، والمعنى.

وما فيهم من هو أقوى مسلماً من الجبرية، وفيما قالوه نظر من وجوه:

أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر، قد تاب منه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ الآية [القصص: 16].

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب، بالقدر المتقدم كتابته على العبد، لانفتح هذا لكل من ليم على أمر، قد فعله، فيحتج بالقدر السابق، فينسد باب القصاص، والحدود.

ولو كان القدر حجة، لاحتج به كل أحد، على الأمر الذي ارتكبه، في الأمور الكبار، والصغار. وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. فلماذا قال من قال من العلماء، بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة، لا المعصية، والله تعالى أعلم.

الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن، وبين ذلك)).

ورواه أيضاً، عن هوزة، عن عوف، عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، وبين ذلك)).

وكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن حبان في (صحيحه)، من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السدي، عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا:

((فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض لياتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعود بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ.

وقال: رب إنها عادت بك فأعدتها.

فبعث ميكائيل فعادت منه فأعادها، فرجع.

فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت، فعادت منه.

فقال: وأنا أعود بالله أن أرجع، ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء، وحمراء، وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً)). واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض.

ثم قال للملائكة: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص: 71-72]. فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة، من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعا إبليس، فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار، يكون له صلصلة فلذلك حين يقول:

{مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} ويقول لأمر ما خلقت، ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكته.

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه من الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله.

فقال: الحمد لله.

فقال له الله: رحمك ربك.

فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: 37].

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [الحجر: 30-31]، وذكر تمام القصة.

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث، وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات.

فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق لا يتمالك)).

وقال ابن حبان في (صحيحه): حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هديبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

{لما نفخ في آدم فيبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله)).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا حبان بن حلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن حبيب، عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، عن أبي هريرة رفعه قال:

((لما خلق الله آدم عطس، فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم)).

وهذا الإسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

وقال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل، فأتاه الله أن كتب القرآن في جبهته. رواه ابن عساكر.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل بن رافع، عن المقبري، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه الله، وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالْفَخَّارِ.

قال: فكان إبليس يمر به، فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم.

ثم نفخ الله فيه من روحه، فكان أول ما جرى فيه الروح: بصره وخياشيمه، فعطس، فلقاه الله رحمة ربه، فقال الله: يرحمك ربك.

ثم قال الله: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم: فانظر ماذا يقولون؟

فجاء فسلم عليهم، فقالوا: و عليك السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال: يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك.

قال: يا رب وما ذريتي؟

قال: اختر يدي يا آدم.

قال: أختار يمين ربي، وكلنا يدي ربي يمين، وبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن، فإذا رجال منهم أفواههم النور، فإذا رجل يعجب آدم نوره.

قال: يا رب من هذا؟

قال: ابنك داود.

قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟

قال: جعلت له ستين.

قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة، ففعل الله ذلك، وأشهد على ذلك، فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت فقال آدم: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟

قال له الملك: أولم تعطها ابنك داود؟

فجدد ذلك، فجددت ذريته، ونسي، فنسيت ذريته)).

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، والترمذي، والنسائي في (اليوم والليلة) من حديث صفوان بن عيسى، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وقال النسائي: هذا حديث منكر، وقد رواه محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام.

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم.

فقال: أي رب من هؤلاء؟

قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه.

فقال: أي رب من هذا؟

قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود.

قال: رب وكم جعلت عمره؟

قال: ستين سنة.

قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟

قال: أولم تعطها ابنك داود.

قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطى آدم فخطنت ذريته)).

ثم قال الترمذي: حسن صحيح.

وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ورواه الحاكم في (مستدرکه) من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره وفيه:

((ثم عرضهم على آدم، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، وإذا فيهم الأجدم، والأبرص، والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي)).

ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً.

وقال الإمام أحمد في (مسنده): حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي)).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا الحكم بن سنان، عن حوشب، عن الحسن قال:

((خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى، والأصم، والمبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أردت أن أشكر)).

وهكذا روى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن بنحوه.

وقد رواه أبو حاتم، وابن حبان في (صحيحه) فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن، سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملائمتهم جلوس فسلم عليهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله.

ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

وقال الله ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطهما، فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟

قال: هؤلاء ذريتك، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم، لم يكتب له إلا أربعون سنة قال: يا رب ما هذا؟

قال: هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة.

قال: أي رب زد في عمره.

فقال: ذاك الذي كتب له.

قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة.

قال: أنت وذاك.

اسكن الجنة، فسكن الجنة ما شاء الله، ثم هبط منها، وكان آدم يعد لنفسه فاتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجدد آدم فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود).

هذا لفظه.

وقد قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك.

فقال: السلام عليكم.

فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)).

وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفر، ومسلم عن محمد بن رافع، كلاهما عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً)) انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال:

لما نزلت آية الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن الله لما خلق آدم ومسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذاري إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر.

قال: أي رب من هذا؟

قال: هذا ابنك داود.

قال: أي رب كم عمره؟

قال: ستون عاماً.

قال: أي رب زد في عمره.

قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاماً، فكتب الله عليه بذلك كتاباً، وأشهد عليه الملائكة.

فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود.

قال: ما فعلت، وأبرز الله عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة)).

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أول من جدد آدم، قالها ثلاث مرات، إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر.

فقال: أي رب زد في عمره.

قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك، فزاده أربعين سنة من عمره، فكتب الله تعالى عليه كتاباً، وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه قال: إنه بقي من أجلي أربعون سنة.

فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود.

قال: فجدد، قال: فأخرج الله الكتاب، وأقام عليه البيعة، فأتىها داود مائة سنة، وأتم لآدم عمره ألف سنة)).

تفرد به أحمد، وعلي بن زيد في حديثه نكارة.

ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس وغير واحد، عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أول من جدد آدم)) ثلاثاً؛ وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في موطنه: عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال:

((إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون.

ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون.

فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة. وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار)).

وهكذا رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو حاتم بن حبان في (صحيحه)، من طرق عن الإمام مالك به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع عمر.

وكذا قال أبو حاتم، وأبو زرعة، زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة.

وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى، عن بقية عن عمر بن جثعم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة قال:

كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية، فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي، عن زيد بن أبي أنيسة قال: وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجة تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر، وقسمتهم قسمين: أهل اليمين، وأهل الشمال.

وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي.

فأما الإشهاد عليهم، واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجئ في الأحاديث الثابتة.

وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك. وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها، وألفاظ متونها فمن أراد تحريره، فليراجعه ثم، والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير يعني ابن حازم، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً، قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا... {إلى قوله {الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: 172-173]})).

فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم.

رواه النسائي، وابن جرير، والحاكم في (مستدرکه)، من حديث حسين بن محمد المروزي به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروى عنه مرفوعاً، وموقوفاً.

وكذا روي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.

وهكذا رواه العوفي، والوالبي، والضحاك، وأبو جمرة، عن ابن عباس قوله، وهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر، موقوفاً، ومرفوعاً. والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول، وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكننت مقتدياً به؟

قال: فيقول نعم.

فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي)).

أخرجه من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] الآية، والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم، ثم صورهم، ثم استنطقهم، فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهد عليهم أنفسهم، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية.

قال فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، أشهد عليكم أباكم آدم، أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا.

اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً، يندرونكم عهدي، وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي.

قالوا نشهد أنك ربنا، وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني، والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك.

فقال: يا رب لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة، والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: 7].

وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30].

وفي ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ [النجم: 56].

وفي ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102].

رواه الأئمة عبد الله بن أحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، في تفاسيرهم، من طريق أبي جعفر.

وروي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغير واحد من علماء السلف، بسياقات توافق هذه الأحاديث.

وتقدم أنه تعالى، لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، امتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له، حسداً وعداوة له، فطرده الله وأبعده، وأخرجه من الحضرة الإلهية، ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض، طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، ويعلى، ومحمد ابنا عبيد، قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت، فلي النار)).

ورواه مسلم من حديث وكيع، وأبي معاوية، عن الأعمش به.

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها، سواء كانت في السماء، أو في الأرض، على ما تقدم من الخلاف فيه، أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام، يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة، التي نهيا عنها، سلبا ما كانا فيه من اللباس، وأهبطا إلى الأرض.

وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها. واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا.

وقد قدمنا ما رواه مسلم، عن أبي هريرة مرفوعاً.

وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة. وتقدم أيضاً حديثه عنه. وفيه يعني يوم الجمعة خلق آدم، وفيه أخرج منها، فإن كان اليوم الذي خلق فيه، فيه أخرج.

وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام، فقد لبث بعض يوم من هذه، وفي هذا نظر. وإن كان إخراجهم في غير اليوم الذي خلق فيه.

أو قلنا: بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، واختاره ابن جرير. فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه: ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة. وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق، عن هشام بن حسان، عن سوار، خبر عطاء بن أبي رباح، أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، فحطه الله إلى ستين ذراعاً.

وقد روي عن ابن عباس نحوه.

وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)).

وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير، عن ابن عباس، إن الله قال:

يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي.

وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه، وعلمه المناسك، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم، صارت قرية بعد ذلك.

وعنه: أن أو طعام أكله آدم في الأرض، أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة.

فقال: ما هذا؟

قال: هذا من الشجرة التي نهيت عنها، فأكلت منها.

فقال: وما أصنع بهذا؟

قال: ابذره في الأرض فبذره. وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف، فنبتت، فحصده، ثم درسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، فأكله بعد جهد عظيم، وتعب، ونكد. وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117].

وكان أول كسوتهما: من شعر الضأن، جزاه، ثم غزلاه، فنسج آدم له جبة، ولحواء درعاً، وخماراً.

واختلفوا: هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد؟ فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض.

وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل، وأخته، ممن ولد بها. والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر، وأنثى. وأمر أن يزوج كل ابن، أخت أخيه التي ولدت معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرا. ولم يكن تحل لأخيها الذي ولدت معه.

قصة قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لئن بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سُوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ طُغْيَانٍ فَوَارِي سُوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 27-31].

قد تكلمنا على هذه القصة، في سورة المائدة، في التفسير بما فيه كفاية، والله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك، فذكر السدي، عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة:

أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت هابيل أحسن، فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قرباناً.

وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السماوات على بنيهِ، فأبين، والأرضين، والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال: لأقتلنك حتى لا تتكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وروي عن ابن عباس، من وجوه أخر.

وعن عبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التخرج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقربهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له، ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك، ولم يتقبل مني، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فغضب قابيل عندها، وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة، رماها على رأسه، وهو نائم، فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً، كما تفعل السباع فمات. والله أعلم.

وقوله له لما توعدده بالقتل: ﴿لَنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

دل على خلق حسن، وخوف من الله تعالى، وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في (الصحيحين) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟

قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)).

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 29].

أي: إنني أريد ترك مقاتلتك، وإن كنت أشد منك وأقوى، إذ قد عزمت على ما عزمت عليه، أن تبوء بإثمي وإثمك، أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك.

قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير، وغير واحد.

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل، كما قد توهمه بعض. قال: فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما ترك القاتل على المقتول من ذنب) فلا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث، بسند صحيح، ولا حسن، ولا ضعيف، أيضاً.

ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص، يوم القيامة، يطالب المقتول القاتل، فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه الظلمة، فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل. كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم والقتل من أعظمها، والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير، والله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقْتُلني، قال: كن كابن آدم)).

ورواه ابن مردويه، عن حذيفة بن اليمان، مرفوعاً، وقال: كن كخير ابني آدم.

وروى مسلم، وأهل السنن، إلا النسائي، عن أبي ذر نحو هذا.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، ووكيع، قالوا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل)).

ورواه الجماعة سوى أبي داود، من حديث الأعمش به.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وإبراهيم النخعي، أنهما قالاً مثل هذا سواء.

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها: مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب، فانه أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير، وقال: إنه كان من الصالحين، أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، وعمر، وهابيل، وأنه استحلف هابيل، أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء، فأجابته إلى ذلك.

وصدقه في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إنه وأبا بكر، وعمر، يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا، لم يترتب عليه حكم شرعي. والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة: 31].

ذكر بعضهم: أنه لما قتله حملة على ظهره سنة. وقال آخرون: حملة مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.

قال السدي: بإسناده عن الصحابة، أخوين فتقاتلا، فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض، يحفر له فيها، ثم ألقاه، ودفنه، وواراه، فلما رآه يصنع ذلك، قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سؤأة أخي، ففعل مثل ما فعل الغراب، فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ، والسير، أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً، وأنه قال في ذلك شعراً، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير، عن ابن حميد:

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم:

أبا هابيل قد قتل جميعاً * وصار الحي كالميت الذبيح

وجاء بشرة قد كان منها * على خوف فجابها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر. وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا. وفيه أقوال، والله أعلم.

وقد ذكر مجاهد: أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقته ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً به وتعجيباً لذنبه، وبغيه، وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)).

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة، أن الله عز وجل أجله وأنظره، وأنه سكن في أرض نود في شرقي عدن، وهم يسمونه قنين، وأنه ولد له خنوخ، ولخنوخ عندر، ولعندر محوايل،

ولمحوابل متوشيل، ولمتوشيل لأمك، وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا، فولدت عدا ولداً اسمه إبل، وهو أول من سكن القباب، واقتنى المال.

وولدت أيضاً نوبل، وهو أول من أخذ في ضرب الونج، والصنج، وولدت صلا، ولداً اسمه توبلقين، وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنناً اسمها نعى.

وفيها أيضاً: أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً، ودعت اسمه: شيث. وقالت من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل.

وولد لشيث: أنوش. قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش، مائة وخمسة وستين، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين.

وولد له: بنون، وبنات غير أنوش، فولد لأنوش: قينان، وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان عمر قينان سبعين سنة، ولد له: مهلايل، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان لمهلايل من العمر خمس وستون سنة، ولد له: يرد، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان ليرد مائة سنة واثنان وستون سنة، ولد له: خنوخ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة، ولد له: متوشلح، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة، ولد له: لامك، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان للامك من العمر مائة واثنان وثمانون سنة، ولد له: نوح، وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسة وتسعين سنة.

وولد له: بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة، ولد له بنون: سام، وحام، ويافت، هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً.

وفي كون هذه التواريخ محفوظة، فيما نزل من السماء نظر، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك، والظاهر أنها مقحمة فيها.

ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير. وفيها غلط كثير، كما سنذكره في مواضعه، إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه، عن بعضهم، أن حواء ولدت لأدم أربعين ولداً في عشرين بطناً. قاله ابن إسحاق وسماههم، والله تعالى أعلم.

وقيل: مائة وعشرين بطناً، في كل واحد ذكر وأنثى، أولهم: قابيل وأخته قليما، وآخرهم: عبد المغيث وأخته أم المغيث. ثم انتشر الناس بعد ذلك، وكثروا، وامتدوا في الأرض، ونموا، كما قال الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} الآية [النساء: 1].

وقد ذكر أهل التاريخ، أن آدم عليه السلام لم يموت حتى رأى من ذريته من أولاده، وأولاد أولاده، أربعمئة ألف نسمة، والله أعلم.

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبِّهَمَا لِنُحْنِ أَنْتَيْنَا صَالِحًا لِنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: 189 - 190].

فهذا تنبيه أولاً، بذكر آدم، ثم استطرده إلى الجنس، وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء، بل لما جرى ذكر الشخص، استطرده إلى الجنس، كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُؤْلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قُرْآنٍ مَكِينٍ} [المؤمنون: 12-13].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: 5].

ومعلوم أن رجوم الشياطين، ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرده من شخصها إلى جنسها.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن، عن سمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((قال لما ولدت حواء، طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمته: عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره)).

وهكذا رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، في تفاسيرهم عند هذه الآية.

وأخرجه الحاكم في (مستدرکه)، كلهم من حديث عبد الصمد، بن عبد الوارث به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم.

ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه، فهذه علة قاذحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقه من الإسرائيليات.

وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس.

والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأخبار، ودونه، والله أعلم.

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات، بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره، والله أعلم.

وأيضاً فأنه تعالى إنما خلق آدم وحواء، ليكونا أصل البشر، وليبيت منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد، كما ذكر في هذا الحديث، إن كان محفوظاً.

والمظنون: بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم خطأ، والصواب وقفه، والله أعلم.

وقد حررنا هذا في كتابنا (التفسير). والله الحمد.

نعم قد كان آدم وحواء أتقى الله مما ذكر عنهما في هذا، فإن آدم أبو البشر، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان في (صحيحه)، عن أبي ذر، قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟

قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً)).

قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟

قال: ((ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير)).

قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟

قال: ((آدم)).

قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟

قال: ((نعم خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً)).

وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع بن هرمز، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان، وأفضل الليالي ليلة القدر، وأفضل النساء مريم بنت عمران)).

وهذا إسناد ضعيف، فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين، وضعفه أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وابن حبان، وغيرهم، والله أعلم.

وقال كعب الأحبار: ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم، لحيته سوداء إلى سرتة، وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم، كنيته في الدنيا أبو البشر، وفي الجنة أبو محمد.

وقد روى ابن عدي، من طريق سبج ابن أبي خالد، عن حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً:

((أهل الجنة يدعون بأسمائهم، إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد)).

ورواه ابن عدي أيضاً، من حديث علي بن أبي طالب، وهو ضعيف من كل وجه، والله أعلم.

وفي حديث الإسراء الذي في (الصحيحين): ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما مر بآدم، وهو في السماء الدنيا، قال له: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح.

قال: وإذا عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

فقلت: يا جبريل ما هذا؟

قال: هذا آدم، وهؤلاء نسمة بنيه. فإذا نظر قبل أهل اليمين، وهم أهل الجنة ضحك، وإذا نظر قبل أهل الشمال، وهم أهل النار بكى)).

هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن، قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم:

((فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن)) قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام. وهذا مناسب. فإن الله خلق آدم، وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه.

وقد روينا عن عبد الله بن عمر، وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً:

((إن الله تعالى لما خلق الجنة، قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبني آدم الدنيا، يأكلون فيها، ويشربون، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فكان)).

وقد ورد الحديث المروي في (الصحيحين)، وغيرهما، من طرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق آدم على صورته)).

وقد تكلم العلماء على هذا الحديث، فذكروا فيه مسالك كثيرة، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث

ومعنى شيث هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل. قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف)).

على شيث خمسين صحيفة.

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة، عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال إن انتساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث. وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم.

ولما توفي آدم عليه السلام، وكان ذلك يوم الجمعة، جاءت الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة. وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا هدية بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن يحيى هو ابن ضمرة السعدي قال: رأيت شيخاً بالمدينة تكلم فسألت عنه، فقالوا: هذا أبي بن كعب.

فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لابنيه: أي بني إنني أشتي من ثمار الجنة، قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما تريدون، وأين تطلبون؟

قالوا: أبونا مريض واشتهد من ثمار الجنة.

فقالوا لهم: ارجعوا، فقد قضى أبوكم فجاءوا، فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عني، فإني إنما أتيت من قبلك فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل، فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه وحفروا له ولحدوه، وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره، فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا يا بني آدم هذه سنتكم، إسناد صحيح إليه.

وروى ابن عساکر، من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((كبرت الملائكة على آدم أربعاً، وكبر أبي بكر على فاطمة أربعاً، وكبر عمر على أبي بكر أربعاً، وكبر صهيب على عمر أربعاً)).

قال ابن عساكر، ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا في موضع دفنه؛ فالمشهور أنه دفن عند الجبل، الذي أهبط منه في الهند.

وقيل بجبل أبي قبيس بمكة.

ويقال: إن نوحاً عليه السلام، لما كان زمن الطوفان، حمله هو وحواء في تابوت، فدفنهما ببيت المقدس.

حكى ذلك ابن جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم، أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم، ورجلاه عند صخرة بيت المقدس، وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام، فقَدَّمنا في الحديث، عن ابن عباس، وأبي هريرة مرفوعاً، أن عمره اكتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وهذا لا يعارضه ما في التوراة، من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، لأن قولهم هذا، مطعون فيه مردود، إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضاً فإن قولهم هذا، يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث، فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً، محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط، وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة، مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط، على ما ذكره ابن جرير، وغيره، فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام.

رواه ابن عساكر.

فلما مات آدم عليه السلام، قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبياً بنص الحديث، الذي رواه ابن حبان في (صحيحه)، عن أبي ذر مرفوعاً، أنه أنزل عليه خمسون صحيفة، فلما حانت وفاته، أوصى إلى ابنه أنوش، فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينن.

ثم من بعده ابنه مهلاييل، وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس، أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار، وبنى المدائن، والحصون الكبار. وأنه هو الذي بنى مدينة بابل، ومدينة السوس الأقصى.

وأنه قهر إبليس وجنوده، وشردهم عن الأرض إلى أطرافها، وشعاب جبالها، وأنه قتل خلقاً من مرده الجن، والغيلان، وكان له تاج عظيم، وكان يخطب الناس، ودامت دولته أربعين سنة.

فلما مات، قام بالأمر بعده ولده يرد، فلما حضرته الوفاة، أوصى إلى ولده خنوخ، وهو إدريس عليه السلام، على المشهور.

إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 56 - 57].

فإدريس عليه السلام: قد أثنى الله عليه، ووصفه بالنبوة، والصدقية، وهو خنوخ هذا، وهو في عمود نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما ذكره غير واحد من علماء النسب.

وكان أول بني آدم أعطي النبوة، بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم، ثلاثمائة سنة وثمانين سنين.

وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي، لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الخط بالرمل فقال:

((إنه كان نبي يخط به، فمن وافق خطه فذاك)).

ويزعم كثير من علماء التفسير، والأحكام، أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء، والعلماء، والحكماء، والأولياء.

وقوله تعالى: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ هو كما ثبت في (الصحيحين)، في حديث الإسراء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به، وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير، عن يونس، عن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف، قال: سأل ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ.

فقال كعب: أما إدريس؛ فإن الله أوحى إليه، أني أرفع لك كل يوم، مثل جميع عمل بني آدم، لعله من أهل زمانه، فأحب أن يزداد عملاً، فاتاه خليل له من الملائكة.

فقال له: إن الله أوحى إلي كذا، وكذا، فكلم ملك الموت حتى أزداد عملاً، فحملة بين جناحيه، ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة، تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس.

فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: فالعجب بعثت، وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك. فذلك قول الله عز وجل: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ.

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها، وعنده: فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت كم بقي من عمري؟

فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك إلى تحت جناحه، إلى إدريس، فإذا هو قد قبض، وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة.

وقول ابن أبي نجیح، عن مجاهد في قوله: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ.

قال إدريس: رفع ولم يمتهن، كما رفع عيسى، إن أراد أنه لم يمتهن إلى الآن، ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حياً إلى السماء ثم قبض هناك، فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأخبار، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس، في قوله: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ رفع إلى السماء السادسة، فمات بها.

وهكذا قال الضحاك، والحديث المتفق عليه، من أنه في السماء الرابعة أصح. وهو قول مجاهد، وغير واحد.

وقال الحسن البصري: هَوْرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ قال إلى الجنة.

وقال قائلون: رفع في حياة أبيه، يرد بن مهلايل، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم، أن إدريس لم يكن قبل نوح، بل في زمان بني إسرائيل.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود، وابن عباس، أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك، بما جاء في حديث الزهري، عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام، قال له: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ولم يقل كما قال آدم، وإبراهيم: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح.

قالوا: فلو كان في عمود نسبه، لقال له كما قال له. وهذا لا يدل، ولا بد لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً. أو لعله قاله له، على سبيل الهضم، والتواضع، ولم ينتصب له في مقام الأبوة، كما انتصب لآدم أبي البشر، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن، وأكبر أولي العزم، بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

قصة نوح عليه السلام

هو نوح، بن لامك، بن متوشلخ، بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد، بن مهليل، بن قين، بن أنوش، بن شيث، بن آدم أبي البشر عليه السلام.

كان مولده بعد وفاة آدم، بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم، يكون بين مولد نوح، وموت آدم، مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في (صحيحه):

حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، سمعت أبا سلام، سمعت أبا أمامة، أن رجلاً قال: يا رسول الله: أنبي كان آدم؟

قال: نعم مكم.

قال: فكم كان بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قلت، وهذا على شرط مسلم، ولم يخرج به.

وفي صحيح البخاري، عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح، عشرة قرون كلهم على الإسلام، فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر، باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة، لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون.

وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام. وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ، وغيرهم من أهل الكتاب، أن قابيل وبنيه، عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن، الجيل من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 37].

وقوله: ﴿يُمْ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31].

وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 38].

وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْنٍ﴾ [مريم: 74].

وكقوله عليه السلام: ((خير القرون قرني...)) الحديث.

فقد كان الجيل قبل نوح، يعمره الدهر الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح، ألوف من السنين، والله أعلم.

وبالجملة؛ فنوح عليه السلام، إنما بعثه الله تعالى، لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول، بعث إلى أهل الأرض، كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم بنو راسب، فيما ذكره ابن جبير، وغيره.

واختلفوا في مقدار سنة يوم بعث؛ فقيل: كان ابن خمسين سنة.

وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة.

حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز.

ففي الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصفوات، واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة، فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَلْبَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنِبْنَاهُ وَالدِّينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [6459 -].

وقال في سورة يونس: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ نوحٌ نبياً نوحاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾ [71 - 73].

وقال تعالى في سورة هود:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْبَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْمُوهُمَا وَآتَمَّنَّا لَهَا كَارهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رُبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ

الظالمين * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ * وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ * وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَوَلَّانَا حَمِيلاً فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ

وَيَا سَمَاءُ أَطِيعِي وَغِيضِ الْمَاءِ وَفِضِي الْأَمْرُ وَاسْتَوْتِ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمَّعْتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: 25- 49].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصْرَانًا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: 76-77].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَةٌ فَنَرَيْصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَؤَلِّ الْحِمْدَ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} [المؤمنون: 23-30]. (ج/ص: 1/ 116)

وقال تعالى في سورة الشعراء: {كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَنْ لِمَ تَنْتَهُ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُون * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُون * ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: 105-122].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: {هُوَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [العنكبوت: 15-14].

وقال تعالى في سورة الصافات: {هُوَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ} [الصافات: 75-82].

وقال تعالى في سورة اقتربت: {كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحَ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرَانَ لِلذَّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17-9].

وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبِينِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَنْبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا * وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ آلِهَتِنَا وَلَا تَنْزِرْ وَدًا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يُعِثُّ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا * وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرَفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَنْزِرْ عَلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَلَوْلَا الَّذِي دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح السورة بتمامها].
(ج/ص: 117 / 1)

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه السورة في التفسير، وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة، ومما دلت عليه الأحاديث، والآثار.

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن، فيها مدحه وذم من خالفه.

فقال تعالى في سورة النساء: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَنبَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مَبْسُورِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلْمَا يُكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 163-165].

وقال في سورة الأنعام: {وَرَبِّكَ حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخْوَانِهِمْ وَأَجْتَنَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: 83-87].

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [التوبة: 70].

وتقدمت قصته في يونس، وهود.

وقال في سورة إبراهيم: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [إبراهيم: 9].

وقال في سورة سبحان: {ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: 3].

وقال فيها أيضاً: {هُوَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: 17].

وتقدمت قصته في الأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت. (ج/ص: 118 / 1)

وقال في سورة الأحزاب: {هُوَ الَّذِي أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب: 7].

وقال في سورة ص: {كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ} [ص: 12-14].

وقال في سورة غافر: {كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَاءُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر: 5-6].

وقال في سورة الشورى: {هَشْرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: 13].

وقال تعالى في سورة ق: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبُعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ} [ق: 12-14].

وقال في الذاريات: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الذاريات: 46].

وقال في النجم: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى} [النجم: 52].

وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة.

وقال تعالى في سورة الحديد: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي دُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِئْتُهُمْ مَهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 26].

وقال تعالى في سورة التحريم: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} [التحريم: 10].

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب، والسنة، والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. رواه البخاري.

وذكرنا أن المراد بالقرن: الجيل، أو المدة على ما سلف، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، عند تفسير قوله تعالى: {وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: 23].

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنتسخ العلم عتبت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، وهكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير في (تفسيره): حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون، دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير أنه قال: ود، ويعوث، ويعوق، وسواع، ونسر: أولاد آدم. وكان ود أكبرهم، وأبرهم به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب، عن أبي المطهر قال:

ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر، وهو قائم بصلي يزيد بن المهلب قال:

فلما انفتل من صلته قال: ذكرت يزيد بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله.

قال: ذكر ودأ رجلاً صالحاً، وكان محبوباً في قومه، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان.

ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديبكم فتذكرونه؟

قالوا: نعم.

فصور لهم مثله.

قال: ووضعوه في ناديهم، وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره.

قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟

قالوا: نعم.

قال: فمئل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به.

قال: وأدرك أبناؤهم، فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله، أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير الله (ود) الصنم، الذي سموه وداً.

ومقتضى هذا السياق: أن كل صنم من هذه، عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل.

ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً، قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا (التفسير)، والله الحمد والمنة.

وقد ثبت في (الصحيحين) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكرت عنده أم سلمة، وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية، فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها، قال:

((أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل)).

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعم البلاد بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في (الصحيحين) من حديث أبي حيان، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة قال:

((فيا تون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟

فيقول: ربي قد غضب غضباً شديداً، لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟

فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي...)).

وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام، دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده، لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنماً، ولا تمثالاً، ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحديته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل، الذين هم كلهم من ذريته.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77].

وقال فيه، وفي إبراهيم: {وَجَعَلْنَا فِي دُرَيْتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: 26]. أي: كل نبي من بعد نوح، فمن ذريته وكذلك إبراهيم.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36].

وقال تعالى: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ} [الزخرف: 45].

وقال تعالى: {هُوَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25].

ولهذا قال نوح لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: 59].

وقال: {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [هود: 26].

وقال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون: 23].

وقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [نوح: 2-14] الآيات الكريمة.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل، والنهار، والسر، والإجهار، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى. وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

{قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ} أي: السادة الكبراء منهم:

{إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 60-61] أي: لست كما تزعمون من أنني ضال، بل على الهدى المستقيم، رسول من رب العالمين أي: الذي يقول للشيء كن فيكون.

{أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 62] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أي فصيحاً ناصحاً، أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَائِهِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود: 27]، تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً، وتنقصوا بمن اتبعه، ورأواهم أرادلهم.

وقد قيل: إنهم كانوا من أقياد الناس، وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل، وما ذلك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ((بادي الرأي)) أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذي رموه به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية، ولا فكر، ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مادحاً للصديق:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كيوه غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم)) ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر، ولا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه، وقال:

((ياأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر)) رضي الله عنه.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: 27] أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان، ولا مزية علينا ﴿بَلْ نَطُغُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أُنزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: 27-28].

وهذا تطف في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿هَاقُوا لَهَا قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْسَنُ﴾ [طه: 44].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وهذا منه يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ﴾ [هود: 28] أي: النبوة والرسالة.

﴿فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلم تفهموها، ولم تهتدوا إليها.

﴿أُنزِلُكُمْ مَوْهَا﴾ أي: أنغصبكم بها، ونجبركم عليها.

﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي: ليس لي فيكم حيلة، والحالة هذه.

﴿وَيَا قَوْمِ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَ إِنْ أَجْرِي إِيَّا عَلِيَّ﴾ [هود: 29] أي: لست أريد منكم أجره على إبلاغي إياكم، ما ينفعكم في دنياكم، وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله، الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله: ﴿اللَّهُ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رُبَّهُمْ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِي وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [هود: 29] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعده أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك.

وقال: ﴿لِنَّهُمْ مُلَأُوا رُبَّهُمْ﴾ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل.

ولهذا قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَقْلًا﴾

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار، وصهيب، وبلال، وخباب، وأشباههم، نهاه الله عن ذلك، كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله، إلا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني من أتباعه.

﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم، عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

كما قالوا في المواضع الأخر: {..أَنْتُمْ مِنْ لَدُنِّي وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِيَّا عَلِي رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}} [الشعراء: 111 - 115].

وقد تطاول الزمان، والمجادلة بينه وبينهم، كما قال تعالى: ﴿قَلْبَتْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14].

أي: ومع هذه المدة الطويلة، فما آمن به إلا القليل منهم، وكان كل ما انقضى جيل، وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به، ومحاربتة، ومخالفتة.

وكان الوالد إذا بلغ ولده، وعقل عنه كلامه، وصاه فيما بينه وبينه، أن لا يؤمن بنوح أبداً، ما عاش، ودائماً ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان، واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا﴾.

ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: 32 - 33].

أي: إنما يقدر على ذلك الله عز وجل، فإنه الذي لا يعجزه شيء، ولا يكثرته أمر، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: 34].

أي: من يرد الله فنتنته، فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم العليم، بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

﴿وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: 36] تسلياً له عما كان منهم إليه.

﴿قَلَّا تَبَيَّنَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهذه تعزية لنوح عليه السلام، في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوأنك ما جرى؛ فإن النصر قريب والنبأ عجب.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَوَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ﴾ [هود: 37] وذلك أن نوحاً عليه السلام، لما ينس من صلاحهم، وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفتة، وتكذيبه، بكل طريق من فعال، ومقال، دعا عليهم دعوة غضب، فلبى الله دعوته، وأجاب طلبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: 76 - 75].

وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76].

(يتبع...)

(تابع... 1): هو نوح، بن لامك، بن متوشلخ، بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد، بن... ..

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 117].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ [المؤمنون: 39].

وقال تعالى: ﴿هَمَّأَ خَطِيبَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْنَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَتْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: 2725 -].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم، وفجورهم، ودعوة نبيهم عليهم، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك؛ وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم الله تعالى إليه أنه: إذا جاء أمره، وحلَّ بهم بأسه، الذي لا يرد عن القوم المجرمين، أنه لا يعاوده فيهم، ولا يراجعهم، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: 37-38].

أي: يستهزئون به استعباد الوقوع ما توعدهم به.

﴿قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

أي: نحن الذين نسخر منكم، ونتعجب منكم، في استمراركم على كفركم، وعنادكم، الذي يقتضي وقوع العذاب بكم، وحلوله عليكم.

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحل عليه عذاب مقيم﴾ [هود: 39].

وقد كانت سجاياهم: الكفر الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا. وهكذا في الآخرة، فإنهم يجحدون أيضاً، أن يكون جاءهم رسول.

كما قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يجيء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟))

فيقول: نعم أي رب.

فيقول لأمته: هل بلغكم؟

فيقولون: لا ما جاءنا من نبي.

فيقول لنوح: من يشهد لك؟

فيقول: محمد وأمته، فتشهد أنه قد بلغ))

وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

والوسط: العدل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق، المصدق، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق، وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته، على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم، إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد يضرهم، إلا وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم، حذراً عليهم، وشفقة، ورحمة بهم.

كما قال البخاري: حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهري، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال:

((إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور)).

وهذا الحديث في (الصحيحين) أيضاً، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً، ما حدث به نبي قومه أنه أعور، وأنه يجيء معه بمثال الجنة، والنار، والتي يقول عليها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه)).

لفظ البخاري.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره، أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة، فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فإله أعلم.

قال محمد بن إسحق، عن الثوري: وكان من خشب الساج.

وقيل: من الصنوبر. وهو نص التوراة.

قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلّى ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جُجُوءاً أزور يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، في عرض خمسين ذراعاً، وهذا الذي في التوراة، على ما رأيته.

وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلاثمائة.

وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة ذراع.

وقيل: كان طولها ألفي ذراع، وعرضها مائة ذراع.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشر أذرع؛ فالسفلى: للدواب، والوحوش، والوسطى: للناس، والعليا: للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها، مطبق عليها.

قال الله تعالى: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَّبْتُ بِمَا كَدَّبْتُ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا} [المؤمنون: 26 - 27].

أي: بأمرنا لك، وبمراى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

{فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ الْفُلَ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا} [المؤمنون: 27].

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي، أنه إذا جاء أمره، وحلّ بأسه، أن يحمل في هذه السفينة، من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها، لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم: أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينهم من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد، كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض أي نبتت الأرض من سائر أرجائها، حتى نبتت التنانير التي هي محال النار.

وعن ابن عباس: التنور عين في الهند.

وعن الشعبي: بالكوفة.

وعن قتادة: بالجزيرة.

وقال علي بن أبي طالب: المراد بالتنور فلق الصبح، وتنوير الفجر، أي إشراقه وضياؤه، أي عند ذلك: فاحمل فيها من كل زوجين اثنين، وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّرُنَا وَقَارَ النَّثُورُ فَلْنَا أَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: 40].

هذا أمر بأن عند حلول النعمة بهم، أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفي كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج، ومما لا يؤكل زوجين ذكراً وأنتى، وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق اثنين إن جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين، والمفعول به محذوف، فلا ينافي، والله أعلم.

وذكر بعضهم، ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدرة، وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار. ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف نطمئن، أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد؟

فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت في الأرض.

ثم شكوا الفارة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا.

فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها)).

هذا مرسل.

وقوله {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} أي: من استجيب فيهم الدعوة النافذة، ممن كفر، فكان منهم ابنه يام الذي غرق، كما سيأتي بيانه.

{وَمَنْ آمَنَ} أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك.

قال الله تعالى: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة، ليلاً ونهاراً بضروب المقال، وفنون التلطفات، والتهديد والوعيد تارة، والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة؛ فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم.

وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً.

وقيل: كانوا عشرة.

وقيل: إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة، وكنانته الأربع، بامرأة يام، الذي انخرل، وانعزل، وسلل عن طريق النجاة، فما عدل إذ عدل.

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله، طائفة ممن آمن به.

كما قال: {وَنَجَّيْنَا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 118].

وقيل: كانوا سبعة.

وأما امرأة نوح، وهي أم أولاده كلهم وهم: حام، وسام، ويافث، وياهم، وتسميه أهل الكتاب: كنعان، وهو الذي قد غرق، وعابر، وقد ماتت قبل الطوفان.

قيل: إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها، وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أنظرت ليوم القيامة، والظاهر الأول.

قوله: {... لا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}.

قال الله تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ هَذَا لَكُمْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون: 28 - 29].

أمره أن يحمد ربه، على ما سخر له من هذه السفينة، فنجاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف: 12 - 14].

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور، أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة، كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، حين هاجر: {هُوَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: 80].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [هود: 41].

أي: على اسم الله ابتداء سيرها، وانتهاءه.

{إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: وذو عقاب أليم، مع كونه غفوراً رحيمًا، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. كما أحل بأهل الأرض، الذين كفروا به، وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً، لم تعهده الأرض قبله، ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها، وسائر أرجائها، كما قال تعالى: {فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاجِ وَدُسِّرُ} [القمر: 1310 -].

والدسر: السائر تجري بأعيننا، أي: بحفظنا، وكلاءتنا، وحراستنا، ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر.

وقد ذكر ابن جرير، وغيره، أن الطوفان كان في ثالث عشر، شهر آب، في حساب القبط.

وقال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: 11] أي: السفينة.

{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنَىٰ} [الحاقة: 12].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض، خمسة عشر ذراعاً، وهو الذي عند أهل الكتاب.

وقيل: ثمانين ذراعاً، وعمم جميع الأرض طولها والعرض، سهلها، وحزنها، وجبالها، وقفارها، ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض، ممن كان بها من الأحياء، عين تطرف، ولا صغير، ولا كبير.

قال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان، قد ملؤوا السهل، والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة في الأرض، إلا ولها مالك، وحائز. رواهما ابن أبي حاتم.

{وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاءَ أَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ} [هود: 42 - 43].

وهذا الابن هو: يام أخو سام، وحام، ويافت. وقيل اسمه كنعان.

وكان كافراً عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك.

هذا وقد نجا مع أبيه، الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: 44].

أي: لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تفلح أي تمسك عن المطر.

{وَغِيضَ الْمَاءِ} أي: نقص عما كان.

{وَقُضِيَ الْأَمْرُ} أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه، وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم.

{وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} [الأعراف: 64].

وقال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ} [يونس: 73].

وقال تعالى: {وَتَصَرَّاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: 77].

وقال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: 119-122].

وقال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}

وقال تعالى: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}.

وقال: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 15-17].

وقال تعالى: {مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَاضِيًا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: 25-27] وقد استجاب الله تعالى - وله الحمد والمنة - دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان: أبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن قائد مولى عبد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره، أن عائشة أم المؤمنين أخبرته، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي)).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة - يعني إلا خمسين عاماً - وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه.

ويقولون: تعمل سفينة في البر كيف تجري؟

قال: سوف تعلمون.

فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك، خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعت يديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي)).

وهذا حديث غريب.

وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد، وغير واحد شبيهه لهذه القصة.

وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً، متلقى عن مثل كعب الأحبار، والله أعلم.

والمقصود: أن الله لم يبق من الكافرين ديناراً، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق، ويقال: ابن عناق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى، ويقولون: كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً.

ويقولون: كان لغير رشده، بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار، ويشويه في عين الشمس، وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيبة التي لك ويستهيء به.

ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً، إلى غير ذلك من الهذيان التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير، وغيرها من التواريخ، وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها، وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره، وأبوه نبي الأمة، وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا؟

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً، ولا أم الصبي، ولا الصبي، ويترك هذا الدعي الجبار، العنيد، الفاجر، الشديد، الكافر، الشيطان، المرید على ما ذكروا.

وأما المنقول: فقد قال الله تعالى: {ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ} [الشعراء: 66].

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لِمَا نَدَرْتُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً { [نوح: 26].

ثم هذا الطول الذي ذكره مخالف لما في (الصحيحين) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)).

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 4] أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي: لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم اخباره بذلك، وهلم جرا إلى يوم القيامة.

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه، فكيف يترك هذا ويذهل عنه، ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة، من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة، وحرّفوها، وأولوها، ووضعوها على غير مواضعها،

فما ظنك بما هم يستقلون بنقله، أو يؤتمنون عليه، وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم، وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء، والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف. ووجه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي، وهو منهم.

وقد غرق فأجيب: بأنه ليس من أهلك، أي: الذين وعدت بنجاتهم، أي: أما قلنا لك: هو أهلك إلا من سبق عليه القول.

فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم؛ بأن سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [هود: 48].

هذا أمر لنوح عليه السلام، لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعي فيها، والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم، على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور. وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال.

{بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ} أي: اهبط سالماً مباركاً عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلًا ولا عقباً سوى نوح عليه السلام.

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [الصفافات: 77] فكل من على وجه الأرض اليوم، من سائر أجناس بني آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة، وهم: سام، وحام، ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم)).

ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً نحوه.

وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر. وقد روي عن عمران بن حصين، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله.

قال: والمراد بالروم هنا، الروم الأول، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: ولد نوح ثلاثة، سام، ويافث، وحام، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام: العرب، وفارس، والروم، وولد يافث: الترك، والسقالية، وأجوج، ومأجوج، وولد حام: ا، لقبط والسودان، والبربر.

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في (مسنده): حدثنا إبراهيم بن هانئ، وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس، قالوا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي، حدثني أبي، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ولد لنوح سام، وحام، ويافث، فولد لسام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم. وولد ليافث يأجوج، ومأجوج، والترك، والسقالية، ولا خير فيهم. وولد لحام القبط، والبربر، والسودان)).

ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

تفرد به محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه. وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم. واحتملوا حديثه.

ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلًا، ولم يسنده، وإنما جعله من قول سعيد. قلت: وهذا الذي ذكره أبو عمرو، وهو المحفوظ عن سعيد قوله.

وهكذا روي عن وهب بن منبه مثله. والله أعلم. ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل: إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد، إلا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان، الذي غرق، وعابر مات قبل الطوفان. والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة، هم ونسأؤهم، وأمهم، وهو نص التوراة.

وقد ذكر أن حاماً واقع امرأته في السفينة، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود، وهو كنعان بن حام جد السودان.

وقيل: بل رأى أباه نائماً، وقد بدت عورته فلم يسترها، وسترها أخواه، فلها دعا عليه أن تغير نطفته، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أنه قال:

قال الحواريون لعيسى بن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها.

قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه.

قال: أندرون ما هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه.

وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم يفيض التراب عن رأسه، وقد شاب.

فقال له عيسى عليه السلام: هكذا هلكت؟

قال: لا، ولكني مت وأنا شاب. ولكني ظننت أنها الساعة، فمن ثم سبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير.

فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام، أن اغمز ذنب الفيل فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام، أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر.

فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟

قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوق عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجلها، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت.

قال: فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا، فيجلس معنا ويحدثنا؟

قال: كيف يتبعكم من لا رزق له. قال: فقال له عد بإذن الله، فعاد تراباً.

وهذا أثر غريب جداً.

و روى غلباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجّه السفينة إلى مكة، فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجّهها إلى الجودي فاستقرت عليه.

فبعث نوح عليه السلام الغراب، ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه.

فبعث الحمامة فأنته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودي، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها العربي، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب، فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً. وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم.

و قد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل، عن أبي هريرة قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال:

((ما هذا الصوم؟))

فقالوا: هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم، فأمن أصحابه بالصوم، وقال لأصحابه: من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله، فليتم بقية يومه)).

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر، المستغرب ذكر نوح أيضاً، والله أعلم.

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم، ومن حبوب كانت معهم، قد استصبحوها، وأطحنوا الحبوب يومئذ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم، لما انهارت من الضياء، بعد ما كانوا في ظلمة السفينة، فكل هذا لا يصح فيه شيء، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل، لا يعتمد عليها، ولا يقتدى بها، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان - أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص، ويغيض، ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي، فيما يزعم أهل التوراة - في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر، رؤيت رؤوس الجبال.

فلما مضى بعد ذلك أربعين يوماً، فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام، ثم أرسلها لتتنظر له ما فعل الماء، فلم ترجع فرجعت حين أمست، وفي فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض.

ثم مكث سبعة أيام، ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان، إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين، برز وجه الأرض، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة، التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في ست وعشرين ليلة منه {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [هود: 48].

وفيما ذكر أهل الكتاب: أن الله كلم نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت، وامراتك، وبنوك، ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التي معك، ولينموا، وليكبروا في الأرض، فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل، وأخذ من جميع الدواب الحلال، والطير الحلال، فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل، وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض.

وجعل تذكراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق.

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس، وأهل الهند، وقوع الطوفان. واعترف به آخرون منهم. وقالوا: إنما كان بأرض بابل، ولم يصل إلينا. قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كائناً عن كائناً، من لدن كيو مرث، يعنون آدم إلى زماننا هذا. وهذا قاله من زنادقة المجوس عباد النيران، وأتباع الشيطان.

وهذه سفسطة منهم، وكفر فظيع، وجعل بليغ، ومكابرة للمحسوسات، وتكذيب لرب الأرض والسموات، وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفره العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

ذكر شيء من أخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: 3]

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه، وشرابه، ولباسه، وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)).

وكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي من حديث أبي أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية، والقولية والعملية، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه، باب صيام نوح عليه السلام: حدثنا سهل بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر، ويوم الأضحى} هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبراني: حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج، حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي قتادة، عن يزيد بن رباح أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر)).

حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة عن ابن عباس قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتى وادي عسفان قال:

((يا أبا بكر أي واد هذا؟)).

قال: هذا وادي عسفان.

قال: ((لقد مر بهذا الوادي نوح، وهود، وإبراهيم، على بكرات لهم حمر خطمهم الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق)).

فيه غرابة.

وصيته لولده

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس بن فارس، ورفع كل راع بن راع.

قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجامع جبته وقال:

((لا أرى عليك لباس من لا يعقل، ثم قال: إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه:

إني قاص عليك الوصية: أمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، أمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لآله إلا إله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله.

ولو أن السماوات السبع، والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر)).

قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر، أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟

قال: ((لا)).

قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟

قال: ((لا)).

قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: ((لا)).

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: ((لا)).

قلت: - أو قيل - يا رسول الله فما الكبير؟

قال: ((سفه الحق، وغمض الناس)).

وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين، وأنهاك عن خصلتين)) فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضرير، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، كما رواه أحمد، والطبراني، والله أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة، كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن ابن عباس مثله، وزاد وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة. وفي هذا القول نظر.

ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن، فهو خطأ محض. فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة، وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

ثم إن الله أعلم كم عاش بعد ذلك، فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير، والأزرقي، عن عبد الرحمن بن سابط، أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام، وهذا أقوى وأثبت من الذكر الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببليدة بالبقاع، تعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكره، والله أعلم.

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفحشد بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال إن هوداً هو: عابر بن شالخ بن أرفحشد بن سام بن نوح.

ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام، ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عرباً يسكنون الأحفاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر، واسم واديهم مغيث.

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: 6-7] أي: عاد إرم وهم عاد الأولى.

وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

وأما عاد الأولى: فهم عاد {إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد} [الفجر: 7-8] أي: مثل القبيلة. وقيل مثل العمدة، والصحيح الأول كما بيناه في التفسير.

ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يعول عليه، ولا مستند يركن إليه.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونيك يا أبا ذر.

ويقال: إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية.

وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها.

وقال غيره: أول من تكلم بها نوح.

وقيل: آدم وهو الأشبه قبل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة: فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى. ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة، والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكان أصنامهم ثلاثة: صدا، وسمودا، وهرا. فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: {وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ أقلنا نتفون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم وادكرُوا إذ جعلكم خلقت من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فادكرُوا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجنبتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأبنا بما نعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس و غضب أنجادلوني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنني معكم من المنتظرين * فأنجبناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين} [الأعراف: 65-72].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود:

{وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ إن أنتم إلا معترُونَ * يا قوم لا أسألكم عليه أجرأ إن أجري إنا على الذي فطرني أقلنا تعفون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تُشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغنكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرؤنه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذابٍ غليظ * وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبارٍ عبيد * واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة إنا إن عاداً كفروا ربهم إنا بعداً لعداؤهم هود} [هود: 50-60].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح:

{ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَثَرَقَانَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ * أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ * هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِبْحَنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [31-41].

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً:

{كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آتِيَةٍ تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَبَاتٍ وَعَيْونَ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [123-140].

وقال تعالى في سورة فصلت:

{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [15-16].

وقال تعالى في سورة الأحقاف: {

وَأذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّدْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَا تَتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * نُدمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [21-25]. (ج/ص: 1/ 140)

وقال تعالى في الذاريات: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ} [الذاريات: 41-42].

وقال تعالى في النجم: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} [النجم: 50-55].

وقال تعالى في سورة اقتربت: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * نَتَزَعُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ مُنْفَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنُ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 18-22].

وقال في الحاقة: {وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [6-8].

وقال في سورة الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمِرْصَادٍ} [6-14].

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها، من كتابنا (التفسير)، والله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة (ص)، وفي سورة (ق)، ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار، وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69] أي: جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلق، والشدة، والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿لَمْ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31] وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِتَاءً﴾ [المؤمنون: 41] قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم. كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات، ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله، وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه، وخالفوه، وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلما أمرهم بعبادة الله، ورجعهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66] أي: هذا الأمر الذي تدعوننا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67] أي ليس الأمر كما تظنون، ولا ما تعتقدون.

﴿أَبْلَغْتُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه، والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة، جامعة مانعة، لا لبس فيها ولا اختلاف، ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً، بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه.

ولهذا ﴿يَا قَوْمِ لِمَا أَسْأَلْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51] أي ما لكم عقل تميزون به، وتفهمون أنني أدعوكم إلى الحق المبين، الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه، ولا أسألكم أجراً عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع.

ولهذا قال مؤمن يس: ﴿آتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 21-22].

وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِنَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾ [هود: 53-54] يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق، ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته، ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعدنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك، فاعتراك جنون بسبب ذلك.

وهو قولهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَنشَدْتُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون﴾ [هود: 54-55].

وهذا تحدٍ منه لهم، وتبر من آلهتهم، وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه، وفعلها فعله، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر، وتنفع، وتضر، فهذا أنا بريء منها، لاعن لها.

{فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون} أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه، وتقذروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين، فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم.

{إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو أخذ بِناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم} [هود: 56] أي: أنا متوكل على الله ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلست أبالي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه، وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: {باقوم إن كان كبراً عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم افضوا إلي ولا تُنظرون} [يونس: 71]

وهكذا قال الخليل عليه السلام: {... ولا أخاف ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيءٍ علماً أفلا تتذكرون} * وكيف أخاف ما أشرككم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وبذلك جئنا آياتها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيمٍ عليم} [الأنعام: 80-83].

{وقال الملائكة من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون} * ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذا لحاسرون * أيعذكم أنكم إذا مئتم وكنتم ثرأباً وعظاماً أنكم مخرجون} [المؤمنون: 33-35].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى: {أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس} [يونس: 2].

وقال تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً} [الإسراء: 94-95].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام {أوعجبتم أن جاءكم ذكراً من ربكم على رجلٍ منكم ليُنذركم} [الأعراف: 63] أي: ليس هذا بعجيب، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: {أيعذكم أنكم إذا مئتم وكنتم ثرأباً وعظاماً أنكم مخرجون} * هيئات هيئات لما تُوعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجلٌ افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال رب أنصرني بما كذبون} [المؤمنون: 35-39].

استبعدوا المعاد، وأنكروا قيام الأجساد، بعد صيرورتها ترأباً وعظاماً، وقالوا: هيئات هيئات.

أي: بعيد بعيد هذا الوعد، إن هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحي، وما نحن بمبعوثين.

أي: يموت قوم، ويحيى آخرون، وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة، أرحام تدفع، وأرض تبتلع.

وأما الدورية: فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار، بعد كل سنة وثلاثين ألف سنة، وهذا كله كذب، وكفر، وجهل، وضلال، وأقوال باطلة، وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني

آدم، الذين لا يعقلون، ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَتَّخِذُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 113].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: 128-129].

يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور ونحوها، تعبتون ببنائها، لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 6-7-8] فعاد إرم، هم عاد الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة، وهي تنتقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: هي القصور. وقيل: بروج الحمام، وقيل: مأخذ الماء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: 129] أي: رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار، أعماراً طويلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجِبَاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 130-135].

وقالوا له مما قالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 70] أي: أجبنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه، فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإننا لا نؤمن بك، ولا نتبعك، ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿... سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ [الشعراء: 136-138].

أما على قراءة فتح الخاء؛ فالمراد به اختلاق الأولين، أي: أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك، وأخذته من كتب الأولين. هكذا فسر غير واحد من الصحابة، والتابعين.

وأما على قراءة ضم الخاء واللام، فالمراد به الدين، أي: أن هذا الدين الذي نحن عليه، إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا، ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية، قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾

قال: ﴿... فَذَوَّقَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: 71] أي: قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له، بعبادة أصنام أنتم نحتموها، وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم.

﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَيْ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَى مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ دَلِيلًا، وَلَا بَرَهَانًا، وَإِذَا أَبِيْتُمْ قَبُولَ الْحَقِّ، وَتَمَادَيْتُمْ فِي الْبَاطِلِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَنْهَيْتُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، أَمْ لَا، فَانظُرُوا الْأَنْ عَذَابَ اللَّهِ الْوَاقِعَ بِكُمْ، وَبِأَسْهَ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَنِكَالَهُ الَّذِي لَا يَصُدُّ.﴾

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُمْ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً قَبْعًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: 39 - 41].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بَلْ هُوَ

مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ { [الأحقاف: 22 - 25].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية، كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: 72].

وكقوله: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي نَكْتُبُهَا عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ لِيُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: 58-60].

وكقوله: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَمَا كَانَ لَهُمْ جَعَلْنَاهُمْ غُدَاءً فَبَعْدَ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون: 41].

وقال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: 139-140].

وأما تفصيل إهلاكهم، فلما قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: 24] كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا محطلين مسنتين، فطلبوا السقيا فرأوا عارضا في السماء، وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب.

ولهذا قال تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ} أي: من وقوع العذاب. وهو قولهم: {فَأْتَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ} ومثلها في الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يشار قال: فلما أبو الكفر بالله عز وجل، أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك. قال: وكان الناس إذجاهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج منه إنما، يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان.

وبه العماليق مقبومون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخبيري.

قال: فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا فيعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك فم فهم * لعل الله يمنحنا غماما

فيسقي أرض عاد إن عاداً * قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمسست نساؤهم أياما

وإن الوحش يأتيهم جهارا * ولا يخشى لعادي سهاما

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم تماما

فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله سبحانه ثلاثاً بيضاء، وحمراء، وسوداء. ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب.

فقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه: اخترت رماداً رموداً، لا تبقى من عاد أحداً، لا والداً يترك ولا ولداً، إلا جعلته همداً، إلا بني اللودية همداً. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصيبهم ما أصاب قومهم.

قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم، هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فيقول تعالى:

﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي: كل شيء أمرت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: فهد.

فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا فهد؟

قالت: رأيت ريحاً فيها كشهد النار، أمامها رجال يقودونها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك.

قال: واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، ويلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطن، فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة، وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في (مسنده)، يشبه هذه القصة، فقال: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث - وهو ابن حسان - ويقال ابن يزيد البكري، قال:

خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغني إليه.

قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال: فجلست. قال: فدخل منزله - أو قال - رحله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمت.

فقال: ((هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟))

فقلت: نعم. وكانت لنا الدبرة عليهم.

ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألنتي أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فأجعل الدهناء، فإنها كانت لنا.

قال: فحميت العجوز واستفزت، وقالت يا رسول الله: فإلى أين تضطر مضرك؟

قال: فقلت إن مثلي ما قال الأول، معزى حملت حقتها، حملت هذه الأمة، ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد.

قال: هيه، وما وافد عاد، وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه.

قلت: إن عاداً قحطوا، فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل، فمر بمعوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، ويغنيه جارينتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة.

قال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحبات سود، فنودي منها اختر، فأومى إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها خذاها رماداً رمداً لا تبقى من عاد أحداً.

قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال: أبو وائل وصدق، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد.

وهكذا رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به.

ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم بن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه.

وهكذا أورد هذا الحديث، وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين، كابن جرير وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الأخرى، فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تبين إلا بعد إبراهيم الخليل، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم، كما سيأتي. وعاد الأولى قبل الخليل.

وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، لا يشبهه كلام المتقدمين.

وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر.

وقد قال ابن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية، الشديدة الهبوب {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: 7] أي: كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء.

{فَقَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} شبههم بأعجاز النخل، التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله، فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس.

كما قال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} [القمر: 19] أي: في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم.

{يَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ} [القمر: 20] ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء، وتشاءم به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال في الآية الأخرى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ} [فصلت: 16].

ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها، لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات أي عليهم.

وقال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: 41] أي: التي لا تنتج خيراً، فإن الريح المفردة لا تنتج سحاباً، ولا تلقح شجراً، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها.

ولهذا قال: {مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات: 42] أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت في (الصحيحين) من حديث شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: 21] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود، وهم الأولى.

ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا﴾ [الأحقاف: 24] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب، ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة، فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: من العذاب.

ثم فسره بقوله: {رريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ} يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية، الباردة، الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليالٍ بأيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحداً بل تتبعتهم، حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال، والغيران.

فتلفهم، وتخرجهم، وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة، والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشدتهم، وقالوا من أشد منا، قوة سبط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغيث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً، كما ذكره غير واحد.

ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب، بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها، إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها، قالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة)).

وقد رواه الطبراني، عن عیدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد، وسعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما فتح الله على عاد من الريح الأمثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا)).

قال: عنت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب. قلت: وقال غيره خرجت بغير حساب.

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر. ثم اختلف فيه على مسلم الملائي، وفيه نوع اضطراب، والله أعلم.

وظاهر الآية: أنهم رأوا عارضاً، والمفهوم منه لمعة السحاب، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه في ذلك، ما رواه مسلم في (صحيحه)، حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال:

((اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به)).

قالت: وإذا عبيت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه. فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال:

((لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنًا﴾ [الأحقاف: 24])).

رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث ابن جريج.

طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث، أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا قط، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم.

وقالت: كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عرف في وجهك الكراهية، فقال:

((يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض مطرنا)).

فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين، كما أشرنا إليه أولاً، فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأخرجه البخاري، وأبو داود من حديث ابن وهب.

وقدما حج هود عليه السلام، عند ذكر حج نوح عليه السلام.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق وجامعها مكان في حائطه القبلي، يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام، والله أعلم.

قصة صالح نبي ثمود عليه السلام

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدتهم ثمود أختي جديس، وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربية يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، كما سيأتي بيانه

وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو عبد الله ورسوله: صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئاً، فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرهُ قد جاءكم بينة من ربكم هذِهِ ناقةُ الله لَكُمْ آيةٌ فذرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلَما تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِفُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَادْكُرُوا آلاءَ اللّهِ وَلَما تَعْتَوُوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قالَ المَلَأَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن آمَنَ مِنهُمُ أَنْعَلِمُونَ أَنَّ صالِحاً مُّرْسَلٌ مِن رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النّاقَةَ وَعَتَوْا عَن أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يا صالِحُ اننَبأ بِما تُعَدُّنا إِن كُنتَ مِنَ المُرسَلينَ * فَأَخَذْنَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثمينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقوم لقد أبلغكمُ رسالةَ رَبِّي وَنصحتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحينَ﴾ [الأعراف: 73-79].

وقال تعالى في سورة هود: {وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروهُ ثم ثوبوا إليه إن ربي قريبٌ مجيبٌ * قالوا يا صالحُ قد كنتُ فينا مرجوًّا قبلَ هذا أنهنّا أن نعبدُ ما يعبدُ أبائنا وإننا لفي شكٍّ ممّا ندعوناً إليه مريبٌ * قال يا قوم أرايتم إن كنتُ على بينةٍ من ربي وآتاني منه رحمةً فمن ينصرني من الله إن عصيتهُ فما تزيدونني غيرَ تخسيرٍ * ويا قوم هذه ناقةُ الله لكم آيةٌ فدروها تأكلُ في أرضِ الله ولا تمسوها بسوءٍ فياخذكم عذابٌ قريبٌ * فعفروها فقال تمعنوا في داركم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ومن خزّي يومئذٍ إن ربك هو القويُّ العزيزُ * وأخذ الذين ظلموا الصيحةَ فأصبحوا في ديارهم جاثمينٌ * كأن لم يعنوا فيها ألا إن ثمودَ كفروا ربهم ألا بعداً لثمودَ} [هود: 61-67]. (ج/ص: 151/1)

وقال تعالى في سورة الحجر: {ولقد كذب أصحابُ الحجرِ المرسلينَ * وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضينَ * وكانوا يخرجون من الجبالِ بيوتاً آمينينَ * فأخذتهم الصيحةُ مصبحينَ * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبونَ} [الحجر: 80-84].

وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان: {وما منعنا أن نرسلَ بالآياتِ إلا أن كذب بها الأولونَ وآتيناهم ثمودَ الناقةَ مبصرةً فظلموا بها وما نرسلُ بالآياتِ إلا تخويفاً} [الإسراء: 59].

وقال تعالى في سورة الشعراء: {كذبت ثمودُ المرسلينَ * إذ قال لهم أخواهم صالحٌ ألا تنفونَ * إني لكم رسولٌ أمينٌ * فاتقوا الله وأطيعونَ * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمينَ * أنتركون في ما هاهنا آمينينَ * في جناتٍ وعيونَ * وزروعٍ ونخلٍ طلعها هضيمٌ * وتنجون من الجبالِ بيوتاً فارهينَ * فاتقوا الله وأطيعونَ * ولا تطيعوا أمرَ المسرفينَ * الذين يفسدون في الأرضِ ولا يصلحونَ * قالوا إنما أنت من المسخرينَ * ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأت بايةٍ إن كنت من الصادقينَ * قال هذه ناقةُ لها شربٌ ولكم شربٌ يومَ معلومٍ * ولا تمسوها بسوءٍ فياخذكم عذابٌ يومٍ عظيمٍ * فعفروها فأصبحوا نادمينَ * فأخذهم العذابُ إن في ذلك لآيةٌ وما كان أكثرهم مؤمنينَ * وإن ربك لهو العزيزُ الرحيمُ} [الشعراء: 141-159].

وقال تعالى في سورة النمل: {ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقانِ يختصمونَ * قال يا قوم لم تستعجلون بالسينةِ قبلَ الحسنةِ لو لا تستعجلون الله لعلكم ترحمونَ * قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرُكم عند الله بل أنتم قومٌ تقنونَ * وكان في المدينةِ تسعةَ رهطٍ يفسدون في الأرضِ ولا يصلحونَ * قالوا تقاسموا بالله لنبيننه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقونَ * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا ينصرونَ * فانظر كيف كان عاقبةَ مكربهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعينَ * فذلك بيوتهم خاويةٌ بما ظلموا إن في ذلك لآيةٌ لقومٍ يعلمونَ * وأنجيناهم الذين آمنوا وكانوا يتقونَ} [النمل: 45-53].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: {وأما ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يكسبونَ * ونجيناهم الذين آمنوا وكانوا يتقونَ} [فصلت: 17-18].

وقال تعالى في سورة اقتربت: {كذبت ثمودُ بالنذرِ * فقالوا أبشراً ممّا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلالٍ وسعيرٍ * أولقي الذكرُ عليه من بيننا بل هو كذابٌ أشيرٌ * سيعلمونَ غداً من الكذابِ الناشيرِ * إنا مرسلو الناقةِ فينته لهم فارتقبهم وأصطبرِ * وتبئهم أن الماءَ قسمةٌ بينهم كلُّ شربٍ محتضرٍ * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقرَ * فكيف كان عذابي ونذرٍ * إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيمِ المحنظرِ * ولقد يسرنا القرآنَ للذكرِ فهل من مدكرٍ} [القمر: 23-32].

وقال تعالى: {كذبت ثمودُ بطعواها * إذ ابعت أشقاها * فقال لهم رسولُ الله ناقةُ الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها} [الشمس: 11-15].

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة براءة وإبراهيم، والفرقان، وسورة (ص) وسورة (ق) والنجم، والفجر.

ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما. كما قال تعالى في سورة إبراهيم: {وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لعني حديدٌ * ألم يأتيكم نبيّ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالنبينات...} [إبراهيم: 8-9] الآية.

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب، لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام، وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصبياً، والله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم، وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام، ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم، وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

قد قدمنا أنهم كانوا عربياً وكانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم، ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [الأعراف: 73-74].

أي: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم، لتعتبروا بما كان أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبينون في سهولها القصور، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين، أي: حاذقين في صنعتها واتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة.

ولهذا وعظهم بقوله: {أَتُكْفَرُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ} * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلُوعًا هَاضِمًا {الشعراء: 148-146}.

أي: متراكم، كثير، حسن، بهي، ناضج.

{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ {الشعراء: 149-152}.

وقال لهم أيضاً: {... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...} [هود: 61].

أي: هو الذي خلقكم، فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها: أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه.

{فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ} أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم، ويتجاوز عنكم.

{إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا} أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى أفراد العبادة، وترك ما كنا نعبد من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد. (ج/ص: 153 / 1)

ولهذا قالوا: {... أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {هود: 62 - 63}.

وهذا تطف منه لهم في العبارة، ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ماذا عنركم عند الله، وماذا يخلصكم بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته.

وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضاً: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء: 153] أي: من المسحورين، يعنون مسحوراً لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحورين المسحورين.

وقيل: من المسحورين، أي ممن له سحر، وهي الرئة. كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر. والأول أظهر، لقولهم بعد هذا {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَانَا}.

وقولهم: {فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم.

قال: {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 155-156].

وقال: {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيِيمٍ} [الأعراف: 73].

وقال تعالى: {وَأَتَيْنَا تَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا} [الإسراء: 59].

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم، وحذرهم، ووعظهم، وأمرهم، فقالوا له:

إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك ناقه من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها، وتعتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا.

فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرايتم إن أجبتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتمكم به وتصدقوني فيما أرسلت به. قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقه عزيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك، رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم، وعنادهم.

ولهذا قال: {ظَلَمُوا بِهَا} أي: جحدوا بها، ولم يتبعوا الحق بسببها أي: أكثرهم.

وكان رئيس الذين آمنوا: جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس. وكان من رؤساهم، وهم بقية الأشراف بالإسلام، قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد، والخباب صاحباً أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلمس ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرفهم، فهمم بالإسلام، فنهاه أولئك فمال إليهم، فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل، رحمه الله:

وكانت عصابة من آل عمرو * إلى دين النبي دعوا شهاباً

عزيز ثمود كلهم جميعاً * فهمم بأن يجيب ولو أجاباً

أصبح صالح فينا عزيزاً * وما عدلوا بصاحبهم ذؤاباً

ولكن الغواة من آل حجر * تولوا بعد رشدهم ذاباً

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: {هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ} [هود: 64] أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشریف وتعظيم، كقوله: بيت الله، وعبد الله.

{لَكُمْ آيَةٌ} أي: دليلاً على صدق ما جئتمكم به.

﴿فَدْرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ قَبَاخُدْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يوماً ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم.

ولهذا قال: ﴿لها شرب، ولكم شرب يوم معلوم﴾

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: 27] أي: اختبار لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يكون من أمرهم، واصطبر على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية.

﴿وَنَبَّهَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: 28] فلما طال عليهم الحال هذا، اجتمع ملوهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها، ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 77].

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب، وكان يقال إنه ولد زانية، ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له: صبيان، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلماذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود، اسم إحداهما: صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له: مصرع بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة.

واسم الأخرى: عنيزة بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أم عثمان، وكانت عجوزاً كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو، أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء.

فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون، فصاروا تسعة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: 48].

وسعوا في بقية القبيلة، وحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطأوهم في ذلك، فانطلقوا يرددون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم، فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم.

فابتدروهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاء واحدة عظيمة تحذر ولدها، ثم طعن في لبتها فنحراها، وانطلق سقيها وهو فضيلها، فصعد جبلاً منيعاً ودعا ثلاثاً.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن سمع الحسن أنه قال: يا رب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها. ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضاً

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ [القمر: 29-30].

وقال تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروها.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 14-15].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هاشم - هو أبو عذرة - عن أبيه عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: ((إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجل من عارم، عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة)).

أخرجاه من حديث هشام بن عارم، أي شهم عزيز، أي رئيس منيع أي مطاع في قومه.

وقال محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن محمد بن خيثم، عن محمد بن كعب، عن محمد بن خيثم، عن يزيد عن عمار بن ياسر قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: ((ألا أحدثك بأشقى الناس؟)).

قال: بلى.

قال: ((رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته)).

رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: 77]. فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: {وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَاْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} وفي آية {عَظِيمٌ} وفي الأخرى {الْيَمِّ} والكل حق.

والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقته، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال، والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكْدُوبٍ} [هود: 65] وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله، فعربها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسياقهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سفيها - وهو ولدها - شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات.

فلهذا قال لهم صالح: {تمتعوا في داركم ثلاثة أيام} أي: غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله، وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة.

{قَالُوا نَقَّاسُمَا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [النمل: 48].

أي: لنكبسه في داره مع أهله، فلنقتله ثم نجحدن قتله، وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه.

ولهذا قالوا: {هُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيَّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكِ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [النمل: 48].

وقال الله تعالى: {هُم مَّكْرُوهَا مَكْرًا وَمَكْرُوهَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ} [النمل: 50-53].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك نفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم، سلفاً وتعجيباً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة ووجوههم! محمرة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع، وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل.

فلما كان صبيحة يوم الأحد، تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب، والنكال، والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها، ولا حراك بها.

قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، واسمها كلبية - بنت السلق - ويقال لها: الذريعة، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأنت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت، وما حل بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى: {كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا} أي: لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء.

{أَلَا إِنَّ تُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتُمُودَ} [هود: 68] أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال:

((لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها.

وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله)).

فقالوا: من هو يا رسول الله؟

قال: ((هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)).

وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضاً: قال معمر، أخبرني إسماعيل بن أمية، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال: ((أندرون من هذا؟)).

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: ((هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسياهم، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن)).

قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة، عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال:

((إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف؛ وكان من ثمود؛ وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن)).

وهكذا رواه أبو داود، من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية.

قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم في رفعه، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه، والله أعلم.

قلت: لكن في المرسل الذي قبله، وفي حديث جابر أيضاً شاهد له، والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: 79] إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلثهم إلى غيرها قائلاً لهم:

{يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنتني، وحرصت على ذلك بقولي، وفعلي، ونيتي.

{وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق، ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم، المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة، ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة، والنصح لكم، قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أهل قليب بدر، بعد ثلاث ليال وقف عليهم، وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال:

((يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً)).

وقال لهم فيما قال: ((بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتوني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتوني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم)).

فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا؟

فقال: ((والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون)).

وسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

ويقال: إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بوادي عسفان حين حج قال:

((يا أبا بكر أي واد هذا؟))

قال: وادي عسفان.

قال: ((لقد مر به هود وصالح عليهما السلام، على بكرات خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق)) إسناده حسن.

وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني، وفيه نوح، وهود، وإبراهيم.

مرور النبي بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال:

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الأبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال:

((إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر:

((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم)).

أخرجه في (الصحيحين) من غير وجه.

وفي بعض الروايات: أنه عليه السلام لما مر بمنزلهم، قطع رأسه، وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم، إلا أن تكونوا باكين.

وفي رواية: ((فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم)) صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هرون، حدثنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري، عن أبيه - واسمه عمرو بن سعد، ويقال: عامر بن سعد رضي الله عنه قال:

لما كان في غزوة تبوك، فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى في الناس الصلاة جامعة، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعيره، وهو يقول:

((ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم)).

فناداه رجل تعجب منهم يا رسول الله؟

قال: ((أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك، رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاباً بعبادكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً)).

إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر، فتخرب قبل موت الواحد منهم، ففتحوا لهم بيوتاً في الجبال. وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سأله آية، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة، أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها، ويكون سبب هلاكهم ذلك.

وذكر لهم صفة عاقرها، وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه، فكانوا على ذلك دهرًا طويلاً وانقرض جيل، وأتى جيل آخر.

فلما كان في بعض الأعصار، خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة، فزوجه، فولد بينهما عاقر الناقة، وهو قدار بن سالف، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبيه وجديه فيهم، فنشأ نشأة سريعة، فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم، رئيساً بينهم.

فسولت له نفسه عقر الناقة، واتبعه على ذلك ثمانية من أشرفهم، وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام. فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة، وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام، جاءهم باكيّاً عليها، فتلقوه يعتذرون إليه، ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملامنا، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا.

فيقال: إنه أمرهم باستدراك سقبتها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها، فذهبوا وراءه، فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه، تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحاً عليه السلام، ودعا ثلاث، فعندها قال صالح:

تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب، وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً، ثم تحمر وجوههم في الثاني، وفي اليوم الثالث تسود وجوههم، فلما كان في اليوم الرابع، أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وفي بعض هذا السياق نظر، ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم، كما قدمنا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

قصة إبراهيم خليل الرحمن

هو إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروخ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكره من المدد، وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من (تاريخه)، عن إسحاق بن بشر الكاهلي، صاحب كتاب (المبتدأ) أن اسم أم إبراهيم أميلة، ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة.

وقال الكلبي: اسمها بونا بنت كربنا بن كرثي من بني أرفخشذ بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان. قالوا: ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة، ولد له إبراهيم عليه السلام، وناحور، وهاران.

وولد لهاران: لوط. وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط. وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار.

وصح ذلك الحافظ ابن عساكر، بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، في قرية يقال لها: برزة، في جبل يقال له: قاسيون. ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معيناً للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور ملكا ابنة هاران، يعنون بابنة أخيه.

قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران فمات فيها تارخ، وله مائتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل وما والاها.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل بكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً، سوى إبراهيم الخليل، وامرأته، وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذة خليلاً في كبره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51] أي كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِرُوا لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْتَاناً وَمَخْلُوفُونَ إِفْكَاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْتَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 16-27].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْإِلَهِيِّ يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَتِكَ وَأَهْرَجْتَنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [مريم: 41-48].

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاوراة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألف عبارات، وأحسن إشارة، بيّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئاً، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟

ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى، والعلم النافع، وإن كان أصغر سناً من أبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ أي: مستقيماً، واضحاً، سهلاً، حنيفاً، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخرائك، فلما عرض هذا الرشده عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْإِلَهِيِّ يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَتِكَ﴾ قيل بالمقال، وقيل بالفعال.

﴿وَأَهْرَجْتَنِي مَلِيّاً﴾ أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: لا يصلحك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ قال ابن عباس وغيره: أي لطيفاً يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له.

قيل: هو الزهرة لذلك، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرة، مسيرة مقدره مربوبة.

كما قال تعالى: {هُم مِّنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: 37] ولهذا قال: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً} أي طالعة. {قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ أِنِّي بُرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِنْ أَنُوشَاءُ رَبِّي شَيْئًا...} [الأنعام: 8078-] أي: لست أبا لي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة ومسخرة كالكوكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران، فإنهم كان يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً. كما ذكره ابن إسحق وغيره. وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق.

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم، وأهانها وبين بطلانها، كما قال تعالى: {هُوَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ} [العنكبوت: 25].

وقال في سورة الأنبياء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنثُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِذَا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَرْسُدُونَ * قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * فَلَمَّا يَنَارٌ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِسِرِينَ} [الأنبياء: 51-70].

وقال في سورة الشعراء: {هُوَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين * وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِين * وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِين * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: 83-69].

وقال تعالى في سورة الصافات:

{وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتُفَكِّكُم آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُم لَّا تَنْظُرُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} [الصافات: 83-98].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان، وحرقها عندهم وصغرها وتنقصها، فقال: {هُمَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} أي: معتكفون عندها وخاضعون لها.

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ} ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

{قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنثُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأنبياء: 52]

كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أُنْفِكَا إِلَهَةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقبتموه وقد عبدتم غيره؟

وقال لهم: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} سلموا له أنها لا تسمع داعياً، ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال.

ولهذا قال لهم: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام، لأنه تبرأ منها وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه.

{قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ} يقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا، وتنقص به آلهتنا، وتطعن بسببه في آباؤنا تقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً؟

{قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} يعني: بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً، وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء، فاطر السماوات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: {هُوَ تَالِيهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} أقسم ليكيدين هذه الأصنام التي يعبدونها، بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه، وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره فقال: إني سقيم.

كما قال تعالى: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي تستحق أن تكسر، وأن تهان غاية الإهانة، فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم، راغ إلى آلهتهم، أي: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً، فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها.

فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: {أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَّا تَنْطُقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ} لأنها أقوى وأبطش، وأسرع وأقهر، فكسرها بقدم في يده كما قال تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُودًا} أي: حطاماً، كسرها كلها.

{إِنَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} قيل: إنه وضع القدم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم، وقلة عقلهم، وكثرة ضلالهم وخبالهم: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} أي: يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها، فهو المقيم عليها والكاسر لها.

وعلى قول ابن مسعود: أي يذكرهم بقوله وتآله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين

{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} أي: في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد، لعلمهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَرَ النَّاسُ ضُحَىٰ} [طه: 59].

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا، {قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا..} قيل معناه: هو الحامل لي على تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول: {فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ} [الأنبياء: 62-63]

وإنما أراد بقوله هذا، أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

{فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ} أي: فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، أي: في تركها لا حافظ لها، ولا حارس عندها.

{ثُمَّ نَكُسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ} قال السدي: أي ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: إنكم أنتم الظالمون، أي: في عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي: فأطرقوا ثم قالوا: {هَلْ فَعَلْتُ مَا هُوَ لَاءِ يَنْطُقُونَ} أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: 66-67]

كما قال: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ} قال مجاهد: يسرعون.

قال: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} أي: كيف تعبدون أصناماً أنتم تتحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} وسواء كانت ما: مصدرية، أو بمعنى الذي، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون. وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

{قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} [الصفافات: 97-98] عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلّبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته، ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * فَلَمَّا يَأْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} [الأنبياء: 68-70].

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له هزن، وكان أول من صنع المجانيق فحسب الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك، فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً، ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار. وقالها محمد حين قيل له: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} * فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ {الآية} [آل عمران: 173-174]

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر الرازي، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم:

((لما ألقى إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك)).

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس، وسعيد بن جببر أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع. {فَلَمَّا يَأْتِرُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: 69].

قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: {مَوْسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} لأذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم يحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السدي: كان معه أيضاً ملك الظل، وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله النار، وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم، فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر، عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادت: يا بني إنني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينحيني من حر النار حولك، فقال: نعم. فأقبلت إليه لا يمسه شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته، ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها، صلوات الله وسلامه عليه.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فأنصعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا، قال الله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} وفي الآية الأخرى {الأسفلين} ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هي كما قال تعالى: {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}.

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن موسى، أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج، عن عبد الحميد بن جببر، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ، وقال: ((وكان ينفخ على إبراهيم)).

ورواه مسلم من حديث ابن جريج. وأخرجاه والنسائي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة كلاهما عن عبد الحميد بن جببر بن شيبه به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية، أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره، أن عائشة أخبرته، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم)) قال: فكانت عائشة تقتلن.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: تقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه)).

تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جرير، حدثنا نافع، حدثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاع تقتلن به، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا:

((أن إبراهيم حين ألقى في النار، لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ، كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله)).

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن جرير بن حازم به.

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من ادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه السلام دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. قاله مجاهد.

وقال غيره: نمرود بن فالج بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر، وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمئة سنة، وكان قد طغأ وبغى، وتجر وعتا، وأثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال، على إنكار الصانع، فحاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت.

قال قتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلها، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيى هذا، وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشييب محض، وهو انقطاع في الحقيقة.

فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، هذا دليل على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده، ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب، والرياح، والسحاب، والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إماتها. ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

فقول هذا الملك الجاهل: أنا أحيي وأميت، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس، ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: هذه الشمس مسخرة، كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما

زعمت من أنك الذي تحي وتميت، فات بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت.

وأنت تعلم وكل أحد، أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة، أو تنصر منها، فبئس ضلاله، وجهله، وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه، وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال: {قُبِّهْتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة، كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم، أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام.

فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب؛ فملاً منه عدليه، وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء، فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين، فوجدتهما ملأين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً.

فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعرف أنه رزق رزقه موه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً، يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم الثالثة فأبى عليه. وقال:

اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه، وجنوده، وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم، وتركتهم عظاماً بادية.

ودخلت واحدة منها في منخر الملك، فمكثت في منخره أربعمئة سنة، عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها.

هجرة الخليل إلى بلاد الشام، ثم الديار المصرية، واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله: {فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [العنكبوت: 26 - 27].

وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} [الأنبياء: 71-73].

لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن أزر، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

فكل نبي بُعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده، وأهله، وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل، ودعوة الخلق إليه.

والأرض التي قصدتها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عز وجل: {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا

قاله أبي بن كعب، وأبو العالية، وقتادة، وغيرهم.

وروى العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

وزعم كعب الأحبار أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه ملكا، فنزلوا حران، فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبلاً الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها. رواه ابن جرير وهو غريب.

والمشهور أنها ابنت عمه هاران، الذي تنسب إليه حران، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، كما حكاه السهيلي عن القتيبي، والنقاش، فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً، فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود، فإن الأنبياء لا تتعاطاه، والله أعلم.

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل، خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم، والله أعلم.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام، أوحى الله إليه إنني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس.

ثم انطلق مرتحلاً إلى التيمن، وأنه كان جوع، أي قحط، وشدة، وغلاء، فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولي أنا أخته، وذكروا خدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها، فرجعوا إلى بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها، ومعه دواب، وعبيد، وأموال.

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة، قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾

وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، وسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألتني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك.

فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده مهيم فقالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء. تفرد به من هذا الوجه موقوفاً.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن علي الفلاس، عن عبد الوهاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله:

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾.

وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار فقيل له: إنه قد نزل ههنا رجل، معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: إنها أختي.

فلما رجع إليها قال: إن هذا سألني عنك، فقلت إنك أختي، وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي فلا تكذبيني عنده، فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأرسل ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه فقال:

إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فجاءت وإبراهيم قائم يصلي، فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم. فقالت: كفى الله كيد الظالم، وأخدمني هاجر.

وأخرجاه من حديث هشام.

ثم قال البزار: لا نعلم أسنده عن محمد، عن أبي هريرة، إلا هشام. ورواه غيره موقوفاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، عن ورقاء هو ابن عمر الشكري، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، قوله حين دعى إلى آلهتهم.

فقال: {إِنِّي سَقِيمٌ}.

وقوله: هَبْلٌ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا.

وقوله لسارة أنها أختي، قال ودخل إبراهيم قرية، فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك؟

قال: أختي. قال فأرسل بها.

قال فأرسل بها إليه وقال: لا تكذبي قولي، فإنني قد أخبرته أنك أختي، إنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك، وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر. قال فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد، قال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، أنها قالت: اللهم إن يميت يقال هي قتلتها، قال فأرسل، قال ثم قام إليها، قال فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر، قال فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، أنها قالت: اللهم إن يميت يقال هي قتلتها، قال فأرسل، قال ثم قام إليها، قال: فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر، قال فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد، وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يميت يقال هي قتلتها، قال فأرسل، قال فقال في الثالثة، أو الرابعة، ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، أرجعوا إلي إبراهيم، وأعطوها هاجر، قال فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله ردَّ كيد الكافرين، وأخدم وليدة.

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط الصحيح.

وقد رواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم به مختصراً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((في كلمات إبراهيم الثالث التي قال، ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله، فقال إني سقيم، وقال بل فعله كبيرهم هذا، وقال للملك حين أراد امرأته هي أختي.

فقوله في الحديث هي أختي، أي في دين الله.

وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا، لأن لوطاً كان معهم، وهو نبي عليه السلام.

وقوله لها لما رجعت إليه مهيم، معناه ما الخبر، فقالت: إن الله رد كيد الكافرين)).

وفي رواية الفاجر وهو الملك، وأخدم جارية.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك، قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضاً، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها، وصلاتها، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم، ولهذا قال تعالى: هُوَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [البقرة: 45] فعصمها الله، وصانها لعصمة عبده، ورسوله، وحببيه، وخليئه، إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها رضي الله عنها، والله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ، أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر.

ويقال: كان اسمه سنان بن علوان، بن عبيد، بن عويج، بن عملاق، بن لاود، بن سام، بن نوح.

وذكر ابن هشام في (التيجان) أن الذي أراها عمرو بن امرئ القيس، بن مايلون، بن سبأ، وكان على مصر. نقله السهيلي. فأنه أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمين، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام، وعبيد، ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك، إلى أرض الغور المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً، كفاراً، فجاراً.

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل، فأمره أن يمد بصره، وينظر شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً، ويشتره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت، ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية. يؤيد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها، ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها)).

قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام، فأسروه، وأخذوا أمواله، واستاقوا أنعامه، فلما بلغ أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً، وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقي دمشق، وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل، والله أعلم.

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين، خاضعين، واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة، وأن الله بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أمتي هذه، لعل الله يرزقني منها ولداً، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه.

قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها، وتعاضمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت، فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً.

وأمرها بالرجوع، وبشّرَها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله عز وجل على ذلك.

وهذه الإشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وأتاها الله من العلم النافع، والعمل الصالح، ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، وبمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام، قالوا: وولدتها لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة.

ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر الله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه، وكثرت، ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم.

وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً، هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((يكون اثنا عشر أميراً)).

ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي ما قال، قال: كلهم من قريش. أخرجاه في (الصحيحين).

وفي رواية: لا يزال هذا الأمر قائماً. وفي رواية: عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش. فهؤلاء:

منهم: الأئمة الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

ومنهم: عمر بن عبد العزيز أيضاً.

ومنهم: بعض بني العباس.

وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسفاً، بل لا بد من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة، الذين أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي، حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأحمد نار الفتنة، وسكن رحى الحروب بين المسلمين.

والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له، ولا عين، ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل، اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.

ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك، وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا، وليس معنا ما يكفيننا، فلم يجبها، فلما ألحَّت عليه وهو لا يجيبها قالت له: الله أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: فإذا لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب (النوادر) أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها، فتبر قسمها.

قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من تثقت أذنهما منهن، وأول من طولت ذيلها.

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبناءه البيت العتيق.

قال البخاري: قال عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبي شيبة - حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السختياني، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له: الله أمرك بهذا؟

قال: نعم.

قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دَرِيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يلتوي، أو قال: يتلطب، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه.

ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف نزعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((فلذلك سعى الناس بينهما)).

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم سمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تغور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم)).

أو قال: ((لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً)).

فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيت الله بيني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كذا، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاتفاً.

فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء.

فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء.

قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

فألقي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته فقالت: خرج بيتي لنا.

ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك أقرني عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟

فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبت عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج بيتي لنا.

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله.

فقال: ما طعامكم؟

قالت: اللحم.

قال: فما شرا بكم؟

قالت: الماء.

قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه))

قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأتنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير.

قال: فأوصاك بشيء؟

قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبيري نبلاً له تحت دوحه، قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد.

ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعيني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال:

فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

قال: وجعلا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

ثم قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الله بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

لما كان من إبراهيم وأهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، وذكر تمامه بنحو ما تقدم، وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات.

وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك، وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل، وكل من عنده من العبيد وغيرهم، فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال، كما هو مقرر في موضعه.

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدم)).

تابعه عبد الرحمن بن إسحاق، عن أبي الزناد.

وتابعه عجلان، عن أبي هريرة.

ورواه محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به.

وفي بعض الألفاظ: اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة، واختتن بالقدوم، والقدوم هو: الألة. وقيل: موضع، وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين، والله أعلم لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة)).

رواه ابن حبان في (صحيحه).

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح، وأنه إسماعيل، ولم يذكر في قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات، أولاهن: بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر إلى حين تزوجه، لا ينظر في حالهم.

وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم، وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة.

وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات، ومطرز بشيء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات.

قصة الذبيح

قال الله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ تَرَبَّيْتُمَا مُحْسِنِينَ وَظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مُبِينٍ} [الصافات: 99-113].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فبشره الله تعالى بغلام حلِيم، وهو إسماعيل عليه السلام، لأنه أول من ولد على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} أي: شب، وصار يسعى في مصالحه كأبيه.

قال مجاهد: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} أي: شب، وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده.

هذا وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: ((رؤيا الأنبياء وحي)).

قاله عبيد ابن عمير أيضاً، وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده، هذا الذي قد أفردته عن أمر ربه وهو بكره ووحيدته الذي ليس له غيره، أجاب ربه، وامتلأ أمره، وسارع إلى طاعته، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه، من أن يأخذه قسراً، ويذبحه قهراً.

{... قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى..} [الصفات: 102].

فيادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم، فقال: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد، ولرب العباد.

قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} قيل: أسلما، أي: استسلما لأمر الله، وعزما على ذلك.

وقيل: هذا من المقدم والمؤخر، والمعنى: تله للجبين، أي: ألقاه على وجهه.

قيل: أراد أن يذبحه من قفاه، لئلا يشاهده في حال ذبحه.

قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والضحاك.

وقيل: بل أضجعه كما تضع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصفاً بالأرض.

{وَأَسْلَمَا}: أي سمي إبراهيم، وكبير، وتشهد الولد للموت.

قال السدي وغيره: أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً. ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله عز وجل: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} أي: قد حصل المقصود من اختبارك، وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبدول للضيفان، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} أي: الاختبار الظاهر البين.

وقوله: {هُوَ قَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور: أنه كبش أبيض، أعين، أقرن، رآه مربوطاً بسمرة في ثبير.

قال الثوري: عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وقال سعيد بن جبيرة: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر.

وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير، كبش أعين، أقرن، له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم، فتقبل منه.

رواه ابن أبي حاتم.

قال مجاهد: فذبحه بمنى.

وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام.

فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلاً، وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى، واسمه جرير، فلا يكاد يصح عنهما. ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات. وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فدي بذبح عظيم. وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور عن خاله نافع، عن صفية بنت شيبة، قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة - وقال: مرة - إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: إني كنت رأيت قرني الكيش حين دخلت البيت، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما، فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي.

قال سفيان: لم تزل قرنا الكيش في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا.

وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكيش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس. وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان وهو المقيم بمكة، وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح، هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112].

ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو اسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه. فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده، وفي نسخة من المعربة بكره إسحاق، فلفظه إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز، الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل، الذين ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقرؤا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم.

وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأخبار، أو صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم، حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71].

قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق؟ وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ﴾ جملة تامة. وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة. قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر، فلا يجوز أن يقال: مررت بزید، ومن هو بعده عمرو، حتى يقال: ومن بعده بعمر.

وقال فقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب، وفي هذا الذي قاله نظر. ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ قال: وإسماعيل لم يكن عنده، إنما كان في حال صغره هو وأمه بحيال مكة، فكيف يبلغ معه السعي، وهذا أيضاً فيه نظر، لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه، ثم يرجع والله أعلم.

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق كعب الأخبار.

وروي عن عمر، والعباس، وعلي، وابن مسعود، ومسروق، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وعطاء، والشعبي، ومقاتل، وعبيد بن عمر، وأبي ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرري، والقاسم، وابن

أبي بردة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبي الهذيل، وابن سابط، وهو اختيار ابن جرير، وهذا عجب منه، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس.

ولكن الصحيح عنه، وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام.

قال مجاهد، وسعيد الشعبي، ويوسف بن مهران، وعطاء، وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن الذبيح، فقال: الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

قال ابن أبي حاتم: روي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جببر، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

وحكاه البيهقي أيضاً عن الربيع بن أنس، والكلبي، وأبي عمرو بن العلاء.

قلت: وروي عن معاوية وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز، ومحمد بن إسحاق بن يسار، وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا.

وقال محمد بن إسحاق: عن بريدة، عن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، وهو خليفة إذ كان معه بالشام، يعني استدلاله بقوله بعد العصمة {فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}.

فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت.

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم.

قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل. والله يا أمير المؤمنين. وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبائكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا (التفسير)، والله الحمد والمنة.

مولد اسحاق

قال الله تعالى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} [الصافات: 112-113].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَنِّيهِمْ لَا نَصِيلَ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأُوجِسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَصَحَّكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَإِذَا وَعَدَ وَعْدَ عَجُوذٍ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أُنْعِمِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} [هود: 69-73].

وقال تعالى: ﴿وَنَبَّأَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشْرُؤُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي * قَالُوا بِشَرِّنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِلِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 51-56].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 24-30].

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا، وكانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافاً فعاملهم معاملة الضيوف، شوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره، فلما قربته إليهم وعرض عليهم، لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام {تَكَرَّهُمْ} إبراهيم {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ {هُود: 70} أي: لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف، كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم.

فلما ضحكت استبشراً بذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بشرتها الملائكة بذلك {فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} أي: في صرخة {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} أي: كما يفعل النساء عند التعجب {يَاوَيْلَتَىٰ آلُؤُا أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} أي: كيف يلد مثلي، وأنا كبيرة وعقيم أيضاً، وهذا بعلي - أي زوجي - شيخاً تعجبت من وجود ولد والحالة هذه.

ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * أَنُعَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشراً بهذه البشارة، وتثبيناً لها، وفرحاً بها.

{قَالَ أَبَشْرُؤُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي * قَالُوا بِشَرِّنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِلِينَ} أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما {بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} وهو إسحاق، وأخوه اسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره. وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر.

وقال في الآية الأخرى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره، على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيد، وهو المشوي رغيفاً من مكة، فيه ثلاثة أكياس، وسمن، ولبن، وعندهم أنهم أكلوا. وهذا غلط محض.

وقيل: كانوا يودون أنهم يأكلون، والطعام يتلاشى في الهواء.

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا، ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها، وأعطيك منها ابناً وأباركه، ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه، فخر إبراهيم على وجهه - يعني ساجداً - وضحك قائلاً في نفسه أبعد مائة سنة يولد لي غلام، أو سارة تلد، وقد أتت عليها تسعون سنة.

وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك، فقال الله لإبراهيم: بحقي إن امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل، وأوثقه ميثاقاً إلى الدهر ولخلفه من بعده، وقد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم، وقد تكلمنا على هذا بما تقدم، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب، أي: يولد في حياتهما لتقر أعينهما به، كما قررت بولده.

ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب، وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عين بالذكر دل على أنهم يتمتعان به، ويسران بولده، كما سرا بمولد أبيه من قبله.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: 84].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: 49].

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي، ويؤيده ما ثبت في (الصحيحين) من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال:

قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟

قال: ((المسجد الحرام)).

قلت: ثم أي؟

قال: ((المسجد الأقصى)).

قلت: كم بينهما؟

قال: ((أربعون سنة)).

قلت: ثم أي؟

قال: ((ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد)).

وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله. وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو اسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء.

وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مَنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيِّ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41-35].

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس، سأل الله خلافاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: 35].

وكما سنورده في قصته، فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدّد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تفاسيمه وأنواعه، وهذا القول لم يوافق عليه، ولا سبق إليه.

بناء البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 26-27].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96-97].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْرَطُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسْ أَلْمَسِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لِّكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 124-129].

يذكر تعالى عن عبده، ورسوله، وصفيه، وخليه، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء إبراهيم عليه أفضل صلاة وتسليم، أنه بنى البيت العتيق، الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس، يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه، أي أرشده إليه، ودله عليه.

وقد روبنا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره، أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل، وقد قدمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السموات السبع.

كما قال بعض السلف: إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض، فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماء، وأرشدته الله إلى مكان البيت المهيأ له، المعين لذلك، منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في (الصحيحين):

((أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة)).

ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم، أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: مكان البيت، فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً، أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قررنا أنها لا تصدق، ولا تكذب، فلا يحتج بها، فأما إن ردها الحق فهي مردودة.

وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} أي: أول بيت وضع لعموم الناس للبركة، والهدى: البيت الذي ببكة. قيل: مكة، وقيل: محل الكعبة.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} أي: على أنه بناء الخليل والذ الأنبياء من بعده، وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به، ويتمسكون بسنته.

ولهذا قال: {مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} أي: الحجر الذي كان يقف عليه قائماً، لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور، ليرتفع عليه لما تعالى البناء، وعظم الفناء. كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل.

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده، الطائفين بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا، فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها:

في قوله لرسوله صلى الله عليه وسلم: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: 125] وقد كانت آثار قديمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام.

وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه * وراق لبر في حراء ونازل

وبالبيت حق البيت من بطن مكة * وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ مسحونه * إذا اكتفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة * على قدميه حافيا غير ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة، فصارت على قدر قدمه حافية لا متنقلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي: في حال قولهما:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة، والسعي المشكور ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْبِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع، في واد غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يزرقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار، والزرور والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً، وأما محتماً فاستجاب الله وله الحمد له مسألته، ولبى دعوته، وأناه طلبته.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 67].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: 57] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أي: من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة، لتتم عليهم نعمتان الدنيوية والدينية، سعادة الأولى والأخرى.

وقد استجاب الله له، فبعث فيهم رسولا، وأي رسول ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار، إلى يوم القيامة.

كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء، لشرفه في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقتة على أمته ولطفه ورحمته، وكريم محتده، وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحلّه وموضعه في منازل السموات، ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة، المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور.

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار، بما فيه كفاية، فمن أراد فليراجعه ثم والله الحمد.

فمن ذلك ما قال السدي: لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبني البيت، ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، وذلك حين يقول تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكُمْ آيَاتِنَا لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِنَا﴾ [البقرة: 248].

فلما بلغا القواعد بنيا الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا وقال: يا أبت إنني كسلان تعب. قال على ذلك فانطلق وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة، وكان آدم هبط به من الجنة، فاسودّ من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر، فوجده عند الركن.

فقال: يا أبتى من جاءك بهذا؟

قال: جاء به من هو أنشط منك، فبنيها وهما يدعوان الله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل، وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما بينانيه فقال: من أمركما بهذا؟

فقال إبراهيم: الله أمرنا به.

فقال: وما يدريني بما تقول؟

فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك، فأمن وصدق.

وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت. وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال، مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم.

وفي (الصحيحين) من حديث مالك عن ابن شهاب، عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر بن عمر عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ألم تري إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم)).

فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟

فقال: ((لولا حدثان قومك)).

وفي رواية ((لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر)).

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين، كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه.

فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط، وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي، وسدوا الغربي بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه، وما تولى من ذلك.

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور، استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير، فقال له: إنني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة - يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد - فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم.

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليته إبراهيم

قال الله: ﴿وَإِذِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124] لما وفي ما أمره ربه به من التكليف العظيمة، جعله للناس إماماً يقتدون به، ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه، فأجيب إلى ما سأل ورام. وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستثنى من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: 84-87].

فالضمير في قوله: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَائِدٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَشْهُورِ}.

ولوط وإن كان ابن أخيه، إلا أنه دخل في الذرية تغليبا، وهذا هو الحامل للقائل الآخر إن الضمير على نوح، كما قدمنا في قصته، والله أعلم.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: 26] الآية. فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل، فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سننية لا تضاهي، ومرتبة عليّة لا تباهي.

وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة. وولد لهذا يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة وكثروا جدا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم، واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعبسى بن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى. ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق، وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي، الهاشمي، المكي، ثم المدني، صلوات الله وسلامه عليه -

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة. وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال:

((سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم)).

فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا، ويوم يكشف عن ساق.

وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين ويقول:

((إن أبكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)).

ورواه أهل السنن من حديث منصور به.

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260].

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطانها في التفسير، وقررناها بآتم تقرير. والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور، واختلفوا في تعيينها على أقوال.

والمقصود حاصل على كل تقدير، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه في بعض، ثم يقسمه قسماً، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً.

ففعل ما أمر به، ثم أمر أن يدعوهم بإذن ربهن، فلما دعاهن، جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتي إلى أختها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون، فأتين إليه سعياً، ليكون أبين له، وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً.

ويقال إنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده، فجعل كل طائر يأتي فيلقي رأسه فيتربك على جثته كما كان، فلا إله إلا الله، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، علماً يقيناً لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله، وأعطاه غاية مأموله.

وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَذَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءَ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 65-68].

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبراه الله منهم، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلم في قوله: {وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} أي: فكيف يكون على دينكم، وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة؟.

ولهذا قال: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} إلى أن قال: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والإنحراف وعمداً عن الباطل، إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية.

كما قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَنْحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عُنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة: 130-140].

فنزّه الله عز وجل خليله عليه السلام، عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن من المشركين. ولهذا قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} [آل عمران: 68].

يعني الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه، ومن تمسك بدينه من بعدهم.

{وَهَذَا النَّبِيُّ} يعني: محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه لل خليل، وكمله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً قبله.

كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 161-163].

وقد قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: 120-123].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال:

((قاتلهم الله، والله إن يستقسما بالأزلام قط)).

لم يخرجهم مسلم، وفي بعض ألفاظ البخاري:

((قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط)).

فقوله: {أُمَّةٌ} أي: قذوة، إماماً، مهتدياً، داعياً إلى الخير، يقتدى به فيه.

{قَاتِنَا لِلَّهِ} أي: خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته، وسكناته.

{حَنِيْفًا} أي: مخلصاً على بصيرة. (ج/ص: 195 / 1)

{وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ} أي: قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله.

{اجْتَبَاهُ} أي: اختاره الله لنفسه، واصطفاه لرسالته، واتخذته خليلاً وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: 125] يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام، لأنه كان على الدين القويم، والصراف المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه تعالى بذلك فقال: {وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: 27] ولهذا اتخذ الله خليلاً، والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم.

قد تخللت مسلك الروح مني * وبذا سمي الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المنزلة، خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه، كما ثبت في (الصحيحين) وغيرهما من حديث جندب الجلي، وعبد الله بن عمرو، وابن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يا أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)).

وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها:

((أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله)).

أخرجه من حديث أبي سعيد، وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن مسعود.

وروى البخاري في (صحيحه): حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: {وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}.

فقال رجل من القوم: لقد قرئت عين أم إبراهيم.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة، حدثنا عبد الله الحنفي، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال:

جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله.

وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً.

وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته.

وقال آخر: آدم اصطفاه الله.

فخرج عليهم فسلم وقال:

((قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى كليمة وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا وإني حبيب الله ولا فخر، ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها، ومعني فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر)).

حديث غريب من هذا الوجه، وله شواهد من وجوه آخر، والله أعلم.

وروى الحاكم في (مستدرکه) من حديث قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتتكمرون أن تكون الخلعة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد المسلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن بشار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجع حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد، كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

وقال عبيد بن عمير: كان إبراهيم عليه السلام بضيف الناس، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً فقال: يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني؟

قال: دخلتها بإذن ربها.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذته خليلاً.

قال: من هو؟ فو الله إن أخبرتني به، ثم كان بأقصى البلاد لآتيته ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت.

قال: ذلك العبد أنت.

قال: أنا!

قال: نعم.

قال: فبم اتخذني ربي خليلاً؟

قال: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع، بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً، منها خمسة عشر في البقرة وحدها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى.

وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: 7].

وقوله: ﴿هَشَرَ عَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13] الآية.

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة، مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمير، عن أنس في حديث الإسراء من أن إبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة، فمما انتقد على شريك في هذا الحديث، والصحيح الأول.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن)).

تفرد به أحمد.

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى، الحديث الذي قال فيه:

((وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم)). رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله:

((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)).

ثم ذكر استشفاغ الناس بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول:

{أنا لها، أنا لها..} الحديث.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله، حدثني سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟

قال: ((أتقاهم)).

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: ((فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله)).

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: ((فعن معادن العرب تسألوني، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)).

وهكذا رواه البخاري في مواضع آخر، ومسلم، والنسائي من طريق عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به.

ثم قال البخاري: قال أبو أسامة ومعتز عن عبيد الله، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت: وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما، وحديث عبدة بن سليمان، والنسائي من حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله)).

تفرد به أحمد.

وقال البخاري: حدثنا عبدة، حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم)).

تقرّد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر به.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني مغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((يحثر الناس حفاة عراة غرلاً، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: 104])).

فأخرجاه في (الصحيحين) من حديث سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها، مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغيظه به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وأبو نعيم، حدثنا سفيان - هو الثوري - عن مختار بن فلفل، عن أنس بن مالك قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا خير البرية، فقال:

((ذاك إبراهيم)).

فقد رواه مسلم من حديث الثوري، وعبد الله بن إدريس، وعلي بن مسهر، ومحمد بن فضيل أربعتهم، عن المختار بن فلفل.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام، كما قال:

((لا تفضلوني على الأنبياء)).

وقال: ((لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور؟)).

وهذا كله لا ينافي في ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه، من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم:

((وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم)).

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل، وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في (الصحيحين) من حديث كعب بن عجرة وغيره قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟

قال: ((قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد)).

وقال تعالى: ﴿وإبراهيمَ الَّذِي وَفَى﴾ [النجم: 37].

قالوا: وفي جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124].

قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد.

في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس.

وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء. رواه ابن أبي حاتم.

وقال: وروى عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وأبي صالح، وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((الفطرة خمس: الختان، والاستحدا، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط)).

وفي صحيح مسلم، وأهل السنن، من حديث وكع، عن ذكريا بن أبي زائدة، عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحنبلية، عن طلق بن حبيب العتري، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء)).

يعني الاستنجاء. وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل، وخشوع العبادة العظيمة، عن مراعات مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين من زيادة شعر، أو ظفر، أو وجود قلع، أو وسخ، فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

قصه في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي، ومحمد بن موسى القطان، قالوا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن في الجنة قصرًا أحسبه قال من لؤلؤة، ليس فيه فصم ولا وهي، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلًا)).

قال البزار: وحدثناه أحمد بن جميل المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة، فأسنده إلا يزيد بن هارون، والنضر بن شميل، وغيرهما برويه موقوفًا. قلت: لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح، ولم يخرجوه.

صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس وحجين قالوا: حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عرض علي الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية)).

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وبهذا اللفظ.

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عمرو، حدثنا إسرائيل، عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((رأيت عيسى بن مريم، وموسى، وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فأدم جسيم)).

قالوا له: فأبراهيم؟

قال: ((انظروا إلى صاحبكم)) يعني نفسه.

وقال البخاري: حدثنا بنان بن عمرو، حدثنا النضر، أنبأنا ابن عون، عن مجاهد، أنه سمع ابن عباس، وذكروا له الدجال بين عينيه كافراً و (ك ف ر) فقال: لم أسمعه، ولكنه قال صلى الله عليه وسلم:

((أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبه، كأنني أنظر إليه انحدر في الوادي)).

ورواه البخاري أيضاً، ومسلم عن محمد بن المثني، عن ابن أبي عدي، عن عبد الله بن عون به.

وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحج، وفي اللباس، ومسلم جميعاً عن محمد بن المثني، عن ابن أبي عدي، عن عبد الله بن عون به.

وفاة إبراهيم وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه، أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان، وهو فيما قيل الضحاك الملك المشهور، الذي يقال: إنه ملك ألف سنة، وكان في غاية الغشم والظلم.

وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا.

وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان، وفزع النمرود. فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك، فقالوا: يولد مولود في رعيته يكون زوال ملكك على يديه، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين.

فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين، فحماه الله عز وجل، وصانه من كيد الفجار، وشب شباباً باهراً، وأنبتته الله نباتاً حسناً، حتى كان من أمره ما تقدم، وكان مولده بالسوس، وقيل: ببابل. وقيل: بالسواد من ناحية كوثي.

وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق، فلما أهلك الله نمرود على يديه، وهاجر إلى حران، ثم إلى أرض الشام، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا، وولد له إسماعيل وإسحاق.

وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة، فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام، ورثاها رحمها الله، واشترى من رجل من بني حيث، يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك.

قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق، فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح، وبعث مولاه فحملها من بلادها، ومعها مرضعتها وجوارها على الإبل.

قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا، فولدت له: زمران، ويقشان، ومادان، ومدين، وشياق، وشوح. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة، الله أعلم بصحتها.

وقد قيل: إنه مات فجأة، وكذا داود، وسليمان، والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائة وخمس وسبعين، وقيل: وتسعين سنة، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتي سنة، كما قاله ابن الكلبي.

وقال أبو حاتم بن حبان في (صحيحه): أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة، حدثنا علي بن زياد اللخمي، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة)).

وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم، وجعفر بن عون العمري، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد عن أبي هريرة موقوفاً.

ثم قال ابن حبان ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد نيسب، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، واختتن بالقدوم)).

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ((وقد أتت عليه ثمانون سنة)).

ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية، قلت الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة. وفي رواية: وهو ابن ثمانين سنة، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك، والله أعلم.

وقال محمد بن اسماعيل الحساني الواسطي زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات: حدثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: كان إبراهيم أول من تسرول، وأول من فرق، وأول من استحد، وأول من اختتن بالقدوم، وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قرى الضيف، وأول من شاب.

هكذا رواه موقوفاً، وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان، والله أعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه، وأول الناس رأى الشيب.

فقال يا رب: ما هذا؟

فقال الله تبارك و تعالی: ((وقار یا ابراهیم)).

فقال یا رب: زدني وقاراً.

وزاد غيرهما: وأول من قص شاربه، وأول من استحد، وأول من لبس السراويل. فقبره، وقبر ولده إسحاق، وقبر ولد ولده يعقوب، في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم، وهذا تلقي بالتواتر أمة بعد أمة، وجيل بعد جيل، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا، أن قبره بالمربعة تحقيقاً.

فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم، فينبغي أن تراعي تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل، وأن تجل أن يداس في أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه، قال: وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة:

إلهي جهولاً أمله * يموت من جا أجله

ومن دنا من حنقه * لم تغن عنه حيله

وكيف يبقى آخر * من مات عنه أوله

والمرء لا يصحبه * في القبر إلا عمله

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يسم السادس. ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين، فولدت له خمسة: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والاعلام).

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة، قصة قوم لوط عليه السلام، وما حل بهم من النعمة الغيمية، وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهو أزر كما تقدم، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور أخوة كما قدمنا.

ويقال: إن هاران هذا هو الذي بنى حران، وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب، والله أعلم.

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام، بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكان أم تلك المحلة، ولها أرض ومعتلات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوأهم طوية، وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبس ما كانوا يفعلون.

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبجات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلداهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

مُسْرُفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِطُوهَا * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ { [الأعراف: 80-84].

وقال تعالى في سورة هود: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لِيثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَّا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَّا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَابْتَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ * }

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَلَيْدُ وَآنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتِ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَن لِي بَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ * مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعِيدٍ { [هود: 69-83].

وقال تعالى في سورة الحجر:

{وَتَبَّاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَّا تَوْجَلْ إِنَّا نَبَسِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَسَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبْرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِئِينَ * قَالَ وَمَنْ يَفْتِنُكَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ *

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حِينًا تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هُوَلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هُوَلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُسْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَاتَّبِعْنَا لَبِيسِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ { [الحجر: 51-77].

وقال تعالى في سورة الشعراء:

{وَكَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ أَنْزَالِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَجَعَلْنَا هُوَلَاءَ أَجْمَعِينَ * إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ { [الشعراء: 160-175].

وقال تعالى في سورة النمل:

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِطُوهَا * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا هِيَ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ { [النمل: 54-58]. (ج/ص: 1/ 205)

وقال تعالى في سورة العنكبوت:

{لوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أتيتكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتينا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرتني على قوم الفاسقين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تحف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسون * ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون} [العنكبوت: 28-35].

وقال تعالى في سورة الصافات:

{إِنَّ لوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِذْ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ} [الصافات: 133-138].

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بسلام عليم:

{قال: قالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [الذاريات: 31-37].

وقال في سورة الانشقاق:

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لوطٍ بِالَّذُرِّ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 33-40].

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السورة في التفسير، وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع آخر من القرآن، تقدم ذكرها مع قوم نوح، و عاد، و ثمود، والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحل الله بهم، مجموعاً من الآيات والآثار، وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم، وهما بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، واستضعفوه وكثروا منه.

وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: {أَخْرَجُوا آلَ لوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ} [النمل: 56].

فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقاتلتهم هذه إلا العناد واللجاج، فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج.

وما كان هذا جوابهم إلا لماً نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا، ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال، على اختلاف أصنافه.

حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل، ولا يستنكفون ولا يروعون لوعظ واعظ، ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وببلاً.

وقالوا له فيما قالوا: {اِئْتِنَا بَعْدَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين، وإله المرسلين، أن ينصره على القوم المفسدين، فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم، وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم، والخطب العميم.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [الذاريات: 31-34].

وقال: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِنَّا أَمْرًا تُكَانِتُ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِنَّا أَمْرًا تُكَانِتُ مِنَ الْغَابِرِينَ} [العنكبوت: 31-33].

وقال الله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: 74] وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا، ويقنعوا ويرجعوا. ولهذا قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: 75].

أي: أعرض عن هذا، وتكلم في غيره، فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم.

{إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ} أي: قد أمر به من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه. وإنهم آتاهم عذاب غير مردود.

وذكر سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: فماتنا مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: فأربعون مؤمنا؟

قالوا: لا.

قال: فأربعة عشر مؤمنا؟

قالوا: لا.

قال ابن إسحاق: إلى أن قال أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟

قالوا: لا. {قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا} الآية [العنكبوت: 32].

وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً؟

فقال الله: لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً، ثم تنازل إلى عشرة فقال الله: لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون.

قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}. [هود: 77]

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم، وهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، في صور شبان حسان، اختبأوا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيفهم، يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، وسيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعتة الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحى منهم، وانطلق أمامهم، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلون في غيرها.

فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبت من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى ريثا، والصغرى ذعرتا.

فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟

فقال لهم: مكانكم، لا تدخلوا حتى أتاكم، فرقت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا أبتاه أراذك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم فلم يعلم أحداً إلا أهل البيت.

فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجلاً، ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه.

وقوله: {وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 78] أي: هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة، الكبيرة، الكثيرة.

{قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} يرشدهم إلى غشيان نساءهم، وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث، وكما قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: 6].

وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم.

وهذا كقوله: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: 165-166].

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبیر، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق وهو الصواب. (ج/ص: 208 / 1)

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم، كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده. وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً.

وقوله: {هَفَاتُوا اللَّهَ وَلَمْ تُحْزِرُوا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: 78] نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة، ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء.

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه، من قبل أن يسألوه عنه. فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد. مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر الشديد: قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ} [هود: 79].

يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نساتنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا من غير النساء. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذي العذاب الأليم.

ولهذا قال عليه السلام: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: 80] ود أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقد قال الزهري، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعاً:

نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي.

ورواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة.

وقال محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه)).

وقال تعالى: {وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيِّفِي فَمَا تَفْضَحُونَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَكُلُوا خُبُزُونَ * قَالُوا أَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ} [الحجر: 67-71].

فأمرهم بقربان نساتهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم، وسياتهم هذا، وهم في ذلك لا ينتهون ولا يراعون، بل كلما لهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون. ولم يعلموا ما حمَّ به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون.

ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ} [القمر: 36-38]

ذكر المفسرون وغيرهم، أن نبي الله لوطاً عليه السلام، جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في إلحاح وإلجاج، فلما ضاق الأمر، وعسر الحال قال ما قال: {لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد} لأحلت بكم النكال.

قالت الملائكة: {قَالُوا يَا لَوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ} وذكروا أن جبريل عليه السلام حرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل، ولا عين، ولا أثر، فرجعوا يتجسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ} [القمر: 37-38] فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام، أمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل، ولا يلتفت منكم أحد، يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقاة لهم.

وقوله: {إِنَّا أَمْرًا تُكِّفُ} على قراءة النصب:

يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: {فَأَسْرُ بِأَهْلِكَ} كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها.

ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَوِيَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ [هود: 81] أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال السهيلي: واسم امرأة لوط: والهة، واسم امرأة نوح: والعة. وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين، النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81].

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله - وهم ابنتاه - ولم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه فانه أعلم. فلما خلصوا من بلادهم، وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد. ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك، فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم، فقالوا: اذهب فإننا ننتظرك حتى تصير إليها، وتستقر فيها، ثم نحل بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس غور زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ امْرَأَتَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: 82-83].

قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن، وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربع مائة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم، ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها.

قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ والسجيل: فارسي معرب، وهو: الشديد الصلب القوي.

﴿مَنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء.

﴿مُسَوِّمَةً﴾ أي: معلمة، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه.

كما قال: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: 34].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 173].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: 35-54] يعني: قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاهها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة، مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلادهم، والغائبين عنها من المسافرين، والنازحين، والشاذين منها.

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبناتها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، والتفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها، وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

كما قال تعالى: ﴿حُضِرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحَ وَامْرَأَةٌ لُوطُ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحریم: 10] أي: خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه.

وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة، حاشا وكلا ولما. فإن الله لا يقدر على نبي أن تبغى امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً.

قال الله تعالى في قصة الإفك، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فعاتب الله المؤمنين، وأنب وزجر، ووعظ وحذر، وقال فيما قال:

{إِذْ تَقَوُّنَهُ بِأَسِنَّتِكُمْ وَمَقُولِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّبًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} [النور: 15-16] أي: سبحانه أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله ههنا: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ} أي: وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم. ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللانط يرجم سواء كان محصناً أو لا. نصَّ عليه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)).

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللانط يلقي من شاهق جبل، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ}.

وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة، لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين، في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم الظلمات إلى النور.

كما قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: 8-9].

وقال تعالى: {فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 73-77].

أي: من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت أهلة عامرة. هالكة غامرة؟

كما روى الترمذي، وغيره مرفوعاً:

((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}))

وقوله: {وَأَنَّهَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} أي: لبطريق مهيع، مسلك إلى الآن.

كما قالوا: {لَتَمُرُّنَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تَعْقِلُونَ} [الصافات: 137].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: 35].

وقال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [الذاريات: 35-37].

أي: تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشى الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله، وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم * فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب، الخائف من ربه الفاهم، يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله، من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السرايري ذوات الجمال. وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعَةٍ}

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأُصْحَابُ الْمِكْيَالِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا} [الأعراف: 85-95].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأُصْحَابُ الْمِكْيَالِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا} [هود: 84-95].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً: {وَأَنذَرْنَا قُرُونَهُمْ أَن مَلَأْنَا مِحْرَابَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْكُ إِلَىٰ آلِهِ فَتَجَسَّوْا بِهِ وَأَيَّدْتُمُ النَّاصِرِينَ} [الحجر: 78-79].

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأُصْحَابُ الْمِكْيَالِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَالذَّكِرَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا} [الشعراء: 176-191].

كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان، من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة. وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل.

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن، ذكره ابن إسحاق قال: ويقال له بالسريانية: بنزون، وفي هذا نظر.

ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب.

ويقال: شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم.

ويقال: شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم.

وقيل غير ذلك في نسبه.

قال ابن عساکر: ويقال جدته، ويقال أمه: بنت لوط.

وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه، ودخل معه دمشق.

وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة. وفي هذا كله نظر أيضاً، والله أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) في ترجمة سلمة بن سعد العنزي أنه: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وانتسب إلى عنزة فقال:

((نعم الحي عنزة مبغي عليهم، منصورون قوم شعيب وأختان موسى)).

فلو صح هذا لدل على أن شعيباً من موسى، وأنه من قبيلة من العرب العاربة، يقال لهم: عنزة، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل، والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسول قال:

((أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر)) وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعلو عبارته، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى ابن إسحاق بن بشر، عن جويبر، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيباً قال:

((ذاك خطيب الأنبياء)).

وكان أهل مدين كفاراً، يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيكة، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوء الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، من بخرس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [الأعراف: 85] أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جنتكم به، وإنه أرسلني. وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تتقل إلينا تفصيلاً، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً.

هَفَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا [الأعراف: 86] أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ أُي: طريق.

هَتَّوَعِدُونَ} أي: تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل.

قال السدي في (تفسيره) عن الصحابة: هَتَّوَعِدُونَ بِكُلِّ صِرَاطٍ تَوَعِدُونَ} أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

وقال إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كانوا قوماً طغاهً بناهً يجلسون على الطريق، يبخسون الناس: يعني يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك.

هَوَصَّدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبَّعُونَهَا عَوْجًا [الأعراف: 86] فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

هَوَادَّكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم، في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه، ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى: هَتَّنَفَّصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [هود: 84]. (ج/ص: 1/215)

أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمتروا فيه، فيمحق الله بركة ما في أيديكم، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة. فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في آخراهم، وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم أمراً بعدما كان عن ضده زاجراً: هَوَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}.

قال ابن عباس، والحسن البصري: هَبَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ} أي: رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير: ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان، خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

قال: وقد روي هذا عن ابن عباس، وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبيهه بقوله تعالى: هَقُلْ لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [المائدة: 100] يعني أن القليل من الحلال، خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام محقق وإن كثر.

كما قال تعالى: هَبِمَحَقُّ اللَّهِ الرَّبَّاءَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ} [البقرة: 276].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل)).

رواه أحمد. أي: إلى قلة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)).

والمقصود: أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي وإن كثر.

ولهذا قال نبي الله شعيب: هَبَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

وقوله: هُوَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} أي: افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله، ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري.

{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: 87].

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهمك، أصلاتك هذه التي تصلبها هي الأمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك، ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون، وأسلافنا الأولون. أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأباها، وإن كنا نحن نرضاها؟

{إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج، وزيد بن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

{قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: 88].

هذا تल्प معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة، يقول لهم: {أَرَأَيْتُمْ} أيها المكذوبون {إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم.

{وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا} يعني النبوة والرسالة، يعني وعمى عليكم معرفتها فأبي حيلة لي بكم. وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء.

وقوله: هُوَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} أي: لست أمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه، وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون.

قال الله تعالى: {اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَنَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44] وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه - أي تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟

فيقول: بلى كنت أمر بالمعروف ولا أتبه، وأنهى عن المنكر وأتبه)).

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: هُوَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ} أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال، بجهدى وطاقتي.

{وَمَا تَوْفِيقِي} أي: في جميع أحوالي.

{إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي: عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري، وهذا مقام ترغيب. ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: هُوَيَا قَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِيَعِيدٍ}.

أي: لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جننتم به، على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرانكم وأشباهمكم، من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، من المكذبين المخالفين.

وقوله: {صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ}.

قيل: معناه في الزمان، أي ما بالعهد من قدم، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل: معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان.

وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً، ولا مكاناً، ولا صفاتٍ.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: أقبلوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود: وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثوري أنهم قالوا: كان ضرير البصر.

وقد روي في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره، وقال: يا شعيب أتبكي خوفاً من النار، أو من شوقك إلى الجنة؟

فقال: بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي.

فأوحى الله إليه هنيئاً لك يا شعيب لقائي، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليماً.

رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي، عن علي بن الحسن بن بندار، عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق التريلي، عن هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عباس، عن يحيى بن سعيد، عن شداد بن أمين، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه. وهو غريب جداً، وقد ضعفه الخطيب البغدادي.

وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91] وهذا من كفرهم بالبلغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمه ولا نعلمه لأننا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه، ولا إقبال عليه.

وهو كما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 5].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مضطهداً مهجوراً.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قبيلتك وعشيرتك فينا.

﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعونني بسببهم، ولا تخافون جنبه الله، ولا ترعونني لأنني رسول الله، فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿وَآتَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أي: جانب الله وراء ظهوركم.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذابٌ يُخزيه ومن هو كاذبٌ وارتقبوا إني معكم رقيبٌ وهذا أمر تهديد شديد، ووعد أكيد، بأن يستمروا على طريقته ومنهجهم، وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار.

هَمَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي: في هذه الحياة الدنيا.

هُوَ يَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌّ} [الزمر: 40] أي: في الآخرة.

هُوَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ} أي: مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحنر.

هُوَ ارْتَقَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}.

وهذا كقوله: {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنُعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِنْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: 87-89].

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: {أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطراراً مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطه بشاشة القلوب، لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: {قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِنْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} أي: فهو كافينا، وهو العاصم لنا، وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليه في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: {افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} أي: الحاكمين، فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه.

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف: 90].

قال الله تعالى: {فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: 91].

ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أي: رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخدمت الأصوات، وظلة أرسل الله عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها.

في سياق قصة الأعراف: أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين. فقال تعالى: {فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة.

وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود: فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهمك والاستهزاء والتنقص:

{أَصْلَانِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم، مع رجفة أسكتتهم.

وأما في سورة الشعراء: فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: 185-188].

قال الله تعالى وهو السميع العليم: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 189] ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره، أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين، فقله ضعيف.

وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما أنه قال: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ} ولم يقل: أخوهم كما قال: {وَأَلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}.

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة، أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجردده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة، والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن شفيق بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً:

((إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان، بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام)). فإنه حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه.

والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين، من أخبار بني إسرائيل، والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة أهلوا بأنواع من العذاب. وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء؛ فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح.

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 91-92].

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا أَنَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ} [هود: 94-95].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَخْتَرُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 90-92]. وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 93].

ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم، موبخاً، ومؤنباً، ومقرعاً فقال تعالى: {... يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ} أي: أعرض عنهم مولياً عن محلثهم بعد هلكتهم قاتلاً: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} أي: قد أدبت ما كان واجباً علي من البلاغ التام، والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه، وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل، وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال: {فَكَيْفَ آسَىٰ} أي: أحزن على قوم كافرين أي: لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه، ولا تلتفتون إليه، فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص منه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام.

وعن وهب بن منبه أن شعيباً عليه السلام مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة، ودار بني سهم.

باب ذرية إبراهيم

قد قدمنا قصته مع قومه، وما كان من أمرهم، وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام. وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام، لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة، فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح، كما قدمنا فذكرناها تبعاً لها إقتداء بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن في الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام، لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي أرسل بعده فمن ولده.

إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح: إسماعيل بكر إبراهيم الخليل، من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل، ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل.

فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر، وفي رواية الوحيد، وأياً ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل، ففي نص كتابهم: إن إسماعيل ولد لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة.

أما في الصورة: فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة، وأما أنه وحيد في المعنى: فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل، فوضعها في وهاد جبال فاران، وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل، وتركها هنالك ليس معها من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فحاطها الله تعالى بعنايته وكفايته، فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل.

فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى، ولكن أين من يتفطن لهذا السر؟ وأين من يحل بهذا المحل والمعنى؟ لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل.

قد أتنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر، وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقبهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال تعالى: ﴿قَبَسْرَنَاهُ بَعْلَامَ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 101-102] فطأوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأن سيصبر، فوفى بذلك بأن سيصبر وصبر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54-55].

وقال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَأذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 45-48].

وقال تعالى: ﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 85-86].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ...﴾ [الأنبياء: 163].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136] الآية. ونظيرتها من السورة الأخرى.

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: 140].

فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون.

وذكر علماء النسب وأيام الناس، أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها.

وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا شيخ من قريش، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((اتخذوا الخيل واعتبقوها فإنها مراث أبيكم إسماعيل)).

وكانت هذه العراب وحشاً، فدعا لها بدعوتها التي كان أعطي فأجابته، وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البلغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة، من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموي: حدثني علي بن المغيرة، حدثنا أبو عبيدة، حدثنا مسمع بن مالك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة)).

فقال له يونس: صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جري حدثني.

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأة، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها. قال الأموي: هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي. ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي.

وقيل: هذه الثالثة فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً، وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت، وقيدر، وازبل، وميشى، ومسمع، وماش، ودوصا، وارر، ويطور، ونبش، وطيماء، وقذيما، وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم، وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم، المتقدم ذكرهم، وكذبوا في تأويلهم ذلك.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها، من قبائل جرهم، والعماليق، وأهل اليمن، صلوات الله وسلامه عليه.

ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم، ويقال لهم: بنو الأصفر لصفرة كانت في العيص. وولدت له اليونان في أحد الأقوال، ومن ولد العيص الأشبان، قيل منهما أيضاً، وتوقف ابن جرير رحمه الله.

ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حرّاً مكة، فأوحى الله إليه أني سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذي تدفن فيه، تجري عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيدار، وسنتكلم على أحياء العرب، وبطونها، وعمائرها، وقبائلها، وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة، بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى بن مريم خاتم أنبيائهم، ومحقق أنبائهم.

ثم نذكر ما كان في زمن بني إسرائيل، ثم ما وقع في أيام الجاهلية، ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم من الأمم، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم.

إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والتسليم

قد قدمنا أنه وُلد ولأبيه مائة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنة. وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة. قال الله تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِمَّنْ دُرِّيَّتُهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} [الصافات: 112-113] وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.

وقدمنا في حديث أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)).

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت بتواييل في حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً، فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين.

أولهما سموه عيصو، وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم.

والثاني: خرج وهو أخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل. قالوا: وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره، وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

قالوا فلما كبر إسحاق وضعف بصره، اشتهى على ابنه العيص طعاماً، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً، ويطبخه له ليبارك عليه، ويدعو له، وكان العيص صاحب صيد، فذهب يبتغي ذلك.

فأمرت رفقا ابنتها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فأليسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين، لأن العيص كان أشعر الجسد، ويعقوب ليس كذلك.

فلما جاء به وقربه إليه، قال: من أنت؟

قال: ولدك، فضمه إليه وجسه، وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجس والثياب فالعيص، فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده، جاء أخوه العيص بما أمره به والده، فقربه إليه، فقال له: ما هذا يا بني؟

قال: هذا الطعام الذي اشتهيته.

فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً.

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك، ويوصيه ويدعو له ففعل.

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم، من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه، أخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إنني سأبارك عليك، وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليينين في هذا الموضع معبد الله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به، وسمى ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم، الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران، إذا له ابنتان: اسم الكبرى ليا، واسم الصغرى راحيل، وكانت أحسنهما وأجملهما، فطلب يعقوب الصغرى من خاله، فأجابته إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين.

فلما مضت المدة على خاله لابان، صنع طعاماً وجمع الناس عليه، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا، وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر، فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا، فقال لخاله: لقد غدرت بي وأنت إنما خطبت إليكِ راحيل.

فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها، فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته، لأنه معصوم.

وهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب لليا جارية اسمها زلفى، ووهب لراحيل جارية اسمها بلهى، وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً، فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل، ثم شمعون، ثم لاوي، ثم يهوذا، فغارت عند ذلك راحيل، وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريته بلهى، فوطئها فحملت، وولدت له غلاماً سمته دان، وحملت وولدت غلاماً آخر سمته نيفتالي.

فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريته زلفى، من يعقوب عليه السلام فولدت له جاد وأشير، غلامين ذكرين، ثم حملت ليا أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته ايساخر، ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته زابلون، ثم حملت وولدت بنتاً سمته دينا فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعائها، فحملت من نبي الله يعقوب، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته يوسف.

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنيتين ست سنين أخرى، فصار مدة مقامه عشرين سنة، فطلب يعقوب من خاله لآبان أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إني قد بورك لي بسببك، فسألني من مالي ما شئت.

فقال: تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع، وكل حمل ملمع أبيض بسواد، وكل أملح ببياض، وكل أبلح أبيض من المعز.

فقال: نعم. فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم، قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب، فكان يقشرها بلقا، وينصبها في مساقى الغنم من المياه، لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها، فتصير ألوان حملانها كذلك.

وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم في سلك المعجزات، فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة، ودواب وعبيد، وتغير له وجه خاله وبنيه، وكانهم انحصروا منه.

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعد به بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه بمبارين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لآبان وقومه.

فلما اجتمع لآبان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه، وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول، وحتى يودع بناته وأولادهن، ولم أخذوا أصنامهم معهم ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامهم، فأفكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش، فلم يجد شيئاً، وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الحمل وهي تحتها، فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن.

فعند ذلك تواتقوا على رابية هناك يقال لها: جلعاد، على أنه لا يهين بناته، ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخرة، لا لآبان، ولا يعقوب، وعملا طعاماً، وأكل القوم معهم، وتودع كل منهما من الآخر، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم.

فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير، تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم، وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له، ويتواضع له، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمئة راجل.

فخشى يعقوب من ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له، وتضرع إليه، وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعدته الذي وعده به، وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص.

وأعد لأخيه هدية عظيمة، وهي مانتا شاة وعشرون تيساً، ومانتا نعجة، وعشرون كبشاً، وثلاثون لقحة، وأربعون بقرة، وعشرة من الثيران، وعشرون أتاناً، وعشرة من الحمير، وأمر عبيده أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحده، ليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت، ولمن هذه معك؟

فليقل: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدي العيص، وليقل الذي بعده كذلك، وكذا الذي بعده، ويقول كل منهم وهو جاني بعدنا، وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر، بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً.

فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدا له ملك من الملائكة في صورة رجل، فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب، فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟

قال: يعقوب.

قال: لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل.

فقال له يعقوب: ومن أنت، وما اسمك؟

فذهب عنه، فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء.

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة رجل، فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص، سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان، وكان مشروعا لهم كما سجدت الملائكة لأدم تحية له، وكما سجد أخوه يوسف وأبواه له كما سيأتي، فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه، وقبله وبكى، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان، فقال: من أين لك هؤلاء؟

فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له، ودنت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنت راحيل وابنها يوسف فخرا سجدا له، وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها، ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله، وما معه من الأنعام، والمواشي، والعبيد قاصدين جبال ساعير.

فلما مر بساحور، ابنتي له بيتا ولدوا به ظللا، ثم مر على أورشليم قرية شخيم، فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثم مذبجا فسماه إيل إله إسرائيل، وأمر الله بنيائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم، الذي جده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام، وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا، وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور، الذي قهرها على نفسها، وأدخلها منزله، ثم خطبها عن أبيها وأخوتها.

فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرنا، فإننا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم، فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلواهم عن آخرهم، وقتلوا شخيماً وأباه جمور، لتفريح ما صنعوا إليهم، مضافاً إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب، وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً وهو بنيامين، إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً، وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب في أفرات، وهي بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجراً، وهي الحجرة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً، فمن ليا: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون.

ومن راحيل: يوسف، وبنيامين.

ومن أمة راحيل: دان، ونفتالي.

ومن أمة ليا: حاد، وأشير عليهم السلام.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق، فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان، حيث كان يسكن إبراهيم، ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة، ودفن ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا.

ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل، وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ، والآداب، والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: 1-3]

قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة، فمن أراد تحقيقه فليظنره ثم، وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير، ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك، على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول في هذا المقام، أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي فصيح، بين واضح جلي، يفهمه كل عاقل ذكي زكي.

فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان، فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودمغ الباطل وزيفه ورده.

وإن كان في الأوامر والنواهي، فأعدل الشرائع وأوضح المناهج، وأبين حكماً وأعدل حكماً فهو كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّمتُ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115] يعني صدقاً في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي.

ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3] أي: بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 52-53].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: 99-101]. (ج/ص: 228 / 1)

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد، كما قال في الحديث المروي في المسند، والترمذي، عن أمير المؤمنين على مرفوعاً وموقوفاً:

((من ابتغى الهدى في غيره أضله الله)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريح بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد، عن الشعبي، عن جابر، أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم، قال فغضب وقال:

((أنتهكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه، أو يباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)).

إسناد صحيح.

ورواه أحمد من وجه آخر، عن عمرو فيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين)).

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف، وفي بعضها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال في خطبته:

((أيها الناس إنني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تنهوكوا ولا يغرركم المتهوكون))، ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ

تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {يوسف: 4-6}.

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وسميهاهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وبقاى إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدلل على نبوتهم بقوله: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ} [البقرة: 136] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط، فليس استدلاله بقوي لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة، أنه نص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه، ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم)).

انفرد به البخاري، فرواه عن عبد الله بن محمد، وعبدية عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن {أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} وهم إشارة إلى بقية أخوته {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} هما عبارة عن أبيه قد سجدوا له، فهاله ذلك.

فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه، ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

وهذا يدل على ما ذكرناه، ولهذا جاء في بعض الآثار: استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود.

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وأخوته معاً، وهو غلط منهم.

{وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} أي: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها {يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة.

{وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} أي: يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك.

{وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} أي: بالوحي إليك.

{وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ} أي: بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة.

{كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ} أي: ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل.

{إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} كما قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124].

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل أي الناس أكرم؟

قال: ((يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)).

وقد روى ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما، وأبو يعلى، والبزار في (مسنديهما) من حديث الحكم بن ظهير - وقد ضعفه الأئمة - عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود يقال له بستانة اليهودي، فقال:

يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها.

قال فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها.

قال: فبعث إليه رسول الله فقال: ((هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟)).

قال: نعم.

فقال: ((هي جريان، والطارق، والديال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمردان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والنور)).

فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.

وعند أبي يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشنت يجمعه الله، والشمس أبوه، والقمر أمه.

{لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [يوسف: 7-10].

بنبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ والبيانات، ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه، يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم، وهم عصابة أي: جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين.

{إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي: بتقديمه حبهما علينا. ثم اشتورا فيما بينهم في قتل يوسف، أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيه أي لتتمحض محبته لهم، وتتوفر عليهم وأضمرُوا التوبة بعد ذلك، فلما تماؤوا على ذلك، وتوافقوا عليه.

{قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ} قال مجاهد: هو شمعون.

وقال السدي: هو يهودا.

وقال قتادة، ومحمد بن إسحق: هو أكبرهم روبيل.

{تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} أي: المارة من المسافرين.

{إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتخريبه، فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك قالوا:

{قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَخِشْيَتِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} [يوسف: 11-14].

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمرُوا له ما الله به عليم، فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذنب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه

{قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الدَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذا لخاسرون أي: عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلظهم وخطئهم في التعريب، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده.

{قَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاوَزَا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاوَزَا عَلَى قِمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 15-18].

لم يزلوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، واجتمعوا على إلقائه في غيابت الجب أي: في قعره على راعوقته، وهي الصخرة التي تكون في وسطه، يقف عليها المائح - وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قل الماء - والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح.

فلما ألقوه فيه، أوحى الله إليه أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا، في حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك، خائفون منك {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك.

وعن ابن عباس: وهم لا يشعرون أي: لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغررك بكاء المتظلم، فرب ظالم وهو باك.

وذكر بكاء إخوة يوسف، وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا قالوا يا أبانا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا} أي ثيابنا {فَأَكَلَهُ الدَّيْبُ} أي: في غيبتنا عنه في استباقنا.

وقولهم {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} أي: وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا، فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمننا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعدور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

{وَجَاوَزَا عَلَى قِمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} أي: مكذوب مفتعل، لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهما أنه أكله الذئب، قالوا ونسوا أن يخرقوه، وآفة الكذب النسيان.

ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرُج صنيعهم على أبيهم، فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته.

ولما راودوه عن أخذه، فبمجرد ما أخذه أعدموه، وغيبوه عن عينيه، جاؤا وهم يتباكون وعلى ما تماثلوا عليه يتواطئون، ولهذا {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.

وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه في الجب، ليأخذه من حيث لا يشعرون، ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل من آخر النار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف، فلما علم يعقوب شق ثيابه، ولبس منزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة، وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير.

وقال تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا عَلِيمٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرُّهُ بِئْسَ بَخْسٌ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرَمِي مَتَوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكُلاً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {يوسف: 19-22}.

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب:

أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة أي: مسافرون.

قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق، والصنوبر، والبيطم، قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل:

{قَالَ يَا بُشْرَى} أي: يا بشارتي

{هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً} أي: أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي: هو عالم بما تمالأ عليه أخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، والقدر السابق، والرحمة بأهل مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام، الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور، وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس أي: قليل نزر. وقيل: هو الزيف.

{ذَرَاهِمَ مَعْتُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} قال ابن مسعود، وابن عباس، ونوف اليكالي، والسدي، وقتادة، وعطية العوفي: باعوه بعشرين درهماً، اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال عكرمة، ومحمد بن إسحاق: أربعون درهماً فأنه أعلم.

{قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ} أي: أحسني إليه.

{عَسَى أَنْ يَفْعَلْنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدَا} وهذا من لطف الله به، ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها، وهو الوزير بها الذي تكون الخزانة مسلمة إليه.

قال ابن إسحاق: واسمه اطفير بن روحيب، قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق، قال: واسم امرأة العزيز: راعيل بنت راعيل.

وقال غيره: كان اسمها زليخا، والظاهر أنه لقبها. وقيل: فكا بنت ينوس. رواه الثعلبي عن أبي هشام الرفاعي.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان اسم الذي باعه بمصر يعني الذي جلبه إليها: مالك بن ذعر بن نويب بن عفا بن مديان بن إبراهيم، فأنه أعلم.

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود قال:

أفرس الناس ثلاثة:

عزيز مصر حين قال لامرأته: أكرمي مثواه.

والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: {يَأْتِيَتْ اسْتَأْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26].

وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً.

وقيل: بوزنه مسكاً، ووزنه حريراً، ووزنه ورقاً، فالله أعلم.

وقوله: {هُوَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُؤْسَفَ فِي الْأَرْضِ} أي: وكما قيضنا هذا العزيز، وامراته يحسنان إليه، ويعتنيان به مكننا له في أرض مصر

{هُوَ لَعَلَّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} أي: فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك.

{هُوَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} أي: إذا أراد شيئاً، فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد، ولهذا قال تعالى: {هُوَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

{هُوَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين.

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد:

فقال مالك، وربيعه، وزيد بن أسلم، والشعبي: هو الحلم.

وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة.

وقال الضحاك: عشرون سنة.

وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة.

وقال السدي: ثلاثون سنة.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة.

وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: {إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف: 15].

{وَرَأَوْدَتْهُ الْأَتْيَ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} * {وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ} * {وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} * {قَالَ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} * {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} * {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} * {يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [يوسف: 23-29].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال، والمال، والمنصب، والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيات له، وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها، وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير.

قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر، وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه من مكر النساء، فهو سيد

السادة النجباء السبعة الأتقياء، المذكورين في (الصحيحين) عن خاتم الأنبياء في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)).

والمقصود: أنها دعت إليه، وحرصت على ذلك أشد الحرص، فقال:

{قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي} يعني: زوجها صاحب المنزل سيدي

{أَحْسَنَ مَثْوَايَ} أي: أحسن إليّ، وأكرم مقامي عنده

{إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ} وقد تكلمنا على قوله

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} بما فيه كفاية ومقتع في التفسير.

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا. والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه، وبرأه، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانته منها، ولهذا قال تعالى:

{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} * وَأَسْتَبَقَا {الباب} أي: هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه، فراراً منها، فاتبعته في أثره

{وَأَلْفَيًْا} أي: وجداً {سَيِّدَهَا} أي: زوجها لدى الباب، فبدرته بالكلام وحرصته عليه

{قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} اتهمته وهي المتهمة، وبرأت عرضها، ونزهت ساحتها، فلماذا قال يوسف عليه السلام:

{هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي} احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة

{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} قيل: كان صغيراً في المهد قاله ابن عباس.

وروي عن أبي هريرة، وهلال بن يساف، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، والضحاك، واختاره ابن جرير.

وروي فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس، ووقفه غيره عنه.

وقيل: كان رجلاً قريباً إلى أظفير بعلمها. وقيل: قريباً إليها.

وممن قال إنه كان رجلاً: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وزيد بن أسلم، فقال:

{إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ فُدٌّ مِنْ فُبُلٍ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَادِبِينَ} أي: لأنه يكون قد راودها فدافعت حتى قادت مقدم قميصه.

{وَأِنْ كَانَ قَمِيصُهُ فُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} أي: لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته، وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى: {قَلَمًا رَأَى قَمِيصَهُ فُدٌّ مِنْ دُبُرٍ} قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَذِبَكُمْ عَظِيمٌ} أي: هذا الذي جرى من مكرن، أنت راودته عن نفسه. ثم اتهمته بالباطل، ثم ضرب بعلمها عن هذا صفحاً فقال:

﴿يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ هَذَا﴾ أي: لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب، ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك. ولهذا قال لها بعلها، وعذرها من بعض الوجوه، لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف، نزيه، بريء العرض، سليم الناحية، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسْوَسَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَئِيْسَجُنَّ وَلَيُكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 30-34].

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة، من نساء الأمراء، وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز، وعبئها، والتشيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا، لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهل لهذا، ولهذا قلن:

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في وضعها الشيء في غير محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بتشنيعهن عليها، والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها، وعشق فتاها، فأظهن ذمًا، وهي معذورة في نفس الأمر، فلماذا أحببت أن تيسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسين، ولا من قبيل ما لديهن.

فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، واعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئًا مما يقطع بالسكاكين، كالأترج ونحوه، وأتت كل واحدة منهن سكينًا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب، وهو في غاية ظراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمته، وأجللته وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم.

وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحزرزن في أيديهن بتلك السكاكين، ولا يشعرن بالجراح: ﴿هُوَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقد جاء في حديث الإسراء:

((فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن)).

قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطي وجهه.

وقال غيره: كان في الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس، ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدش عند رؤيته ومعابنته: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.

ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت: ﴿هُوَ لَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسْوَسَ﴾ أي: امتنع. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَئِيْسَجُنَّ وَلَيُكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾.

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين:

{قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنَّا نَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْنَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} يعني: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلا ما قويتني، وعصمتني، وحفظتني، وحطني بحولك وقوتك. ولهذا قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

{ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا النَّيَاتِ لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لِمَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِنَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَاصْحَابِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِنَّا أَسْمَاءَ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَاصْحَابِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضِيءَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [يوسف: 41-35].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أي: ظهر لهم من الرأي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان هذا مما قدر الله له.

ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم، ومخالطتهم، ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي أن من العصمة أن لا تجد.

قال الله: {وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ} قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل: بنو، والآخر خبازه يعني: الذي يلي طعامه، وهو الذي يقول له الترك: الجاشنكير. واسمه فيما قيل: مجلت، كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما.

فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته، وهديه، ودله، وطريقته، وقوله، وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا في ليلة واحدة:

أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلية وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه.

ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضواري الطيور تأكل من السلال الأعلى، فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما.

وقالا {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبيراً بأمرها.

و {قَالَ لِمَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِنَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} قيل: معناه مهما رأيتما من حلم، فإني أعبره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول.

وقيل: معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه، حلواً أو حامضاً كما قال عيسى: {هُوَ أَنْبَتَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [آل عمران: 49].

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به، موحد له، متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب هما كان لنا أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا} أي: بأن هدانا لهذا.

{وَعَلَى النَّاسِ} أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه، ونرشددهم، وندلهم عليه، وهو في فطرهم مركزوز وفي جبلتهم مغرور. {هَوَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}.

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذب عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان، وحقرها، وضعف أمرها، فقال:

{يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَقَرِّفُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} أي: هو المتصرف في خلقه الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

{أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} أي: وحده لا شريك له.

{وَذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي: المستقيم، والصرراط القويم.

{هَوَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره، وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال، لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه، وأرشد إلى ما أرشد إليه، قال: {يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْئَلِي رَبَّهُ خَمْرًا} قالوا: وهو الساقى.

{هَوَ أَمَّا الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ} قالوا: وهو الخباز.

{فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} أي: وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على حالة، ولهذا جاء في الحديث:

((الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت)).

وقد روي عن ابن مسعود، ومجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنهما قالوا: لم نر شيئا.

فقال لهما: {فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}

{هَوَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ} [يوسف: 42].

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذي ظنه ناجيا منهما، وهو الساقى {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} يعني اذكر أمري، وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب.

وقوله: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام.

قاله مجاهد، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب.

{فَلَبِثَ يَوْسُفُ فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ} والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل: إلى السبع. وقيل: إلى الخمس. وقيل: ما دون العشرة. حكاها الثعلبي.

ويقال: بضع نسوة، وبضع رجال. ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر، قال: وإنما يقال نيف.

وقال الله تعالى: {فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ}

وقال تعالى: {فِي بَضْعِ سِنِينَ} [الروم: 2] وهذا رد لقوله.

قال الفراء: ويقال بضعة عشر، وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال بضع ومائة، وبضع وألف، وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال: بضعة وعشرون إلى تسعين.

وفي الصحيح: ((الإيمان بضع وستون)) - وفي رواية: وسبعون شعبة - أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق)).

ومن قال إن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على يوسف، فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روي عن ابن عباس، وعكرمة، والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه. تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوري المكي وهو متروك.

ومرسل الحسن، وقتادة لا يقبل، ولا ههنا بطريق الأولى والأخرى، والله أعلم.

فأما قول ابن حبان في (صحيحه) عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث، أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي، ثنا مسدد بن مسرهد، ثنا خالد بن عبد الله، ثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يتبع...)

(تابع... 1): فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل، وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من... ..

((رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها: اذكرني عند ربك ما لبث في السجن ما لبث.

ورحم الله لوطاً أن كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال لقومه: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد قال: فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه)).

فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة، له أشياء ينفرد بها، وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في (الصحيحين) يشهد بغلطها، والله أعلم.

{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْئُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِنْ قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِنْ قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [يوسف: 43-49].

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن ارشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن في روضة هناك، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن، ثم ملن عليهن، فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً.

ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبه واحدة، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً، فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل ﴿قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أحلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ومع هذا فلا خيرة لنا بذلك.

ولهذا قالوا: ﴿هُوَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا. وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك، فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها، تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار.

ولها قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ أَي: تذكر.

{بَعْدَ أُمَّةٍ أَي: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين.

وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَي: بعد نسيان.

وقرأها مجاهد: {بَعْدَ أُمَّةٍ} بإسكان الميم، وهو النسيان أيضاً، يقال: أمه الرجل يأمه أمهاً، وأمهاً إذا نسي.

قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثاً * كذاك الدهر يزري بالعقول

فقال لقومه وللملك: {أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِأَوْلِيهِ فَأَرْسِلُونِ} أَي: فأرسلوني إلى يوسف.

فجاءه فقال: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الساقى استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه، ففسره له، وهذا غلط.

والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن، لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران، من قرأى وربان.

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر، ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوا، وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب، ويعقبها سبع جدد.

{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} يعني: يأتهم الغيث، والخصب، والرفاهية.

{وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} يعني: ما كانوا يعصرونه من الأقطاب، والأعقاب، والزيتون، والسمسم، وغيرها، فعبر لهم، وعلى الخير دلهم، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتهم، وجديهم، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله، إلا ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر في سني الجذب في السبع الثانية، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم، وكمال الرأي والفهم.

{وَقَلَّمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَأَوْتِنِّي يُوَسِّفُ عَنْ نَفْسِهِ فُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ * وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِنَّمَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: 50-53].

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتماز عقله، ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك، أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً.

قال: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} يعني: الملك

{فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} قيل: معناه إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي، أي فأمر الملك فليسألهم كيف كان امتناعي الشديد عند مرادتهم إياي، وحثن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد.

فلما سئل عن ذلك، أعترفن بما وقع من الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد {فُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} فعند ذلك {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ} وهي: زليخا {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} أَي: ظهر، وتبين، ووضح، والحق أحق أن يتبع {أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} أَي: فيما يقوله من أنه بريء، وأنه لم يراودني، وأنه حبس ظلماً، وعدواناً، وزوراً، وبهتاناً.

وقوله: {هَذَا لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} قيل: إنه من كلام يوسف، أي: إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنني لم أخنه بظهر الغيب.

وقيل: إنه من تمام كلام زليخا، أي: إنما اعترفت بهذا، ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة، وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول.

{هَوَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} قيل: إنه من كلام يوسف. وقيل: من كلام زليخا، وهو مفرع على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر، وأنسب، وأقوى، والله أعلم.

{وَقَالَ الْمَلِكُ الْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ لِنُصِيبَ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يوسف: 54-57].

لما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه، مما نسبوه إليه، قال:

{الْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} أي: أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله

{قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ} أي: ذو مكانة وأمانة

{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم} طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالإهراء، لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سنين الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم، والرفق بهم.

وأخبر الملك إنه حفيظ أي: قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء، ومصالح الإهراء، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب: أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً، وسلطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوقه الذهب، وحمله على مركبه الثاني، ونودي بين يديه: أنت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسي، قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل: إنه لما مات، زوج أمراًته زليخا، فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما: أفرايم ومنشا، قال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل، فأحبه الرجال والنساء.

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة، وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه فإله أعلم.

قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} أي: بعد السجن، والضيق، والحصار، صار مطلق الركاب بديار مصر.

{يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} أي: أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً.

{لِنُصِيبَ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} أي: هذا كله من جزاء الله، وثوابه للمؤمن، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل.

ولهذا قال: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}

ويقال: إن أطفير زوج زليخا كان قد مات، فولاه الملك مكانه، وزوجه أمراًته زليخا، فكان وزير صدق.

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يدي يوسف عليه السلام فأنه أعلم.

وقد قال بعضهم:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن * وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تياسن فأنه ملك يوسف * خزائنه بعد الخلاص من السجن

{هُجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [يوسف: 62-58].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية، يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سني الجذب وعمومها على سائر البلاد والعباد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية، ديناً ودنياً، فلما دخلوا عليه عرفهم، ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب: أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد أن لا يعرفوه بأغظ لهم في القول، وقال: أنتم جواسيس جنتم لنا لتأخذوا خير بلادي، فقالوا: معاذ الله إنما جئنا ننتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا، ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً، ذهب منا واحد، وصغيرنا عند أبينا.

فقال: لا بد أن أستعلم أمركم، وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام، ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده لياتوه بالأخ الآخر، وفي بعض هذا نظر.

قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ} أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته في إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه.

{قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ} وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم، فقالوا كنا اثني عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم.

{أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغيبم لياتوه به ثم رهيبم إن لم يأتوه به.

قال: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون} أي: فلست أعطيك ميرة ولا أقربكم بالكليّة عكس ما أسدى إليهم أولاً، فاجتهد في إحضاره معهم، ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

{قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ} أي: سنجتهد في مجيئه معنا، وإتيانه إليك بكل ممكن.

{وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتياته أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم، من حيث لا يشعرون بها.

{لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم، وقيل: خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تدمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها.

وعند أهل الكتاب: أنها كانت صرراً من ورق وهو أشبه والله أعلم.

{فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ أَمْنَكُم مِّنْ اللَّهِ إِذَا كَمَا أَمْنُكُم مِّنْ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالُوا خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزِدُكَ كَيْلًا بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْتِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لِمَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 63-68].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم، وقولهم له: {مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ} أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا آخانا، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا.

{وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي} أي: أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا.

{وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} أي: نمتار لهم، ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم، ومحلهم

{وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزِدُكَ بِسَبِيهِ}.

{كَيْلٌ بَعِيرٌ} قال الله تعالى: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي: في مقابلة ذهاب ولده الآخر. وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه، ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه.

فلهذا قال: {لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْتِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} أي: إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به.

{فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} أكد المواتيق، وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده، ولن يغني حذر من قدر. ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة، لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء، وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة، وصوراً بديعة، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسدي، والضحاك.

وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف، أو يحدثون عنه بأثر، قاله إبراهيم النخعي، والأول أظهر. ولهذا قال: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}.

وقال تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

وعند أهل الكتاب: أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق، واللوز، والصنوبر، والبطم، والعسل، وأخذوا الدراهم الأولى، وعضاً آخر

{وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لِسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ * قَالُوا نَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ جُدَّ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ * قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِيَّاهُ مِنْ وَجَدْنَا مُنَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ ﴿79-69﴾.

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوانه إليه وإخباره له سرّاً عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتّم ذلك عنهم، وسلاّه عما كان منهم من الإساءة إليه،

ثم احتال على أخذه منهم، وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتبانه بوضع سقايته - وهي التي كان يشرب بها، ويكيل بها للناس الطعام عن غرته في متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده حمل بعير، وضمنه المنادي لهم، فأقبلوا على من اتهمهم بذلك، فأثبوه وهجنوه فيما قاله لهم.

وَقَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿يَقُولُونَ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنَّا خِلافَ مَا رَمَيْتُمُونَا بِهِ مِنَ السَّرِقَةِ﴾.

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾﴾.

قال الله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعَيْنَيْهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ﴿ليكون ذلك أبعدهم للثمة وأبلغ في الحيلة﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر.

﴿الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرَفَعَ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءِ﴾ أي: في العلم.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأياً، وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك، من قدوم أبيه وقومه عليه، ووفودهم إليه فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف.

قيل: كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره.

وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه، وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له.

وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء.

وقيل: غير ذلك. فلماذا ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ وهي كلمته بعدها، وقوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سرّاً لا جهراً، حلماً وكرماً وشفافاً وشفافاً وعفوياً فدخلوا معه في الترفق والتعطف.

فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِيَّاهُ مِنْ وَجَدْنَا مُنَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ﴾ أي: إن أطلقنا المتهم، وأخذنا البريء هذا ما لا نفعه ولا نسبح به، وإنما نأخذ من وجدنا مناعاً عنده.

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جداً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا

يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي
أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَأُ تَذْكُرُ
يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ * يَا بَنِي آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِنْ يَوْمِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبَسُّوا مِنْ يَوْمِ يُوسُفَ إِنَّهُ لَا يَبْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُؤْمَرُ
بِالْكَافِرُونَ } [يوسف: 80-87].

يقول تعالى مخبراً عنهم أنهم لما استلبسوا من أخذه منه، خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم - وهو روبيل -
- {أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ} لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه
كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقبله به.

{فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ} أي: لا أزال مقيماً ههنا {حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي} في القوم عليه، {أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي} بأن يقدرني
على رد أخي إلى أبي {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}

{ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَفَعَلُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ} أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة، {وَمَا شَهِدْنَا
إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} * واسأل القرية التي كنا فيها والعيير التي أقبلنا فيها} أي: فإن هذا الذي
أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك {وَأِنَّا
لَصَادِقُونَ}.

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق فإنه ليس سحبة له ولا هو
خالقه، وإنما سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل.

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفریط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال، وهذا
كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا} يعني: يوسف
وبنيامين وروبييل.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} أي: بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة.

{الْحَكِيمُ} فيما يقدره ويفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ} أي: أعرض عن بنيه

{وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ} ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك ما كان كامناً كما قال بعضهم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر: لقد لامني عند القبور على البكا * رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى * فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} أي: من كثرة البكاء.

{فَهُوَ كَظِيمٌ} أي: مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف، فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق

{قَالُوا} له على وجه الرحمة له والرفقة به والحرص عليه

{تَاللَّهِ تَقْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} يقولون: لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك،
وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك.

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} يقول لبيته: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكو إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى.

ولهذا قال: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ثم قال لهم محرصاً على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَبُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَنْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ} أي: لا تيسبوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا يياس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون.

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَيْبَكُنَا لِأَنْتَ يَا يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْفَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} [يوسف: 88-93].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه، وقدمهم عليه، ورجبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم رد أخيه بنيامين إليهم {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ} أي: من الجذب وضيق الحال وكثرة العيال.

{وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ} أي: ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا، قيل: كانت دراهم رديئة. وقيل: قليلة. وقيل: حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس: كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك.

{فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}. قيل: بقبولها قاله السدي. وقيل: برد أخينا إلينا قاله ابن جريج. وقال سفيان بن عيينة: إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزع بهذه الآية. رواه ابن جرير.

فلما رأى ما هم فيه من الحال، وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال، تعرف إليهم وعطف عليهم قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم.

وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون {هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ}.

{قَالُوا} وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو.

{أَيْبَكُنَا لِأَنْتَ يَا يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي} يعني: أنا يوسف الذي صنعتكم معه ما صنعتكم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم. وقوله {وَهَذَا أَخِي} تأكيد لما قال، وتنبية على ما كانوا أضمرُوا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال.

ولهذا قال: {قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا} أي: بإحسانه إلينا، وصدقته علينا وإيوائه لنا، وشده معاهد عزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا، وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبتة الشديدة لنا، وشفقتة علينا.

{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا} أي: فضلك وأعطاك ما لم يعطنا.

{وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ} أي: فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك.

{قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} أي: لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك فقال: {الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}

ومن زعم أن الوقف على قوله: ﴿لَمَّا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ﴾ وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم، فقوله ضعيف والصحيح الأول. ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده، فيضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات، وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: 94-98].

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل سمعت ابن عباس يقول: فلما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وكذا رواه الثوري، وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به.

وقال الحسن البصري، وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة.

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ أي: تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن.

قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: تفندون: تسفهون.

وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تهرمون.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال قتادة، والسدي: قالوا له كلمة غليظة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريباً، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف، وستقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني.

فعند ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا، ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

قال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخرج بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَرِ﴾ [آل عمران: 17] وثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له)).

وقد ورد في حديث أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة.

قال ابن جرير، حدثني المثني، ثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((سَوْفَ أَسْتَعْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ يَقُولُ: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه)).

وهذا غريب من هذا الوجه.

وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

{قَلَمًا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: 99-101].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التي قيل أنها ثمانون سنة، وقيل: ثلاثة وثمانون سنة، وهما روايتان عن الحسن. وقيل: خمس وثلثون سنة، قاله قتادة. وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة. قال وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة، فيما قاله غير واحد فامتنع، فكان في السجن بضع سنين، وهي سبع عند عكرمة وغيره، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوتهم يمتارون في السنة الأولى وحدثهم، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين، فجاءوا كلهم.

{قَلَمًا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ} اجتمع بها خصوصاً وحدثها دون إخوته. {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} قيل هذا من المقدم والمؤخر تقديره: ادخلوا مصر وأوى إليه أبيه. وضعفه ابن جرير وهو معذور.

قيل: تلقاهما وأواهما في منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} قاله السدي. ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً، وأنه ضمن قوله ادخلوا معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها، {إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} لكان صحيحاً ملبحاً أيضاً.

وعند أهل الكتاب: أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر، وهي أرض بلبيس، خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقومون بها بنعمهم ومواسيهم.

وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أرف قدم نبي الله يعقوب، وهو إسرائيل، أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف، وتعظيماً لنبي الله إسرائيل، وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجذب ببركة قدومه إليهم، فالله أعلم.

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم، فيما قاله أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنساناً.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد: كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً.

وقال أبو إسحاق عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنساناً.

قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل. وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم.

قال الله تعالى: {وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ} قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة.

وقال بعض المفسرين: فأحياها الله تعالى. وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخاله بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا قوي والله أعلم.

ورفعهما على العرش أي: أجلسهما معه على سريره.

{وَوَحَّرُوا لَهُ سُجْدًا} أي: سجد له الأيوان، والاخوة الأحد عشر، تعظيماً وتكريماً وكان هذا مشروعاً لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع، حتى حرم في ملتنا.

{وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} أي: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً، والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك.

{فَقَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} أي: بعد الهم والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت.

{وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ} أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل.

{مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} أي: فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} أي: إذا أراد شيئاً هياً أسبابه ويسرها، وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها ويبسرها بلطيف صنعه، وعظيم قدرته.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} أي: بجميع الأمور.

{الْحَكِيمُ} في خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب، والفضة، والعقار، والأثاث، وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء، ثم أطلق لهم أرضهم، وأعتق رقابهم، على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك، فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبي: أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار، قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك. قلت: وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة، حتى ذهب الجذب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لاين حرة.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه - وهو خير المسؤولين - أن يتوفاه، أي: حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال في الدعاء: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، أي: حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملاء الأعلى، والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين، كما قال:

((اللهم في الرفيق الأعلى))، ثلاثاً ثم قضى.

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجراً في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم، كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف.

فأما في شريعتنا: فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد:

((وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين)).

وفي الحديث الآخر: ((ابن آدم الموت خير لك من الفتنة)). وقالت مريم عليها السلام: {يَا أَيَّتُهَا الْمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي وَاسْقُطِي فِي سُجُودِكُمْ وَلَا تَمْنَى الْوَعْدَ الْمَعْلُومَ وَإِذَا قُلْتِ لِلرَّبِّ شَيْئًا فَاذْكُرِي مَا كُنْتِ تَعْبُدِينَ} [مريم: 23].

وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور، وعظمت الفتن، واشتد القتال، وكثر القيل والقال، وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال، ولقي من مخالفه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعقب، ولكن ليقول: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي)).

والمراد بالضر ههنا: ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه، لا في دينه، والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب: أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبيه إبراهيم وإسحاق.

قال السدي: فصبر وسيره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمنارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

وعند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة، وعندهم: أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة، ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة. هذا نص كتابهم وهو غلط، إما في النسخة أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا.

وقد قال تعالى في كتابه العزيز: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133] يوصي بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب: أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشّر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله، تطيعه الشعوب، وهو عيسى بن مريم، والله أعلم.

وذكروا: أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه، ليدفنه عند أهله فأذن له، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم، وعزّى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم، وترققوا له، فأكرمهم وأحسن منقلبهم، فأقاموا ببلاد مصر.

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه، فحنطوه ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجته معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي.

قالوا: فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين، هذا نصهم فيما رأيتهم، وفيما حكاه ابن جرير أيضاً.

وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقى يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه.

قصة نبي الله أيوب

قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب. وقيل غير ذلك في نسبه.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام. وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى في النار فلم تحرقه.

والمشهور الأول، لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى: {مَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ...} [الأنعام: 84].

من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ} [النساء: 163].

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق، وامرأته قيل: اسمها ليا بنت يعقوب، وقيل: رحمه بنت أفرانيم، وقيل: منشا بن يوسف بن يعقوب، وهذا أشهر فلماذا ذكرناه هاهنا. ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: {هُوَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: 83-84].

وقال تعالى في سورة ص: {هُوَ الَّذِي كَرَّمْنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكَضْ بَرْجِيكَ هَذَا مُتَسَلِّبًا بَارِدًا وَشَرَابًا * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [41-44].

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال: أول نبي بعث إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهرون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفي بن سويلح بن أفرانيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متي من بني يعقوب، ثم أيوب بن زراح بن أموص بن لفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

وفي بعض هذا الترتيب نظر، فإن هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح، وقيل إبراهيم، والله أعلم.

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام، والعييد، والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب من ذلك جميعه، وابتلى في جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بها، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده، وألقى على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه، فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضُغف حالها، وقل ما لها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقود بأوده رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس بعد السعادة، والنعمة، والخدمة، والحرمة، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، بيتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه)).

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً، حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روي عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل، في قصة أيوب، خبر طويل في كيفية ذهاب ماله، وولده، وبلائه في جسده، والله أعلم بصحته.

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري، وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال؛ فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلي سبع سنين وأشهر، وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده، حتى فرج الله عنه، وعظم له الأجر، وأحسن الثناء عليه.

وقال حميد: مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة. وقال السدي: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة، فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفاً أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريها، بطعام طيب كثير، فأنت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره.

فقالت: خدمت به أناساً فلما كان الغد لم تجد أحداً، فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأنته به فأنكره أيضاً، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها ملحوقاً قال في دعائه: {أَيُّ مَسْنِي الصُّرِّ وَأَنْتِ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: كان لأيوب أخوان، فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط.

قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبعاً وأنا أعلم مكان جائع فصدقتي، فصدق من السماء وهما يسمعان.

ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار، فصدقتي فصدق من السماء وهما يسمعان.

ثم قال: اللهم بعزتك وخر ساجداً، فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل، عن الزهري، عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانين سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين.

قال له صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثماني عشر سنة لم يرحمه ربه فكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق)).

قال: ((وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: 42] فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو)).

قال: ((وكان له أندران: أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله صحابيتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض)).

هذا لفظ ابن جرير، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في (صحيحه) عن محمد بن الحسن بن قتيبة، عن حرمة، عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة فتتحى أيوب وجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه.

فقالت: يا عبد الله هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة.

قال: ولعل أنا أيوب.

قالت: أنتسخر مني يا عبد الله؟

فقال: ويحك أنا أيوب، قد رد الله عليّ جسدي.

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك، ومالك، ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: ثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال: فقيل له يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك)).

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي داود الطيالسي، وعبد الصمد عن همام عن قتادة به.

ورواه ابن حبان في (صحيحه)، عن عبد الله بن محمد الأزدي، عن إسحاق بن راهويه، عن عبد الصمد به. ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب، وهو على شرط الصحيح، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: ثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه، فقيل: يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: أي رب ومن يستغني عن فضلك.

هذا موقوف وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناده ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى.

قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك)).

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به.

وقوله: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} أي: اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به، فأنبع الله له عيناً باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالاً تاماً، ومالاً كثيراً حتى صب له من المال صباً مطراً عظيماً جرّاداً من ذهب.

وأخلف الله له أهله كما قال تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [الأنبياء: 84] فقيل: أحياهم الله بأعيانهم، وقيل: أجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة.

وقوله: {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} أي: رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضرر رحمة منا به، ورافة وإحساناً.

{وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ} أي: تذكره لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب، حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال: هي رحمة من هذه الآية، فقد أبعد النجعة، وأغرق النزاع.

وقال الضحاك عن ابن عباس: رد الله إليها شبابها، وزادها حتى ولدت له ستة وعشرون ولداً ذكراً.

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله: {وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ} إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص: 44] هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل: حلفه ذلك لبيعها ضفائرها. وقيل: لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأنته فأخبرته فعرف أنه الشيطان، فحلف ليضربها مائة سوط.

فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضِعْفًا، وهو كالعتكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط، ويبر ولا يحنث، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة، البارة الراشدة، رضي الله عنها.

ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الإيمان، وصدوره بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب، وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة، وقيل: إنه عاش أكثر من ذلك، وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء، رواه ابن عساکر بمعناه.

وأنه أوصى إلى ولده حومل، وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم. ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون، وكان عمره من السنين خمسا وسبعين، ولنذكر ههنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليها السلام.

قصة ذي الكفل الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [85-86].

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّرْنَا لَكُمْ إِبرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَذَكَرْنَا إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلًّا مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 45-48].

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه، مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً، وحكماً مقسطاً عادلاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

وروى ابن جرير، وابن أبي نجیح عن مجاهد: أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً، وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل، فسمى ذا الكفل.

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق داود بن أبي هند، عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل.

فجمع الناس فقال: من يتقبل لي بثلاث استخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا.

فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟

قال: نعم.

قال: فردهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر.

فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان فأعياهم ذلك، فقال: دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام الليل والنهار، إلا تلك النومة فدق الباب، فقال: من هذا؟

قال: شيخ كبير مظلوم.

قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا، حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، وقال: إذا رحمت فأنتني أخذ لك بحقك.

فانطلق وراح.

فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب فقال من هذا؟

فقال: الشيخ الكبير المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا تعدت فأنتني؟

فقال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني.

قال: فانطلق فإذا رحمت فأنتني، قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق علي النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك وراءك، فقال: إني قد أتيتك أمس، فذكرت له أمري.

فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان ألم أمرك قال: أما من قبلي والله فلم توت فانتظر من أين أتيت؟

قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه، فقال: أعدو الله؟

قال: نعم أعيبنتني في كل شيء فعلت ما ترى لأغضبنيك، فعصمك الله مني، فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به.

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن ابن عباس قريباً من هذا السياق.

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حجية الأكبر، وغيرهم من السلف نحو هذا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أنبأنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري - يعني أبا موسى رضي الله عنه - وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان رجل صالح، يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلي كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل.

ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرار - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال:

((كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأنته امرأة فأعطاه ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال: لها ما يبكيك أكرهتك؟

قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط، ثم نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك.

ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله لكفل)).

ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال حسن.

وذكر أن بعضهم رواه فوقه على ابن عمر فهو حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر فإن سعداً هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد، ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا، فانه أعلم.

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى...﴾ الآية [القصص: 43].

كما رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبخاري، وعوفي الأعرابي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوها قرده. ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ ورفع البزار في رواية له. والأشبه والله أعلم وفقه، فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام فمنهم:

أصحاب الرس.

قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: 38-39].

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: 12-14].

وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك. وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام، وفيه نظر أيضاً.

وروى ابن جرير قال: قال ابن عباس: أصحاب الرس؛ أهل قرية من قرى ثمود. وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق، عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرير وغيره:

أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث الله إليهم نبياً يقال له: حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرس، وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها، حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح دمشق وبني مدينتها، وسماها جبرون، وهي إرم ذات العماد.

وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد إلى عاد، يعني أولاد عاد بالأحقاف، فكذبوه وأهلكهم الله عز وجل، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة. فإله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي بكر بن أبي عاصم، عن أبيه، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الرس: بئر بأذربيجان.

وقال الثوري، عن أبي بكر، عن عكرمة قال: الرس: بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه فيها.

وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج، وهم أصحاب ياسين.

وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة، قلت: فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة، فقد أهلكوا بعامه، قال الله تعالى في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَآجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: 29] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء، وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضاً وتبروا. وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش: أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويههم، وتكفي أرضهم جميعها، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته، وقال:

إني لم أمت، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، فصدق به أكثرهم وافتننوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبياً، وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السهيلي: وكان يوحى إليه في النوم، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤها وعطشوا بعد ربهيم، وبيست أشجارهم وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن، وزئير الأسد، وصوت الضباع.

فأما ما رواه - أعني - ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود)).

وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود.

ثم إن أهل القرية عدوا على النبي، فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها، ويدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت.

قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى.

ثم إنه هب واحتمل حزمته، ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع. ثم إنه ذهب إلى الحفرة إلى موضوعها الذي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده، وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وأمنوا به وصدقوه.

قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له: ما ندري حتى قبض الله النبي عليه السلام، وأهب الأسود من نومه بعد ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة)).

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر. ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي، والله أعلم.

ثم قد رده ابن جرير نفسه وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن، قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكتهم، وهؤلاء قد بدا لهم فأمنوا بنبيهم، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم. ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس والله أعلم.

قصة قوم يس وهم أصحاب القرية

قال الله تعالى: {وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِدَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ * إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَيْنٌ لَمْ نَنْتَهُوا لِنَرْجَمَنَّكُمْ وَلِيَمَسَّكُمْ مِمَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْزَلْتُمْ بَلَاءَكُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفَعُونَ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونَ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يس: 13-29].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وكذا روي عن بريدة بن الحصيب، وعكرمة، وقتادة، والزهرى، وغيرهم.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب، ووهب أنهم قالوا: وكان لها ملك اسمه انطيوخس بن انطيوخس وكان يعبد الأصنام. فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق ومصدوق وشلوم، فكذبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح. وكذا قال ابن جرير عن وهب، عن ابن سليمان، عن شعيب الجبائي: كان اسم المرسلين الأوليين: شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً: لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين، كانوا أول مدينة أمنت بالمسيح في ذلك الوقت. ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركة النصراني، وهن: أنطاكية، والقدس، واسكندرية، ورومية، ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا.

وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كما قال في آخر قصتها، بعد قتلهم صديق المرسلين: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً، فكذبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك. فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا، والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا} يعني لقومك يا محمد.

{أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ} يعني المدينة.

{إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} * {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي: أيدهما بثالث في الرسالة.

{فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلمهم يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً، فأجابوهم بأن الله يعلم أن رسله إليكم، ولو كنا كذبتنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام.

{وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} أي: إنما علينا أي نبليكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} أي: تشاءمنا بما جئتمونا به.

{لَمْ يَنْهَوْا لَنُرْجِمَنَّكُمْ} بالمقال، وقيل: بالفعال ويؤيد الأول قوله: {وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} فوعدوهم بالقتل والإهانة.

{قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي: مردود عليكم.

{أَيْنَ دُكْرُكُمْ} أي: بسبب أننا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة.

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} أي: لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

وقوله تعالى: {هُجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} * {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} أي: يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجر ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

{إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي: إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه.

ثم قال مخاطباً للرسول: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ} قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم. وقيل معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهره، فعند ذلك قتلوه. قيل: رجماً، وقيل: عضاً، وقيل: وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

وقال تعالى في سورة الصافات: هُوَ إِنْ يُؤْتِسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَتَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [الصافات: 139-148].

وقال تعالى في سورة نون: هَافْصِيرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَلْبُدْبُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [القلم: 48-50].

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جببر، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب، الذي كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: هَلْ لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا أَي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها، فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى: هُوَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِذَا قَالَ مُنْقَرِفًا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [سبأ: 34].

وقوله: هَلْ لَوْلَا قَوْمٌ يُؤْتِسَ لِمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [يونس: 98] أي: آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي، كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين؛ الأظهر من السياق: نعم والله أعلم. كما قال تعالى: [لَمَّا آمَنُوا] وقال تعالى: هُوَا أَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [الصافات: 147] وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا في الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف.

وروى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث زهير عن سمع أبا العالية: حدثني أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: هُوَا أَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ قال: يزيدون عشرين ألفاً، فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب.

وعن ابن عباس: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً، وعنه: وبضعة وثلاثين ألفاً، وعنه: وبضعة وأربعين ألفاً، وقال سعيد بن جببر: كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً.

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده، أو هما أمتان على ثلاثة أقوال: هي مبسطة في التفسير. والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه، ركب سفينة في البحر، فلجت بهم واضطربت وماجت بهم، وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون، على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتربوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه. فلما اقتربوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقع عليه أيضاً، فشمّر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقع عليه أيضاً، لما يريد الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: هُوَا إِنْ يُؤْتِسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ.

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فليس لك برزق. فأخذه فطاف به البحار كلها، وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي، فخر الله ساجداً وقال: يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. فقال مجالد، عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية. وقال قتادة: مكث فيه ثلاثاً. وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنت بفضل منك نجيت يونساً * وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن، وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يوماً، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجبية، ويقتمح به لجج الموج الأحاجي، فسمع تسييح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسييح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع، وما بينها وما تحت الثرى.

فعند ذلك وهنالك قال ما قال: بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ هَمُّضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87-88] ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن ضيق. وقيل معناه: نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة قدر وقدر كما قال الشاعر:

فلا عائدُ ذاك الزمانُ الذي مضى * تباركت ما يقدرُ يكن فلك الأمر.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن كعب، والحسن، وقاتدة، والضحاك: ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ * للبت في بطنه إلى يوم يُبعثون ﴿قيل معناه: لولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه، والرجوع إليه للبت هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبیر في إحدى الروايتين عنه.

وقيل معناه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً. قاله: الضحاك بن قيس، وابن عباس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والسدي، وعطاء بن السائب، والحسن البصري، وقاتدة، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي:

((يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)).

وروى ابن جرير في (تفسيره)، والبخاري في (مسنده)، من حديث محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قالت: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحمًا ولا تكسر عظمًا، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًا فقال في نفسه: ما هذا؟

فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر.

قال فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه.

فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة.

قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر.

قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح!

قال: نعم.

قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت ففدّفه في الساحل)).

كما قال الله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ هذا لفظ ابن جرير إسناداً وممتناً. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد كذا قال.

وقد قال ابن أبي حاتم في (تفسيره): حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه، سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة.

فقال: أما تعرفون ذلك؟

قالوا: يا رب ومن هو؟

قال: عبدي يونس.

قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملاً متقبلاً، ودعوة مجابة.

قالوا: يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فنتجيه من البلاء؟

قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء)).

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب به.

زاد ابن أبي حاتم قال: أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء وانبت الله عليه اليقطينة.

قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟

قال: شجرة الدباء.

قال أبو هريرة: وهيا الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض، أو قال: هشاش الأرض.

قال فتفتش عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة، حتى نبت.

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فأنبت يقطينا عليه برحمة * من الله لولا الله أصبح ضاوباً

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه، ويزيد الرقاشي ضعيف ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذلك بهذا والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَتَبَدَّلْنَا﴾ أي: ألقيناه {بِالْعَرَاءِ} وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها.

{وَهُوَ سَقِيمٌ} أي: ضعيف البدن.

قال ابن مسعود: كهية الفرخ ليس عليه ريش.

وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: كهية الضبي حين يولد، وهو المنفرش ليس عليه شيء.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يساف، وعبد الله بن طاوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حكم جملة؛ منها: أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نياً ومطبوخاً وبشره وبيزره أيضاً. وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك.

وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية، وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: الكرب والضيق الذي كان فيه.

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متى)).

قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال: ((هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَتَدَاى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به)).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب قال:

قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعني: ابن سعد، عن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من دعا بدعاء يونس أستجيب له)).

قال أبو سعيد الأشج: يريد به {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} وهذان طريقان عن سعد وثالث أحسن منهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد، وهو ابن أبي وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فمأ عينيه مني ثم لم يردد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟

قال: لا، وما ذاك؟

قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه، فمأ عينيه مني ثم لم يردد علي السلام.

قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت علي أخيك السلام؟

قال: ما فعلت.

قال سعد: قلت: بلى حتى حلف وحلفت.

قال ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((من هذا أبو إسحاق؟))

قال: قلت: نعم يا رسول الله.

قال: ((فمه؟))

قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك.

قال: ((نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له)).

فضل يونس

قال الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين} وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)).

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه)).

ورواه أحمد، ومسلم، وأبو داود من حديث شعبة به.

قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه: لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث: هذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((وما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)). تفرد به أحمد.

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي يحيى العتاب، عن مجاهد، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متى)).

إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، سمعت حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)).

وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به.

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على العالمين.

قال البخاري في آخره: ((ولا أقول إن أحداً خير من يونس بن متى)) أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس.

والقول الآخر: لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى، كما قد ورد في بعض الأحاديث لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى.

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

قصة موسى الكليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 51-53] وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسطة مطولة، وغير مطولة، وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير، وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات، التي ذكرها السلف وغيرهم، إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [القصص: 1-6].

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا فذكر: أنه يتلو على نبيه خبر موسى، وفرعون بالحق أي: بالصدق الذي كان سامعه مشاهد للأمر معين له.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا أَي: تجبر وعتا وطغى، وبغى وأثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعاً أي: قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع.

﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم: شعب بني إسرائيل، الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر، الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف، وأردنها وأدناها.

ومع هذا ﴿يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح: أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأترونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام، يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وذكر السدي، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزاة، والسحرة، وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَوَدَّ أَنْ يُوتِرَهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهم: بنو إسرائيل.

﴿وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: الذين يؤل ملك مصر وبلادها إليهم.

﴿وَوَدَّ أَنْ يُوتِرَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَوَدَّ أَنْ يُوتِرَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَوَدَّ أَنْ يُوتِرَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سنجعل الضعيف قوياً، والمقهور قادراً، والدليل عزيزاً، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا...﴾ الآية [الأعراف: 137].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَعَيْنُونَ * وَكُلُّهُمْ وَمَقَامٌ كَرِيمٌ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 59-57]. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

والمقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر، بل هو باطل، وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى: ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَوَدِينًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا﴾.

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذراً من وجود موسى. هذا والقدر يقول: يا أيها ذا الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه، واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا يخالف أقداره، أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك، وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعداه، ولا تطلع على سر معناه.

ثم يكون هلاكك في دنياك وأخرائك، على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحوّل والقوة والمشينة، التي لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً، وأن يتركوا عاماً.

فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعاً، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل.

فلما وضعت ألهمت، أن اتخذت له تابوتاً، فربطته في حبل، وكانت دارهما متاخمة للنيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا حَفَّتْ عَلَيْهِ فَالْقِيَةِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 7-9].

هذا الوحي: وحي إلهام وإرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنَ الْعَمَلِ قِسْمًا فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: 68-69] وليس هو بوحى نبوة، كما زعمه ابن حزم، وغير واحد من المتكلمين؛ بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري، عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلي: واسم أم موسى أيارخا، وقيل: أيأذخت.

والمقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وألقي في خلدنا وروعها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قيصوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً، صارت اللام معللة كغيرها، والله أعلم.

ويقوي هذا التقدير الثاني قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ [القصص: 8] وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ المتابعين لهما ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرون على فتحه، حتى وضعه بين يدي امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته، حكاه السهيلي، فإله أعلم.

وسياتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة.

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، والجلالة الموسوية، فلما رأته وقع نظرها عليه، أحبته حباً شديداً جداً، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه. فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا. أي: لا حاجة لي به والبلاء موكل بالمنطق.

وقولها: {عَسَى أَنْ يَبْفَعَنَا} [القصص: 9] وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه.

{أَوْ نَتَّخِذُهُ وِلْدَانًا} وذلك أنهما تينياه؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد.

قال الله تعالى: {هُوَ هُمْ لَّا يَشْعُرُونَ} أي: لا يدرون ماذا يريد الله بهم، حين قيضهم لالتقاطه من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده، وعند أهل الكتاب: أن التي التقطت موسى دربته ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلية، وهذا من غطهم على كتاب اله عز وجل.

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِي فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص: 10-13].

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وأبو عبدة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} أي: من كل شيء من أمور الدنيا، إلا من موسى.

{إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ} أي: لتظهر أمره، وتسال عنه جهرة.

{لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} أي: صبرناها وثبتناها {لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ} وهي ابنتها الكبيرة، قصيه أي: اتبعني أثره، واطلبي له خبره {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ} قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريد، ولهذا قال: {هُوَ هُمْ لَّا يَشْعُرُونَ} وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً، فحاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل.

كما قال تعالى: {هُوَ حَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ} فأرسلوه مع القوايل والنساء إلى السوق، لعل يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه، إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}.

قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقهم عليه؟.

فقالت: رغبة في صهر الملك، ورجاء منفعتهم، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه فلما أرضعتها التقم ثديها، وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً.

وذهب البشير إلى أسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها، وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبى عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسله معي، فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} أي: كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال له: {هُوَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَوْمِ فَلْيُلْهِمِهُ نَارُ السَّاجِدِ بِأَخْذِهِ عَدُوًّا لِي وَعَدُوًّا لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} [طه: 37-39].

إذ قال قتادة، وغير واحد من السلف أي: تطعم، وترفه، وتغذى بأطيب المأكول، وتلبس أحسن الملابس، بمرأى مني وذلك كله بحفظي وكلانتي لك، فيما صنعت بك لك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40] وسنورد حديث الفتون في موضعه، بعد هذا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 14-17].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها، واحسانه بذلك، وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق - وهو سن الأربعين - في قول الأكثرين، آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به، كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، وقتادة، والسدي: وذلك نصف النهار.

وعن ابن عباس: بين العشائين.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتهاوشان.

﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: إسرائيلي.

﴿هُوَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: قبطي. قاله: ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق.

﴿فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبه إلى تبنی فرعون له، وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهاً، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله أي: من الرضاة.

فلما استعاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي، أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَرَهُ﴾ قال مجاهد أي: طعنه بجمع كفه.

وقال قتادة: بعصا كانت معه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فمات منها. وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: من العز والجاه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 18-21].

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً - أي من فرعون وملائه - أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يلتفت.

فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي: يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ}.

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك، وأقبل على القبطي {قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِنَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}.

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام: الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي، اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ} فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه.

ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيلي، فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القاتل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استنصره عليه ما دله على هذا، والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ سَاعِياً إِلَيْهِ مُشْفِقاً عَلَيْهِ فَقَالَ: {قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ} أي: من هذه البلدة {إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} أي: فيما أقوله لك.

قال الله تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} أي: فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قاتلاً:

{رَبِّ نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا نَوَّجَهُ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: 21-24].

يخبر تعالى عن خروج عبده، ورسوله، وكليمه من مصر خائفاً يترقب، أي: يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

{وَلَمَّا نَوَّجَهُ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} أي: اتجه له طريق يذهب فيه.

{قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} أي: عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. وكذا وقع أو صلته إلى مقصود، وأي مقصود.

{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ} وكانت بئراً يستقون منها. ومدين هي: المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام. وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء.

{وَلَمَّا وَرَدَ} الماء المذكور.

{وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} أي: تكففتان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات.

وهذا أيضاً من الغلط، وكأنه كن سبعة ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذلك محفوظاً، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ قَالُوا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر، كما كان.

قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة رجال، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ قالوا: وكان ظل شجرة من السمر. روى ابن جرير، عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل، وورق الشجر، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وأنه لمحتاج إلى شق تمره.

قال عطاء بن السائب: لما ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة.

﴿فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * قالت: إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَثَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ مِنْكَ سِتْرًا إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 25-28].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل، و ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتا ما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحرير ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صرحت له بهذا، لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حياتها وصيانتها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾ وأخبره خبره، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر، فراراً من فرعونها، قال له ذلك الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: خرجت من سلطانهم فلتست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل هو: شعيب عليه السلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصري، ومالك بن أنس، وجاء مصرحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر.

وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام، وتزوج بابنته.

وروى ابن أبي حاتم وغيره، عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه: شعيب. وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين.

وقيل: إنه ابن أخي شعيب.

وقيل: ابن عمه.

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقيل: رجل اسمه يثرون، هكذا هو في كتب أهل الكتاب، يثرون: كاهن مدين، أي: كبيرها، وعالمها.

قال ابن عباس، وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون، زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب، زاد ابن عباس صاحب مدين.

والمقصود أنه لما أضافه، وأكرم مثواه، وقصَّ عليه ما كان من أمره، بشَّره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنيتين لأبيها: {يَا أَبَتَ اسْتَأْجِرْهُ} أي: لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين.

قال عمرو ابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟

فقالت: إنه رفع صخرة لا يطبق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاقذفي لي بحصاة، أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامراته أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} استدلت بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدین، أو الثوبین، ونحو ذلك أنه يصح لقوله: إحدى ابنتي هاتين، وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة، والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة، والكسوة، كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في (سننه) مترجماً عليه في كتابه: باب إستئجار الأجير على طعام بطنه.

حدثنا محمد بن الصفي الحمصي، حدثنا بقیة بن الولید، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، قال: سمعت عتبة بن الدر يقول: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طس حتى إذا بلغ قصة موسى، قال:

((إن موسى عليه السلام أجر نفسه ثمانين سنين أو عشرة على عفة فرجه، وطعام بطنه)).

وهذا من هذا الوجه لا يصح، لأن مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي، ضعيف عند الأئمة، لا يحتج بتفرده.

ولكن قد روي من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر، حدثني ابن لهيعة، وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، قال:

سمعت عتبة بن النذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن موسى عليه السلام أجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه)).

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأبيهما قضيت فلا عدوان علي والله على مقالتنا سامع ومشاهد، ووكيل علي وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفتس، عن سعيد بن جبیر، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى؟

فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله.

فقدت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

تقرّد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه النسائي في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة.

وقد رواه ابن جرير، عن أحمد بن محمد الطوسي، وابن أبي حاتم، عن أبيه كلاهما، عن الحميدي، عن سفيان بن عيينة، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟))

قال: أتمهما وأكملهما)).

وإبراهيم هذا غير معروف، إلا بهذا الحديث.

وقد رواه البزار، عن أحمد بن أبان القرشي، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره.

وقد رواه سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مرسل أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل، فسأل جبريل إسرافيل، فسأل إسرافيل الرب عز وجل، فقال: أبرهما وأفاهما.

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم، من حديث يوسف بن سرح مرسل، ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى.

قال: ((أفاهما، وأتمهما)).

وقد رواه البزار، وابن أبي حاتم، من حديث عويد بن أبي عمران الجوني - وهو ضعيف - عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى، قال:

((أفاهما، وأبرهما)).

قال: ((وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما)).

وقد رواه البزار، وابن أبي حاتم، من طريق عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح، عن عتبة بن النذر أن رسول الله قال:

((إن موسى أجر نفسه بعة فرجه، وطعام بطنه)).

فلما وفي الأجل، قيل يا رسول الله: أي الأجلين؟

قال: ((أبرهما وأفاهما)).

فلما أراد فراق شعيب، سأل امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت من غنمه، من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداً حسناً.

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردتها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: فآتمنت، وأنثت، ووضعنت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش، ولا ضبوب، ولا عزوز، ولا ثعول، ولا كموش، تفوت الكف.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو اقتحمت الشام، وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية)).

قال ابن لهيعة: الفشوش: واسعة السخب. والضبوب: طويلة الضرع تجره، والعزوز: ضيقة السخب، والثعول: الصغيرة الضرع، كالحلمتين، والكموش: التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره.

وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك، قال:

لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها، فعمد فوضع خيالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام، وهذا إسناد جيد رجاله ثقات، والله أعلم.

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان، أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام، فإله أعلم.

{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِهْمٌ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [القصص: 29-32].

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ} وعن مجاهد أنه أكمل عشرًا وعشرًا بعدها. وقوله: {وَسَارَ بِأَهْلِهِ} أي: من عند صهره ذاهباً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم، أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم، وغنم قد استفادها مدة مقامه.

قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يرى شيئاً، واشتد الظلام والبرد، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه عن يمينه، فقال لأهله: {امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً} وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد.

{لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ} أي: لعلني أستعلم من عندها عن الطريق.

{أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة، لقوله في الآية الأخرى: {هُوَلَّ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى} [طه: 9-10].

فدل على وجود الظلام، وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكل في سورة النمل في قوله: {قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [النمل: 7].

وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عندها هدى وأي هدى، واقتبس منها نوراً وأي نور. قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: 30].

وقال في النمل: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: 8] أي: سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

{يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النمل: 9]

وقال في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْيِبَهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: 11-16].

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها، فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد، فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: 44]. وكان موسى في واد اسمه: طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور، مهابة له وخوفاً على بصره، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14].

أي: أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له، ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بد من كونها ووجودها ﴿لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [أي: من خير وشر].

وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها، ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطباً وموانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء، الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17]. أي: أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صحبتها؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: 18] أي: بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 19-20] وهذا خارق عظيم، وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهاناً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل: ما هذه التي في يدك؟

قال: عصاي. قال: ألقها إلى الأرض.

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20] فهرب موسى من قدامها، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبيها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده.

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10] أي: قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة، وأنياب تصك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات.

يقال: الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً. فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي: هارباً منها لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يلتفت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ [القصص: 21].

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها، ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: 21] فيقال: إنه هابها شديداً فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها.

وعند أهل الكتاب بذنبيها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربيين.

ثم أمره تعال بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألاً كالقمر بياضاً من غير سوء أي: من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: {اسْتَلِكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} قيل: معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك.

وهذا وإن كان خاصاً به، إلا أن بركة الإيمان به حق، بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: {وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [النمل: 12] أي: هاتان الآيتان: وهما العصا واليد، وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: {فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

ومع ذلك سبع آيات أخر، فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان، حيث يقول تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاوِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: 101-102].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ} * فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَا مُوسَى * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [130-133].

كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه، وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات، فإن التسع: من كلمات الله القدسية، والعشر: من كلماته الشرعية. وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} * قَالَ سَنَنْدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِيُونَ} [القصص: 33-35].

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله، وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربه عز وجل، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} أي: اجعله معي معيناً، وردءاً ووزيراً يساعدي، ويعينني على أداء رسالتك إليهم، فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً.

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله: {سَنَنْدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا} أي: برهاناً. {فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ} أي: فلا ينالون منكم مكرهاً بسبب قيامكم بآياتنا. وقيل: ببركة آياتنا.

{أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِيُونَ} وقال في سورة طه: {ادْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي} [طه: 24-28].

قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهم بقتله فخافت عليه أسية وقالت: إنه طفل فاختره بوضع تمره وجمره بين يديه، فهم بأخذ التمرة، فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها، فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسول إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية، ولهذا قال فرعون - قبحه الله - فيما زعم إنه يعيب به الكليم، ﴿وَلَوْ كُنَّا كَمَا كُنَّا بِبُيُوتِنَا﴾ [الزخرف: 52] أي: يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 32-36] أي: قد أجبتك إلى جميع ما سألت، وأعطيتك الذي طلبت، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53].

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟

فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هرون.

فأوحى إليه قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدَأُ لِسَانِي فَأرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * قَالَ كُلًّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَاتَّبَعَا فِرْعَوْنَ فَفُوقَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْبَنِي فَعَلْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: 10-19].

تقدير الكلام: فأتيها فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلنا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا، ويتفرغون لتوحيدته ودعائه، والتضرع لديه، فتكبر فرعون في نفسه، وعنا وطغى ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: أما أنت الذي ربينا في منزلنا، وأحسننا إليه، وأنعمنا عليه مدة من الدهر. وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدينة، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْبَنِي فَعَلْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا وجحدت نعمتنا.

﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: 20] أي: قبل أن يوحى إلي وينزل علي.

﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 21] ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿هُوَ يَتْلُكَ نِعْمَةً تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 22] أي: وهذه النعمة التي ذكرت، من أنك أحسنت إلي وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم في أعمالك وخدمك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 23-28].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقابلة والمحاورة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية، وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله ﴿فَحَسْرَتَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النار: 23-24].

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: 38] وهو في هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مريب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: 14].

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} لأنهما قالاه: {إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟

فأجابه موسى قائلاً: {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} يعني: رب العالمين، خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة من السحاب، والرياح، والمطر، والنبات، والحيوانات، التي يسلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بدلها من موجد، ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

قال أي فرعون لمن حوله من أمرائه ومرازيته ووزرائه، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: {أَلَا تَسْتَمْعُونَ} يعني: كلامه هذا. قال موسى مخاطباً له ولهم: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ}.

أي: هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد، والقرون السالفة في الأبد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه، ولم يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين، وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: {سُنِّرِيهِنَّ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِنَّ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53].

ومع هذا كله، لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الشعراء: 27-28]

أي: هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة، المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخريين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون، وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته {قَالَ لئن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} [الشعراء: 29-33].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما: العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي: عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر.

حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعابنه أخذه رهب شديد، وخوف عظيم، بحيث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها، وأخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك.

بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته، ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين، والحجة الباهرة الفاطحة على فرعون وملائه، وأهل دولته وملته، والله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ * وَاصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 40-46].

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين، بمشيئتي وقدرتي وتدبيرى، فلبثت فيها سنين.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: منى لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري.

﴿وَاصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ أي: اصطفتك لنفسى برسالتى وبكلامى.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ يعنى: ولا تفترأ في ذكري إذ قدمتما عليه، ووفدتما إليه فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجّة عليه.

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى:

((إن عبدي كل عبدي الذي بذكرني وهو ملاق قرنه)). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا....﴾ {الأنفال: 45}.

ثم قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وهذا من حلمه تعالى وكرمه، ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى، كما قال لرسوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّمَا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ {الأنفال: 46}.

قال الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا﴾ أعذرا إليه قولاً له إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ونارا.

وقال وهب بن منبه: قولاً له إني لي العفو والمغفرة، أقرب منى إلى الغضب والعقوبة.

قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبيب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه!

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ﴾ [طه: 45] وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ مُسْتَمْعُونَ﴾ [الشعراء: 15] ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: 47-48].

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فيدعوا إلى الله تعالى أن يعيده وحده لا شريك له، وأن يرسل معهم بني إسرائيل، ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: 47] وهو البرهان العظيم في العصى واليد.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ تفيد مفيد ببلغ عظيم، ثم تهداه وتوعده على التكذيب فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقلبه.

وقد ذكر السدي وغيره: أنه لما قدم من بلاد مدين، دخل على أمه وأخيه هرون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل - وهو اللفت - فأكل معهما، ثم قال: يا هرون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق.

فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل.

وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين؛ لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما، فإله أعلم.

ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقة بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هرون اللاوي، يعني من نسل لاوي بن يعقوب، سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات، وقال له: سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبها بأرض مصر.

وأوحى الله إلى هرون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل، وذهبا إلى فرعون، فلما بلغاه رسالة الله قال: من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل؟

وقال الله مخبراً عن فرعون: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكًا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: 49-55].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: {فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} أي: هو الذي خلق الخلق، وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وأجالاً، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه، لكمال علمه وقدرته وقدره، وهذه الآية كقوله تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: 1-3] أي: قدر قدرأ، وهدى الخلائق إليه.

{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق، المقدر، الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟

{قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} أي: هم وإن عبدوا غيره، فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك، كل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر، من صغير وكبير، وسيجزئهم على ذلك ربي عز وجل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة.

لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده، في كتاب لا يضل عنه شيء، ولا ينسى ربي شيئاً، ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً، والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد، ودوابهم، وأنعامهم، كما قال: {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ} [طه: 54] أي: لذوي العقول الصحيحة المستقيمة، والفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرزاق.

وكما قال تعالى: {يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 21-22].

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه، نبه به على المعاد، فقال: {مِنْهَا} أي: من الأرض خلقناكم {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}.

كما قال تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: 29].

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: 27].

ثم قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضَحَى} [طه: 56-59].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون، وكثرة جهله، وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم، ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام، أن يظهر آيات الله، وحججه، وبراهينه جهرًا، بحضرة الناس، ولهذا قال: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ} وكان يوم عيد من أعيادهم، ومجتمع لهم.

{وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضَحَى} أي: من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرًا، لأنه على بصيرة من ربه ويقين، أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: {فَقَتَلُوا فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنَّى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَّا عُورًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطُرُوقِكُمْ الْمُتَلَي * فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى} [طه: 60-64].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، في فنههم غاية، فجمعوا له من كل بلد، ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير.

فقال: كانوا ثمانين ألفاً، قاله محمد بن كعب.

وقيل: سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة.

وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً.

وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفاً.

وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفاً.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً، وروي عنه أيضاً: أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء، فیتعلموا السحر ولهذا قالوا: وما أكرهتنا عليه من السحر، وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه، وأهل دولته، وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: {لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ} [الشعراء: 40].

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة، فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال: {لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَّا عُورًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ...} [طه: 61-62] قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقاتل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر فانه أعلم، وأسروا التناجي بهذا وغيره.

{قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا} يقولون: إن هذا وأخاه هرون ساحران، عليمان، مطبقان، متقنان لهذه الصناعة، ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما، ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة.

{فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوًّا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى} وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا، ويتواصوا، ويأتوا جميع ما عندهم من المكيدة، والمكر، والخديعة، والسحر، والبهتان، وهيهات كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء أنى يعارض البهتان والسحر والبهتان، خوارق العادات التي أجراها الدين، على يدي عبده الكريم، ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان، الذي يبهر الأبصار، وتحرار فيه العقول والأذهان.

وقولهم: {فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ} أي: جميع ما عندكم.

{ثُمَّ اتُّوًّا صَفًّا} أي: جملة واحدة، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى * فُلْنَا لِمَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: 65-69].

لما اصطف السحرة، ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم، قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن تلقي قبلك، {قَالَ بَلْ أَلْقُوا} أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً، يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون: {بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشعراء: 44].

قال الله تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: 116].

وقال تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى} أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده، فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: {تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: {مَا جِئْتُ بِهَ السَّحْرِ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: 81-82].

وقال تعالى: {هُوَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقَ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: 117-122].

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها، وهربوا سراعاً، وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها.

وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدتهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم، أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة، ولا محال، ولا خيال، ولا زور، ولا بهتان، ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق.

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم، وخرروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: آمنا برب موسى وهرون.

كما قال تعالى: ﴿فَأَتَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالَ أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: 70-76].

قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والقاسم بن أبي بردة، والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة، تهيأ لهم، وتزخرف لقدمهم، ولهذا لم يلقوا إلى تهويل فرعون، وتهديده، ووعيده.

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا، وأشهروا ذكروا موسى وهرون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزع ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 123].

أي: هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة ريعتي، ثم تهدد وتوعد وابرق وارعد وكذب فأبعد قانلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿...إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123].

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر.

ثم هو لم يجمعهم، ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم، واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحق، ومن حواضر بلاد مصر، والأطراف ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تَوْكُ يَا سَاحِرُ عَلِيمٌ * وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَلْجَرَّاءُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ * قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَسْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نَنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبِّنَا أَوْرَعٌ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّانَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 103-126].

وقال تعالى في سورة يونس:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْقِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُطِئِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 82-75].

وقال تعالى في سورة الشعراء: {قَالَ لَنْ أَسْخَرَ مِنْكَ يَا عِزْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ * قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَاتَّ بِهٖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا ثُوْرُكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلْفُفٌ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ * قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ * رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 29-51].

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} وأتى بهتان يعلمه العالمون، بل العالمون في قوله: {لَكُمْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}.

وقوله: {لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ} يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه. {وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} أي: ليجعلهم مثلة ونكالا، لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته، ولهذا قال: {وَلَأَسْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} أي: على جدوع النخل لأنها أعلى وأشهر.

{وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَسَدٌ عَدَابًا وَأَبْقَى} يعني: في الدنيا.

{قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} أي: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البيِّنات والدلائل القاطعات.

{وَالَّذِي قَطَرْنَا} قيل: معطوف، وقيل: قسم.

{فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} أي: فافعل ما قدرت عليه. {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي: إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله.

{إِنَّا أَمَّا بَرَبْنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} أي: وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب.

وأبقى أي: وأدوم من هذه الدار الفانية.

وفي الآية الأخرى: {قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي: ما اجترمناه من المآثم والمحارم. {هَٰؤُلَاءِ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي: من القبط، بموسى وهرون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً: {هَوَمَا نَنْقُمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ أَمَّا بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا} أي: ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا.

{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المرید. {وَتَوَقَّأْنَا مُسْلِمِينَ}.

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} يقولون له: فإياك أن تكون منهم فكان منهم.

{مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَمِمَّا عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} أي: المنازل العالية.

{جَنَّاتٌ عِدْنَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} وذلك جزاء من تزكى {فاحرص أن تكون منهم، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمنع، وحكم العلي العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم؛ يصب من فوق رأسه الحميم.

ويقال له على وجه التقرُّيع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح، والذميم اللئيم: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: 49].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صليهم وعذبهم رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: {رَبَّنَا أفرغ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ}

فصل:

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم، لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعداً عن الحق.

قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف:

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فرعونَ أَنذِرْ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129-127].

يخبر تعالى عن الملاء من قوم فرعون وهم: الأمراء، والكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى.

قالوا: {أَنْذِرْ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ آلِهَتَكَ} يعنون - قبحهم الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط - لعنهم الله -

وقرأ بعضهم: {وَيَدْرُكُ آلِهَتَكَ} أي: وعبادتك. ويحتمل شيئين: أحدهما: ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى، الثاني: ويذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله.

{قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} أي: لنلا يكثر مقاتلتهم.

{وَأِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} أي: غالبون.

{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} أي: إذا هموا هم بأذيتكم، والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم، واصبروا على بليتكم.

{إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} أي: فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة.

كما قال في الآية الأخرى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَتَجْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس: 84-86].

وقولهم: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} أي: قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا.

{قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129].

وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فرعونَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [غافر: 23-24].

وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه، وكان ذا مال جزيل جداً كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: 25] وهذا القتل للعلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة، والإذلال، والتقليل لملا بني إسرائيل، لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصلون على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26] ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكراً، وهذا منه، فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام.

{وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر: 27] أي: عذت بالله، ولجأت إليه بجنابه، من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء.

وقوله: {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ} أي: جبار عنيد، لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء، ولهذا قال: {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}

{وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ} [غافر: 28-29]

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتُم إيمانه من قومه، خوفاً منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليًا، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى، والله أعلم.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، والذي جاء من أقصى المدينة، وامرأة فرعون.

رواه ابن أبي حاتم.

قال الدارقطني: لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلي، وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير. فأنه أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتُم إيمانه، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملائه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)).

وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لأشد جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه، لأن فيه عصمة نبي، ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتُمه، والأول أظهر. والله أعلم.

{اتَّقُوا اللَّهَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} أي: من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام والاحترام والموادعة، وترك الانتقام يعني لأنه {وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} أي: بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عن أرسله.

فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ولا يضركم ذلك. ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ وقد تعرضتم له ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: وأنتم تشققون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم.

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحترار والعقل التام.

وقوله: ﴿يَأْقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكَ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: 29] يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم، وذلوا بعد عزهم، وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه، من الملك والأملاك، والدور والقصور، والنعمة والحبور.

ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة، إلى أسفل السافلين، ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق، البار الراشد التابع للحق، الناصح لقومه، الكامل العقل: ﴿يَأْقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكَ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالين على الناس حاكمين عليهم.

﴿فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس مالك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي: في جواب هذا كله ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أقول لكم إلا ما عندي، ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وكذب في كل من هذين القولين، وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه، أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً.

قال الله تعالى إخباراً عن موسى:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَغِيفًا﴾ [الإسراء: 102-104].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 13-14].

وأما قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد كذب أيضاً، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال، إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال، في دعواه أنه رب، تعالى الله ذو الجلال.

قال الله تعالى:

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ سُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سُلْفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: 51-56].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَسْرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: 20-26].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: 96-99].

والمقصود ببيان كذبه في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ} [غافر: 30-35].

يحذروهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم، من النقمات والمثالث مما تواتر عندهم وعند غيرهم، ما حل بقوم نوح وعاد وتمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة، في صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النعمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء، وخوفهم يوم القيامة - وهو يوم التناد -.

أي: حين ينادي الناس بعضهم بعضاً حين يولون مدبرين إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل. {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَا مَعْزِلُ آيِنَ الْمَقَرِّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: 10-12].

وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُدُوا لِمَا تَتَّقُونَ إِنَّا بِسُلْطَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: 33-36].

وقرأ بعضهم: (يوم التناد) بتشديد الدال، أي: يوم الفرار. ويحتمل أن يكون يوم القيامة، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار، ولات حين مناص.

{فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرَكَضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 12-13] ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر، ما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته.

وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان أي: من سحيتهم التكذيب بالحق، ومخالفة الرسل ولهذا قال: {فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} [غافر: 34] أي وكذبتم في هذا، ولهذا قال: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} [غافر: 35-34].

أي: يريدون حجج الله وبراهينه، ودلائل توحيدة بلا حجة ولا دليل عندهم من الله، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقته، أي: يبغض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ} قرىء بالإضافة وبالنعت، وكلاهما متلازم. أي: هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها أي: يختم عليها بما فيها.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُبْلَغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} [غافر: 36-37].

كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص: 33].

وقال ههنا: {لَعَلِّي أُبْلَغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ...} أي: طرقها ومسالكها. {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} ويحتمل هذا معنيين:

أحدهما: وإني لأظنه كاذباً في قوله: إن للعالم رباً غيري.

والثاني: في دعواه أن الله أرسله.

والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع، والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال: فأطلع إلى إله موسى أي: فأسأله هل أرسله أم لا.

﴿رَأَى لَأُظَنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي: في دعواه ذلك، وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، وأن يحثهم على تكذيبه.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: 37] وقرئ: وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب.

قال ابن عباس، ومجاهد يقول: إلا في خسارة أي: باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً، أعني السماء الدنيا، فكيف بما بعدها من السموات العلى؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم يرب بناء أعلى منه، وإن كان مبنياً من الأجر المشوي بالنار. ولهذا قال: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا﴾ [القصص: 38].

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه، وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة، وأودوا غاية الأذية.

ولهذا قالوا لموسى: ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فوعدهم بأن العقاب لهم على القبط، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوة. ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 38-40].

يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه، ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبتهم في طلب الثواب عند الله، الذي لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه، الذي يعطي على القليل كثيراً، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها.

وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، التي من وافاها - مؤمناً قد عمل الصالحات - فلهم الجنات العاليات، والغرف الأمانات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَنَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 41-46].

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهم يدعونهم إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون.

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ﴾.

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿لِمَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار، فكيف تملكه يوم القرار؟

وأما الله عز وجل، فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبيعهم، فيدخل طائعهم الجنة، وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَنَدَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال الله: ﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحال، التي ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم.

ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾ أي: أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير. والله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، وإزاحة الشبه عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم، فبالترهيب تارة، والترغيب أخرى، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَبَّيْنَاهُ بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُحْزِنَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 130-133].

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون، وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجذب التي لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع. وقوله: ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهي: قلة الثمار من الأشجار. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فلم ينتفعوا ولم يرعوا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ وَالْخُصْبُ وَنَحْوَهُ﴾ قالوا لنا هذه ﴿أي: هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَبَّيْنَاهُ بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا، ولا يقولون في الأول أنه بركتهم وحسن مجاورتهم لهم، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشر أسندوه إليه، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُحْزِنَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - فلننا نؤمن بك، ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية.

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96-97].

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 133].

أما الطوفان فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المتلفة للزرع والثمار. وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، والضحاك.

وعن ابن عباس، وعطاء: هو كثرة الموت.

وقال مجاهد: الطوفان الماء، والطاعون على كل حال.

وعن ابن عباس: أمر طاف بهم.

وقد روى ابن جرير، وابن مردويه، من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مينا، عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((الطوفان الموت)).

وهو غريب.

وأما الجراد: فمعروف.

وقد روى أبو داود، عن أبي عثمان، عن سلمان الفارسي قال: سئل رسول الله عن الجراد فقال:

((أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه)).

وترك النبي صلى الله عليه وسلم أكله إنما هو على وجه التقدير له، كما ترك أكل الضب، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث، لما ثبت في (الصحيحين) عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات تأكل الجراد.

وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير.

والمقصود أنه استاق خضراءهم، فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداءً.

وأما القمل: فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه: أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وقال سعيد بن جبيرة، والحسن: هو دواب سود صغار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القمل: هي البراغيث.

وحكى ابن جرير عن أهل العربية: أنها الحمنان: وهو صغار القردان- فوق القمقامة - فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف، وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به، فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة، هذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية، وهذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل.

قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مفلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر وتابع الله عليه بالآيات، فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم آيات مفصلات، فأرسل الطوفان: وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركده، لا يقدر على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً.

فلما بلغهم ذلك قالوا يا موسى: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: 134] فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل.

فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم، فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم.

فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا، أرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه، فلما جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ * فَاثْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 134-136].

يخبر تعالى عن كفرهم، وعتوهم، واستمرارهم على الضلال والجهل، والاستكبار عن إتباع آيات الله، وتصديق رسوله، مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً.

وكلما شاهدوا آية وعابنوها وجهدهم وأضنكهم، حلفوا وعاهدوا موسى، لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، ولنرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق، ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى، هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون، ويعدون ولا يفون، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل.

ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا، والعظيم الحليم القدير ينظرهم، ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين، كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين، في سورة حم والكتاب المبين:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ * وَتَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيِّنٌ * قُلُوبًا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا أَسْفَوْنَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} [الزخرف: 46-56].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم، إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون، وعن الحق ينصرفون، فأرسل الله عليهم الآيات تترى، يتبع بعضها بعضاً، وكل آية أكبر من التي تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله:

{وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ} لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه. قال الله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ}.

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده وحسنها، وتخرق الأنهار فيها، وهي الخلجان التي يكسرونها أمام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه وجليته، وأخذ ينتقص رسول الله موسى عليه السلام، ويزدرية بكونه **هولاً يكادُ يُبينُ** يعني: كلامه، بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة، التي هي شرف له، وكمال، وجمال.

ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه، وتنقصه فرعون - لعنه الله - بكونه لا أساور في بدنه، ولا زينة عليه، وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسول الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفة، وأعلى همة، وأزهد في الدنيا، وأعلم بما أعد الله لأولائه في الأخرى.

وقوله: **هُوَ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** لا يحتاج الأمر إلى ذلك، إن كان المراد أن تعظمه الملائكة، فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء في الحديث:

((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يصنع)).

فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم.

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات، والحجج الواضحات، من نظر إلى القشور، وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب.

قال الله تعالى: **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ** أي: استخف عقولهم، ودرجهم من حال إلى حال، إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية، لعنه الله وقبحهم: **إِنَّهُمْ كَانُوا قَاسِقِينَ**.

فَلَمَّا أَسْفُونَا أي: أغضبونا **فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** أي: بالغرق، والإهانة، وسلب العز، والتبديل بالذل، وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش، عياداً بالله العظيم، وسلطانه القديم من ذلك.

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا أي: لمن اتبعهم في الصفات **وَمَثَلًا** أي: لمن اتعظ بهم، وخاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جليته خبرهم، وما كان من أمرهم، كما قال الله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ الْإِنَّا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ [القصص: 36-42].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب، ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة، فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كل قد غرق فدخل النار، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بنس الرد المرفود، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراههم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا القليل.

قيل: ثلاثة وهم:

امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها.

ومؤمن آل فرعون، الذي تقدم حكاية موعظته ومشورته وحقته عليهم.

والرجل الناصح، الذي جاء يسعى من أقصى المدينة فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الفصص: 30] قاله ابن عباس، فيما رواه ابن أبي حاتم عنه، ومراده غير السحرة، فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم، وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83].

فالضمير في قوله: ﴿إِنَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ عائد على فرعون، لأن السياق يدل عليه. وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر، كما هو مقرر في التفسير.

وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته، وجبروته، وسلطته، ومن ملائمتهم أن ينموا عليهم إليه، فافتنهم عن دينهم، قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جبار، عنيد، مستعل بغير الحق ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: في جميع أمورهم، وشؤونهم، وأحوالهم، ولكنه جرثومة قد حان إنجافها، وثمرة خبيثة قد آن قطفها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَتَجْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: 84-86].

بأمرهم بالتوكل على الله، والاستعانة به، والاتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87].

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام، أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة، فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به، ليعرف بعضهم بيوت بعض.

وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾:

قيل: مساجد.

وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها، قاله مجاهد، وأبو مالك، وإبراهيم النخعي، والربيع، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، وغيرهم.

ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضر، والشدة، والضيق بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى.

وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرين على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق، في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائته. والمعنى الأول أقوى، لقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً، والله أعلم.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: متقابلة.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ قَاسِتٍ وَمَا تَتَّبَعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 88-89].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كلهم الله موسى على عدو الله فرعون، غضباً لله عليه، لتكبره عن اتباع الحق، وصدّه عن سبيل الله، ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي، والبرهان القطعي، فقال:

{رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ} يعني: قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه.

{زِينَةٌ وَأَمْوَالٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ} أي: وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكون هذه الأموال، وهذه الزينة من اللباس، والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة، والقصور المبنية، والماكل الشهية، والمناظر البهية، والملك العزيز، والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين.

{رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم و أموالهم صارت حجارة.

وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة، وقال أيضاً: صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له:

قم إيتني بكيس، فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة.

رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: {وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} قال ابن عباس: أي اطبع عليها، وهذه دعوة غضب الله تعالى، ولدينه، ولبراهينه.

فاستجاب الله تعالى لها، وحققها وتقبلها، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} * {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: 26-27].

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملائته، وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس: 88].

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج، وتأهبوا له، وإنما كان في نفس الأمر، مكيدة بفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم، ويخرجوا عنهم، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب، أن يستعبروا حلياً منهم، فأعاروهم شيئاً كثيراً.

فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم. وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده، ليلحقهم ويمحقهم، قال الله تعالى:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ} * {فَأرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} * {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} * {وَأِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ} * {وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} * {فَأخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} * {وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} * {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} * {فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ} * {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} * {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} * {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} * {وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ} * {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} * {ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ} * {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} * {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: 52-68].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالبا بني إسرائيل يفتقو أثرهم، كان في جيش كثيف عرمرم، حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف، فانه أعلم.

وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام، ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريب ولا لبس، وعابن كل من الفريقين صاحبه وتحققه وراه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: إنا لمدركون، وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه.

وهذا ما لا يستطيعه أحد، ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم، وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعابنوه في جنوده وجيوشه وعدده، وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر.

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعابنوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: {كَلَّمَا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} وكان في الساقية، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر، وهو يتلاطم بأماوجه، ويتزايد زيد أجاجه، وهو يقول: وهنا أمرت، ومعه أخوه هرون، ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل، وعلمائهم، وعبّادهم الكبار. وقد أوحى الله إليه، وجعله نبياً بعد موسى وهرون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله.

ومعهم أيضاً: مؤمن آل فرعون، وهم وقوف وبنو إسرائيل بكالمهم عليهم عكوف، ويقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر، هل يمكن سلوكه فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله أهنا أمرت؟ فيقول: نعم.

فلما تفاقم الأمر، وضاق الحال، واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدهم: وحدهم وحديدهم، وغضبهم وحققهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم: {أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ} فلما ضربه:

يقال: إنه قال له: انفلق بإذن الله، ويقال: إنه كناه بأبي خلد، فإله أعلم. قال الله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء: 63].

ويقال: إنه انفلق اثنتي عشرة طريقاً، لكل سبط طريق يسرون فيه، حتى قيل: إنه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً، وفي هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكا. وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدر العظيمة، الصادرة من الذي يقول للشيء: كن فيكون.

وأمر الله ريح الدبور، فلحقت حال البحر، فأذهبت حتى صار يابساً لا يعلق في سنايك الخيول والدواب. قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُهُمْ * وَأَصْلًا فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [طه: 77-79].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، بإذن الرب العظيم، الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل فاتحدوا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين.

فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه، ووفودهم عليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وبنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال وهو الصادق في المقال:

{هُوَ الَّذِي فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُون * فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءَ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا لِيَلَّا إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ * وَأَثْرَكُمْ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَبَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينٍ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا

بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿الدخان: 33-17﴾

فقوله تعالى: ﴿وَأَثَرُكَ الْبَحْرِ رَهْوًا﴾ أي: ساكنًا على هيئته، لا تغيره عن هذه الصفة. قاله عبد الله بن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والربيع، والضحاك، وقتادة، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى ما رأى، وعاین ما عاین، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه، حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلداً، وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة، والسجية الفاجرة، على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه:

انظروا كيف انحسر البحر لي، لأدرك عبيدي الأبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو، وهيئات ويقدم تارة ويحجم تارات، فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدي في صورة فارس راكب على رمكة حایل، فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله، فحمم إليها، وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه، فاقتحم البحر، واستبق الجواد، وقد أجاد فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً.

فلما رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى هم أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كلمه، فيما أوحاه إليه، أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينجُ منهم إنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَأُنَجِّيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: 65 - 68] أي: في إنجائه أوليائه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع، على قدرته - تعالى - العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَأَيُّوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 90-92].

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون، زعيم كفره القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة، وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه، وإلى جنوده، ماذا أحل الله به، وبهم من البأس العظيم، والخطب الجسيم، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم، فلما عاین فرعون الهلكة، وأحيط به، وبأشر سكرات الموت، أناب حينئذ وتاب، وأمن حين لا ينفع نفساً إيمانها.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96-97].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةً وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 8584-].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه، أن يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا {حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} أي: حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم، وقد قال تعالى لهما أي: لموسى وهرون حين دعا بهذا {فَقَدْ أُحْيِيْتُمْ دَعْوَتُكُمْ} فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كلمه وأخيه هرون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لما قال فرعون: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} قال:

((قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر، فدسسته في فيه، مخافة أن تناله الرحمة)).

ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عند هذه الآية، من حديث حماد بن سلمة، وقال الترمذي حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا أخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة)).

ورواه الترمذي وابن جرير، من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه، ورفع صوته: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}.

قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه، فيضرب به وجهه فيرمسه.

ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به. وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان، وليس بمعروف، وعن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله، فيغفر له)).

يعني: فرعون.

وقد أرسله غير واحد من السلف، كإبراهيم التيمي، وقتادة، وميمون بن مهران.

ويقال: إن الضحاك بن قيس، خطب به الناس. وفي بعض الروايات: إن جبريل قال: ما بغضت أحداً بغضي لفرعون، حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد جعلت أدس في فيه الطين، حين قال ما قال.

وقوله تعالى: {الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه - والله أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان، لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار، وشاهدوها أنهم يقولون: {يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَدَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: 27].

قال الله: {هَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا عَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: 28].

وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً} [يونس: 92] قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملبسه، ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه.

ولهذا قال: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} أي: مصاحباً درعه المعروفة بك {لِتَكُونَ} أي: أنت آية {لِمَنْ خَلَقَكَ} أي: من بني إسرائيل، دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه.

ولهذا قرأ بعض السلف: لتكون لمن خلقك آية. ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن ورائك من بني إسرائيل، على معرفتك، وإنك هلكت، والله أعلم. وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء.

كما قال الإمام البخاري في (صحيحه): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء.

فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا)).

فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى:

{فَإِن تَقَمَّنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِّمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [الأعراف: 141-136].

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملأهم، كما قال: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: 59].

وقال: {وَأُورِثُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: 5] وقال ههنا: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: 137] أي: أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمرأه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

فذكر ابن عبدالحكم في تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا.

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر، جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم، وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل، فليشترك الجار وجاره فيه

فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم، ليكون علامة لهم على بيوتهم، ولا يأكلونه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه، ولا يبقوا منه شيئاً، ولا يكتروا له عظماً، ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام، ابتداءً من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك في فصل الربيع.

فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصبيهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعة قياماً، ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار، وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع.

قالوا: وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبقار القبط، وأبقار دوابهم ليشغلوا عنهم، وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبقار أولادهم وأبقار أموالهم، ليس من بيت إلا وفيه عويل، وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الأزواد في الأردية، وألقوها على عواتقهم.

وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري، بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعين سنة وثلاثين سنة. هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمى: سنة الفسخ، وهذا العيد: عيد الفسخ، ولهم عيد الفطير، وعيد الحمل، وهو أول السنة.

وهذه الأعياد الثلاثة أكد أعيادهم، منصوص عليها في كتابهم، ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق بحر سوف، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسيرون أمامهم، فيه عامود نور، وبالليل أمامهم عامود نار، فأنتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر.

فنزّلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلول على شاطئ اليم، ففلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية.

وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدكم بعد هذا.

قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس، وصار الماء من ههنا وههنا كالجبليين، وصار وسطه يبساً لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم، فجاز بنو إسرائيل البحر، وأتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه، فرجع الماء كما كان عليهم.

لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح، وهذا من غلظهم وعدم فهمهم في تعريبهم، والله أعلم.

قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذٍ، سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، وقالوا: نسبح الرب الديهي، الذي قهر الجنود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود: وهو تسبيح طويل.

قالوا: وأخذت مريم النبية - أخت هارون - دفاً بيدها، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها، إلقاء في البحر، هكذا رأيته في كتابهم.

ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هرون وموسى مع قوله: يا أخت هرون، وقد بينا غلظه في ذلك، وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه.

بل كل واحد خالفه فيه، ولو قدر أن هذا محفوظ، فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهرون عليهما السلام، وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم، واسم الأب، واسم الأخ، لأنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبه لما سأله أهل نجران عن قوله: {يا أخت هرون} فلم يدر ما يقول لهم، حتى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال:

((أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم)).

رواه مسلم.

وقولهم: النبية، كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة، ومن بيت الإمرة أميرة، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك، فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها، وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم، دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد.

وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف، في أيام منى ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجع مولي ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط.

فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال: أبزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: ((دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا)). وهكذا يشرع عندنا في الأعراس، ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر، وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام، لا يجدون ماء، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً أجاجاً لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا، وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا، ووصاه وصايا كثيرة.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عدها من الكتب: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 138].

قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً، قيل: كانت على صور البقر فكانهم سألوهم لم يعبدونها، فرعموا لهم أنها تتفعهم وتضرهم، ويسترزقون بها عند الضرورات.

فكان بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: إن هؤلاء متبر ما فيه وباطل ما كانوا يعملون.

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم، والشرع والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه، وهم ينظرون، وتوريته إياهم ما كان فرعون وملاؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون.

وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال. بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

أي: قال بعضهم كما في قوله: {وَحَسْرَتُنَا هُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوَاعِدًا} [الكهف: 47-48] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا:

يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنان الذين من قبلكم)).

ورواه النسائي، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به.

ورواه الترمذي، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به. ثم قال حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق، ومعمر، وعقيل عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط.

قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة.

قال: فقلنا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

قال: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

والمقصود أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس، وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيتانيين والفراريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم، ومقاتلتهم، وإجلالهم إياهم عن بيت المقدس.

فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل، أو موسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلط الله عليهم الخوف، ألقاهم في التيه يسبرون ويحلون، ويرتلون ويذهبون، ويجيئون في مدة من السنين طويلة، هي من العدد أربعون.

كما قال الله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً يَا مُوسَى إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمَهُمُ اللَّهُ وَبَدَّلَ إِلَهُ تَابَعَهُمْ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: 20-26].

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم، إحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال:

{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ} أي: تتكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم.

{فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} أي: فتخسروا بعد الربح وتتنقصوا بعد الكمال.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} أي: عتاة كفره متمردين.

{وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} خافوا من هؤلاء الجبارين، وقد عابنوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً، وأكثر جمعاً، وأعظم جنداً، وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذلة عن مصالوة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أثراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها، من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً، حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم، تلقاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحداً واحداً، ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه.

وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها، وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح، وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وتلت ذراع.

هكذا ذكره البغوي وغيره وليس بصحيح، كما قدمنا بيانه عند قوله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)).

قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة، فخرقها صارت طوقاً في عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله. يروى هذا عن عوف البكالي، ونقله ابن جرير، عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظر.

ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم، ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتية على ترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم.

وقد أشار عليهم رجلا صالحان منهم، بالإقدام ونهياهم عن الإحجام ويقال إنهما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد.

{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} أي: يخافون الله. وقرأ بعضهم يخافون أي: يهابون.

{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} أي: بالإسلام، والإيمان، والطاعة، والشجاعة.

{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَآتِكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي: إذا توكلتم على الله، واستعنتم به، ولجأتم إليه نصركم على عدوكم، وأيدكم عليهم، وأظفركم بهم.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم، ووهن كبير، فيقال: إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما، وإن موسى وهرون سجدا إعظاماً لهذا الكلام، وغضباً لله عز وجل، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة. {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: 35].

قال ابن عباس: اقض بيني وبينهم.

{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض، يسيروا إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً، ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة، ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

لكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر، لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفي، تكلم الصديق فأحسن، وتكلم غيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: ((أشيروا علي)).

حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقي بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، وبسطه ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق - وهو ابن شهاب - أن المقداد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يا رسول الله: إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}؛ ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

وهذا إسناد جيد من هذا الوجه، وله طرق أخرى.

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يدعو على المشركين فقال:

والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}؛ ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك، وسر بذلك.

رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق، عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر، استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار:

يا معشر الأنصار إياكم، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد لا تتبعناك. رواه الإمام أحمد، عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس به.

ورواه النسائي عن محمد بن المثني، عن خالد بن الحارث، عن حميد، عن أنس به نحوه.

وأخرجه ابن حبان في (صحيحه)، عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حماد، عن معتمر، عن حميد، عن أنس به نحوه.

فصل في دخول بني إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل، عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتية، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة. ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيها:

أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى وهرون وخور، جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس. فانتصر حزب يوشع عليه السلام.

وعندهم: أن يثرون كاهن مدين، وختن موسى عليه السلام، بلغه ما كان من أمر موسى، وكيف أظفره الله بعدوه فرعون، فقدم على موسى مسلماً، ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه: جرشون وعازر، فتلقاه موسى، وأكرمه، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه.

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء، يبغضون الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس رؤوس مئنين، ورؤوس خمسين، ورؤوس عشرة، فيقضوا بين الناس، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم. ففعل ذلك موسى عليه السلام.

قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم، وهي أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف، والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل، فكلمه ربه، وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا، ويغتسلوا، ويغسلوا ثيابهم، وليستعدوا إلى اليوم الثالث.

فإذا كان في اليوم الثالث، فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمن دنا منه قتل حتى ولا شيء من البهائم، ما داموا يسمعون صوت القرن، فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه، فسمع بنو إسرائيل ذلك، وأطاعوا، واغتسلوا، وتنظفوا، وتطيبوا.

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة، وفيها أصوات وبروق، وصوت الصور شديد جداً، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل، وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود من نور، وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة، واستمر صوت الصور وهو البوق، واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل، والله يكلمه ويناجيه.

وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله، ويأمر الأخبار - وهم علمائهم - أن يدنوا فيصعدوا الجبل، ليقدموا بالقرب، وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة.

فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك، فأمره الله تعالى أن يذهب، فيأتي معه بأخيه هرون، وليكن الكهنة - وهم العلماء - والشعب - وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد - ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل، فأمره حينئذ بالعشر كلمات.

وعندهم: أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى، وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عز وجل، فإننا نخاف أن نموت، فبلغهم عنه، فقال: هذه العشر الكلمات، وهي:

الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الحلف بالله كاذباً، والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه: تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت.

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك الله ريك.

لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على صاحبك شهادة زور، لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً من الذي لصاحبك، ومعناه النهي عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما: قوله تعالى في سورة الأنعام: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَكَأَنَّكُمْ مِنْ أُمَّةٍ إِذْ أُتِيَ النَّبِيُّ إِذَا يَأْتِيكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَنْ تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّ إِلَهَنَا إِلَهُكُمْ وَذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} الآية [الأنعام: 153-151].

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة، وأحكاماً متفرقة عزيزة، كانت فزالت، وعملت بها حيناً من الدهر، ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها، ثم عمدوا إليها فبدلوا وحرفوها وألوهها، ثم بعد ذلك كله سلبوها، فصارت منسوخة مبدلة، بعد ما كانت مشروعة مكملة، فله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الذي يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ألا له الخلق، تبارك الله رب العالمين.

وقد قال الله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِيَّيَ لَعْفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: 80-82].

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل، بما أنجاهم من أعدائهم، وخلصهم من الضيق والحرج، وأنه وعدهم صحبة نبيهم، إلى جانب الطور الأيمن، أي: منهم، لينزل عليه أحكاماً عظيمة، فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم.

وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم، في سفرهم في الأرض، التي ليس فيها زرع ولا ضرع، من السماء، يصبغونه فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم، في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد، ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة.

فإذا كان من آخر النهار، غشيم طير السلوى، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه، حسب كفايتهم لعشاهم.

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام، وهو السحاب الذي يستتر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر، كما قال تعالى في سورة البقرة: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ قَارِهُونَ * وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [البقرة: 40-41].

إلى أن قال: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ أَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَوَّنَا عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ أَنْبَأْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَتَنَكَّرُونَ * وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة: 49-57].

إلى أن قال:

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالَ آتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: 60-61].

فذكر تعالى إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم، بما يسر لهم من المن والسلوى، طعامين شهييين بلا كلفة، ولا سعي لهم فيه، بل ينزل الله المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً، كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس. ثم تنفجر ماءً زلالاً فيستقون ويسقون دولبهم ويدخرون كفايتهم.

وظلل عليهم الغمام من الحر، وهذه نعم من الله عظيمة، وعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها، وحق عبادتها. ثم ضجر كثير منهم منها، وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببديلها، مما تنبت الأرض من بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها، فقرعهم الكليم، ووبخهم، وأنبههم على هذه المقالة، وعنفهم قائلاً:

{آتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ} أي: هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم، التي فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار، موجود بها، وإذا هبطتم إليها.

أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها، تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون، مما ذكرتم من المأكَل الدنية، والأغذية الردة. ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى، وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه.

كما قال تعالى: {وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى} [طه: 81].

أي: فقد هلك، وحق له والله الهلاك والدمار، وقد حل عليه غضب الملك الجبار، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أتى وتاب، ولم يستمر على متابعة الشيطان المرید، فقال: {هُوَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: 82].

سؤال الرؤية

قال الله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَمَمْنَاهَا عَشْرَ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ إِلَّا الْجِبَلُ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَإِنَّمَا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَعَلَهُ ذِكَاً وَخَرَّ مُوسَى صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرَيْتُكَ دَارَ الْقَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّسُلِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 142-147].

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس، ومسروق، ومجاهد: الثلاثون ليلة هي: شهر ذي القعدة بكامله، وأتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجة، فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم دينه، وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات، وكان فيه صائماً يقال: إنه لم يستطع الطعام، فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمر الله أن يمسك عشرأ أخرى، فصارت أربعين ليلة. ولهذا ثبت في الحديث: ((أن خلو فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)).

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هرون، المحبوب المبجل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلى مصطفىه، فوصاه وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ۖ آي: في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ۖ آي: كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمع الخطاب، فناداه ونجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع، ومعقل منيع، ومنصب شريف، ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تنرى، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى.

ولما أعطى هذه المنزلة العلية، والمرتبة السنية، وسمع الخطاب، سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار، القوى البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۖ قَالَ لَنْ تَرَآني﴾

ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذي هو أقوى، وأكبر ذاتاً، وأشد ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمان، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَآني﴾.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده.

وفي (الصحيحين) عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((حجابه النور)).

وفي رواية: ((النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمَّا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: 103] ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال مجاهد: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَآني﴾ فإنه أكبر منك، وأشد خلقاً. فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقاً.

وقد ذكرنا في التفسير، ما رواه الإمام أحمد، والترمذي، وصححه ابن جرير والحاكم، من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، زاد ابن جرير، وليث عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: هكذا بإصبعه، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساح الجبل. لفظ ابن جرير.

وقال السدي عن عكرمة، وعن ابن عباس: ما تجلى يعني: من العظمة إلا قدر الخنصر، فجعل الجبل دكاً، قال: تراباً.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشياً عليه. وقال قتادة: مينا، والصحيح الأول، لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي، قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهه، وتعظيمه، وإجلاله إن يراه بعظمته أحد ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت في (الصحيحين): من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تخبروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي، أو جوزي بصعقة الطور)).

لفظ البخاري.

وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري، حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فقال رسول الله: ((لا تخبروني من بين الأنبياء...)).

وفي (الصحيحين): من طريق الزهري، عن أبي سلمة، وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه، وفيه: ((لا تخبروني على موسى...)).

وذكر تمامه

وهذا من باب الهضم والتواضع، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء، على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم، بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأي، بل بالتوقيف.

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم، ففي قوله نظر، لأن هذا من رواية أبي سعيد، وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين، متأخراً فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا، والله اعلم.

ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة، قال الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110] وما كملوا إلا بشرف نبيهم.

وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال:

((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)).

ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش)). أي: أخذاً بها، ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور)) دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة، محمد خاتم الأنبياء، ومصطفى رب الأرض والسماء، على سائر الأنبياء. فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش.

قال الصادق المصدوق: ((لا أدري أصعق فأفاق قبلي)) أي: كانت صعقته خفيفة، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق، ((أو جوزي بصعقة الطور؟)) يعني: فلم يصعق بالكلية.

وهذا شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه.

ولهذا نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على شرفه وفضيلته بهذه الصفة، لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجانب موسى عليه السلام، فيبين النبي صلى الله عليه وسلم فضيلته وشرفه.

وقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَكَلَامِي} أي: في ذلك الزمان لا ما قبله، لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم، ولا ما بعده لأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل منهما، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال:

((سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم)).

وقوله تعالى: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 144] أي: فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك.

قال الله تعالى: {وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: 145] وكانت الألواح من جوهر نفيس. ففي الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده، وفيها مواضع عن الأثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام.

{فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} أي: بعزم ونية صادقة قوية. {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذْوًا بِأَحْسَنِهَا} أي: يضعوها على أحسن وجوهها، وأجمل محاملها. {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتي، المخالفين لأمري، المكذبين لرسلي.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ} عن: فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها، ودل عليه مقتضاها {الَّذِينَ يَنْكَبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا} أي: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات، لا ينفادوا لاتباعها

{وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّسُلِ لَا يَنْخُدُوهُ سَبِيلاً} أي: لا يسلكوه ولا يتبعوه {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَنْخُدُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَتَبُوا بِآيَاتِنَا} أي: صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا، وتغافلهم عنها، وإعراضهم عن التصديق بها، والتفكر في معناها، وترك العمل بمقتضاها.

{وَالَّذِينَ كَتَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

قصة عبادتهم العجل في غيبة موسى كليم الله عنهم

قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} * ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا وبغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني فلما نسيت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولإخوتي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلك في الحياة الدنيا وكذلك تجزي المقتربين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي سُخْطِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ} [الأعراف: 148-154].

وقال تعالى: {وَمَا أَغْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى} * قال هم أولاء على أترتي وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنما قد قننا قوماً من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفتال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولكننا أوزاراً من زينة القوم ففدقناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم وإله موسى فنسي * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعا * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فئتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبين أف عصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي * قال فما خطبك ياسامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن نخلفه وأنظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لئلا نرقتك ثم لنسيفه في اليم نسفاً * إنما الهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً} [طه: 83-98].

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هرون السامري، فأخذ ما كان استعاره من الحلبي فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه - يوم أغرق الله فرعون على يديه - فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي.

ويقال: إنه استحال عجلاً جسداً أي: لحمًا ودمًا حياً يخور. قاله قتادة وغيره.

وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي﴾ أي: فنسي موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو ههنا! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدس أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعاداته.

قال الله تعالى مبينا بطلان ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه من الإهية هذا الذي قصاره أن يكون حيواناً بهيماً، وشيطاناً رجيماً: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَن لَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَّا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 148]

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل، والضلال.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما صنعوا.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولما رجع موسى عليه السلام إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها فيقال: إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وإن الله أبدله غيرها، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين.

وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وابن حبان، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ليس الخبر كالمعاينة)).

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا:

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ تخرجوا من تملك حلى آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتخرجوا بجهلهم، وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد، الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار.

ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلاً له: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِّي﴾ أي: هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعني فأعلمتني بما فعلوا، فقال: ﴿بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ نَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيَّ﴾ أي: تركتهم وجنتني وأنت قد استخلفتني فيهم. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151].

وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي، وزجرهم عنه أتم الزجر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي: إنما قدر الله أمر هذا العجل، وجعله يخور فتنة واختباراً لكم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ أي: لا هذا.

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما أقول لكم ﴿وَاطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ يشهد الله لهرون عليه السلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166] أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك، فلم يطيعوه ولم يتبعوه، ثم

أقبل موسى على السامري: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} أي: ما حملك على ما صنعت؟ {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ} أي: رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} أي: من أثر فرس جبريل.

وقد ذكر بعضهم أنه رآه، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب، كان من أمره ما كان ولهذا قال: {فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي} * قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ}.

وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً، معاقبة له على مسه، مالم يكن له مسه. هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال: {وَأَنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخَلِّفَهُ} وقرئ: لن نخلفه. {هُوَ أَنْظَرُ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} قال: فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار، كما قاله قتادة وغيره.

وقيل: بالمبارد، كما قاله: علي، وابن عباس، وغيرهما. وهو نص أهل الكتاب. ثم ذراه في البحر، وأمر بني إسرائيل فشرّبوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه، ما يدل عليه، وقيل بل اصفرت ألوانهم.

ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

وقال تعالى: {الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} وهكذا وقع. وقد قال بعض السلف: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيمة.

ثم أخبر تعالى عن حلمه، ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه، بتوبته عليه فقال: {هُوَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 54].

فيقال: إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليه ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه، ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوه وحصدوهم، فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً.

ثم قال تعالى: {هُوَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ} استدلل بعضهم بقوله وفي نسختها على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتنون كما سيأتي: أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو بعيد؛ لأنهم حين خرجوا {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: 138].

وهكذا عند أهل الكتاب: فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس، وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل، قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف.

ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

{هُوَ أَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} * وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْمُرْسَلَةَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 155-157].

ذكر السدي، وابن عباس، وغيرهما: أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل، ومعهم موسى، وهرون، ويوشع، وناداب، وابيهو، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل، وكانوا قد أمروا أن يتطيّبوا ويتطهروا ويغتسلوا.

فلما ذهبوا معه، واقتربوا من الجبل، وعليه الغمام وعمود النور ساطع، وصعد موسى الجبل، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

وليس هذا بلازم لقوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] أي: مبلغاً.

وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً عن موسى عليه السلام، وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ...﴾ [الأعراف: 155].

قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذنه منه وعلم، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعّل.

فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمر وينهاه، أفعّل ولا تفعل.

فلما فرغ الله من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ - وهي الصاعقة - فالتفت أرواحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِثْلَ أَيِّ: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإننا براء مما عملوا.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: اختبارك وابتلاؤك وامتحانك. قاله: ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. يعني: أنت الذي قدرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل، اختباراً تختبرهم به كما ﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَأْقُومُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي: اختبرتم، ولهذا قال: ﴿فُتِّضِلْ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته لك، الحكم والمشينة، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت.

﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبتنا إليك ورجعنا وأنبأنا. قاله: ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو العالية، وإبراهيم التيمي، والضحاك، والسدي، وقتادة، وغير واحد، وهو كذلك في اللغة.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أنا أعذب من شئت، بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ثبت في (الصحيحين): عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي)).

{فَسَأَلْنَاهَا لِمَنِ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} أي: فسأوحياها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...} الآية [الأعراف: 157] وهذا فيه تنويه بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وأمه، من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه، وأطلععه عليه. وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع، والله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى: يا رب أجد في الألواح أمة؛ خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق، السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً، لم يعطه أحداً عن الأمم. قال: رب اجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاثلون فصول الضلالة، حتى يقاثلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطيور، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال رب فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة، ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. قال: رب اجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنني أجد في الألواح أمة هم لمشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار، بعون الله وتوفيقه، وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في (صحيحه): ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة: أخبرنا عمر بن سعيد الطائي بمنج، حدثنا حامد بن يحيى البلخي، حدثنا سفيان، حدثنا مطرف بن طريف، وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان قالوا: سمعنا الشعبي يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أي أهل الجنة أدنى منزلة؟

فقال: رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة.

فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟

فيقال له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟

فيقول: نعم أي رب.

فيقال: لك هذا ومثله ومثله.

فيقول: أي رب رضيت.

فيقال له: لك مع هذا ما اشتهدت نفسك، ولذت عينك.

وسأل ربه: أي أهل الجنة أرفع منزلة؟

قال: سأحدثك عنهم، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)).

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة: 17] الآية.

وهكذا رواه مسلم، والترمذي، كلاهما عن ابن أبي عمر، عن سفيان - وهو ابن عيينة - به.

ولفظ مسلم:

((فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيت رب.

فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله.

فيقول في الخامسة: رضيت رب.

فيقال: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهدت نفسك، ولذت عينك.

فيقول: رضيت رب.

قال: رب فأعلاهم منزلة؟

قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر)).

قال: ومصداقه من كتاب الله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17] وقال الترمذي حسن صحيح.

قال: ورواه بعضهم عن الشعبي، عن المغيرة فلم يرفعه، والمرفوع أصح.

وقال ابن حبان: ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع: حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن أبا السمع حدثه، عن ابن حجيرة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها:

قال: يا رب أي عبادك أتقى؟

قال: الذي يذكر ولا ينسى.

قال: فأبي عبادك أهدى؟

قال: الذي يتبع الهدى.

قال: فأبي عبادك أحكم؟

قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه.

قال: فأبي عبادك أعلم؟

قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه.

قال: فأبي عبادك أعز؟

قال: الذي إذا قدر غفر.

قال: فأبي عبادك أغنى؟

قال: الذي يرضى بما يؤتى.

قال: فأبي عبادك أفقر؟

قال: (صاحب منقوص)).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ليس الغنى عن ظهر، إنما الغنى غنى النفس)).

((وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه، وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه)).

قال ابن حبان: قوله: ((صاحب منقوص)) يريد به: منقوص حالته، يستقل ما أوتى، ويطلب الفضل.

وقد رواه ابن جرير في (تاريخه)، عن ابن حميد، عن يعقوب التميمي، عن هرون بن عبيدة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه عز وجل فنذكر نحوه، وفيه:

((قال: أي رب فأبي عبادك أعلم؟

قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى.

قال: أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني؟

قال: نعم.

قال: رب فمن هو؟

قال: الخضر. فسأل السبيل إلى لقيه)).

فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله، وبه الثقة.

حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن موسى قال: أي رب، عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا.

قال: ففتح له باب من الجنة فنظر إليها.

قال يا موسى: هذا ما أعددت له.

فقال موسى: يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين، يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره، لم ير يؤساً قط.

قال: ثم قال: أي رب عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا.

قال: ففتح له باب إلى النار فيقول: يا موسى هذا ما أعددت له.

فقال: أي رب وعزتك وجلالك، لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط)).

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وفي صحته نظر، والله أعلم.

وقال ابن حبان: ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به: حدثنا ابن سلمة، حدثنا حرمة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، إن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به.

قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله.

قال: يا رب كل عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إله إلا الله.

قال: إنما أريد شيئاً تخصني به.

قال: يا موسى لو أن أهل السموات السبع، والأرضين السبع، في كفة ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهم لا إله إلا الله)).

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة، وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أفضل الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)).

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسوقي، حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل ينام ربك؟

قال: اتقوا الله.

فناداه ربه: يا موسى سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعل، فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعل، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا.

فقال: يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك.

قال: وأنزل الله على رسوله آية الكرسي.

وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن إبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال:

((وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما.

قال: فجعل ينام، وكادت يدها تلتقيان، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يدها، فانكسرت القارورتان.

قال: ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض)).

وهذا حديث غريب رفعه، والأشبه أن يكون موقوفاً. وأن يكون أصله إسرائيلياً.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: 63-64].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171].

قال ابن عباس، وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة، أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: أنشرها علينا، فإن كانت أوامرنا ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه مراراً، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أي غمامة - على رؤوسهم.

وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها، وإلا سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم، يقولون لا سجدت أعظم من سجدت رفعت عنا العذاب.

وقال سنيد بن داود، عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل، ولا شجر، ولا حجر، إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَيَّ: ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم، والأمر الجسيم، نكتنم عهدكم ومواثيقكم فقلولنا فضلُ الله عليكم ورحمته﴾ بأن تدارككم بالإرسال إليكم، وإنزال الكتب عليكم ﴿لكننم من الخاسرين﴾.

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا حُرُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَهَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعِ لَوْثَهَا تُسْرُ النَّاطِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَهَا ذُلُوبٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا قَدَّارًا أَنْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * قُلْنَا اضْرِبُوهَ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 67-73].

قال ابن عباس، وعبيدة السلماني، وأبو العالية، ومجاهد، والسدي، وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل، وطرحه في مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله.

فجاء ابن أخيه، فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام، فقال موسى عليه السلام: أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسأله أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل، فسأل ربه عز وجل في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا حُرُوءًا﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتل، وأنت تقول هذا؟

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلي، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتوني عنه أن أسأله فيه.

قال ابن عباس، وعبيدة، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وأبو العالية، وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، وفي إسناده ضعف، فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سننها، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم، وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير.

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان: وهي الوسط بين النصف، الفارض: وهي الكبيرة، والبكر: وهي الصغيرة. قاله: ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وجماعة. ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها أي: مشرب بحمرة تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز.

ثم شددوا أيضاً، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه:

((لولا أن بني إسرائيل استنتوا لما أعطوا)).

وفي صحته نظر، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَهَا ذُلُوبٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول: وهي المذلة بالحرارة، وسقى الأرض، بالسانية. مسلمة: وهي الصحيحة التي لا عيب فيها. قاله: أبو العالية، وقتادة.

وقوله: ﴿لَهَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف لونها، بل هي مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها، فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ﴾.

ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه، فطلبوها منه فأبى عليهم، فأرغبه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدي بوزنها ذهباً، فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها فذبحوها وما كانوا يفعلون {أي: وهم يترددون في أمرها}.

ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتل ببعضها.

قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالعظم الذي يلي الغضروف.

وقيل: بالبطخة التي بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياء الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله من قتلك؟

قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتاً كما كان.

قال الله تعالى: {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {أي: كما شاهدتم إحياء هذا القتل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياءهم في ساعة واحدة، كما قال: {مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ...} {الآية [لقمان: 28]}.

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حَوْتُهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ إِنِّي أَخَذْتُكَ غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَنَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُودًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا نُوَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَفَتَلَهُ قَالَ اقْتُلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي فَدَ بَلَعْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْنَا لَآتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَسِينَا أَنْ يَرُوهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: 60-82].

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم، وينقل عن كتبهم منهم: نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي، ويقال: إنه دمشقي، وكانت أمه زوجة كعب الأحمار.

والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصحيح المتفق عليه: أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمر بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟

فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى: يا رب وكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكثل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكثل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما، واضطرب الحوت في المكثل، فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق.

فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه أيتنا غدائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ولم يجد موسى النصب، حتى جاوز المكان الذي أمره الله به.

قال له فتاه: قال أرايت إذ أويتا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً.

قال ذلك ما كنا نبغ فارتدأ على آثارهما قصصاً قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى.

فقال الخضر: وإني بأرضك السلام.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً.

قال إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه، قال سجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة.

فمرت بهما سفينة فكلهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجا إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لئلا يغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وكانت الأولى من موسى نسياناً.

قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ما قتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.

قال: وهذه أشد من الأولى، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجداً فيها جداراً يريد أن ينقض قال: مائل.

فقال الخضر بيده {فَأَقَامَهُ} فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)).

قال سعيد بن جبیر: فكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا)، وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين).

ثم رواه البخاري أيضاً، عن قتبية، عن سفيان بن عيينة، بإسناده نحوه.

وفيه: ((فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها.

قال: فوضع موسى رأسه فنام)).

قال سفيان وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال فتحرك وانسل من المكمل، ودخل البحر فلما استيقظ ((قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا.

وساق الحديث.

وقال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله، إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره، وذكر تمام الحديث)).

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم، وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبیر يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبیر قال:

إننا لعند ابن عباس في بيته إذ قال: سلوني.

فقلت: أي أبا عباس جعلني الله فداك بالكوفة، رجل قاص يقال له: نوف، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل، أما عمرو فقال لي: قال قد كذب عدو الله.

وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((موسى رسول الله، قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب، ولى فأدرکه رجل فقال:

أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟

قال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله.

قيل: بلى.

قال: أي رب فأين؟

قال: بمجمع البحرين.

قال: أي رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به.

قال لي عمرو قال: حيث يفارقك الحوت.

وقال لي يعلى: قال: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ حوتاً فجعله في مكمل.

فقال لفتاه لا أكفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ﴾
يوشع بن نون، -ليست عن سعيد بن جبير - قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان، إذ تضرب الحوت
وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله
عنه جرية البحر، حتى كان أثره في حجر.

قال لي عمرو: هكذا كان أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه واللتين تليان

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: وقد قطع الله عنك النصب، ليست هذه عن سعيد أخبره، فرجعا فوجدا
خضراً. قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد البحر، قال سعيد: مسجى بثوبه قد جعل
طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال: هل بأرض من سلام من
أنت؟

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال: فما شأنك؟

قال: جنتك لتعلمني مما علمت رشدا.

قال: أما يكفك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك يا موسى؟ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً
لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ
هذا الطائر بمنقاره من البحر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وجدا معابر صغراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، عرفوه
فقالوا: عبد الله الصالح

قال: فقلنا لسعيد خضر.

قال: نعم. لا نحملة بأجر ﴿خَرَقَهَا﴾ ووند فيها وندأ. ﴿قال﴾ موسى ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال
مجاهد: منكرأ.

﴿قال﴾ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً.

﴿قال﴾ لا تؤاخذني بما نسييت ولا تُرهنني من أمري عسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتلوه قال يعلى: قال سعيد:
وجد غلاماً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين.

﴿قال﴾ أقتلت نفساً زكية لم تعمل بالخبث. ابن عباس قرأها: زكية زاكية مسلمة، كقولك غلاماً زكياً

فانطلقا ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ قال: بيده هكذا، ورفع يده فاستقام، قال يعلى: حسبت أن سعيداً
قال: فمسحه بيده فاستقام.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيد: أجراً نأكله، ﴿وَكَانَ رَأَاهُمْ﴾ وكان أمامهم: قرأها ابن عباس: (أمامهم) ملك يزعمون - عن غير سعيد - أنه هدد بن بدد، والغلام المقتول يزعمون: جيسور، ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فإذا هي مرت به يدعها بعبهها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها.

منهم: من يقول سدوها بقارورة، ومنهم: من يقول بالقار.

﴿فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾ وكان كافراً. ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه. ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ لقوله: أقتلت نفساً زكية، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحم منها بالأول الذي قتل خضر.

وزعم سعيد بن جببر أنه: ابن لا جارية، وأما داود بن أبي عصام فقال عن غير واحد: إنها جارية.

وقد رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: خطب موسى بني إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقي هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم.

وهكذا رواه محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمار، عن الحكم بن عيينة، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كنحو ما تقدم أيضاً. ورواه العوفي عنه موقوفاً.

وقال الزهري عن عبيد الله، بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري، في صاحب موسى.

فقال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب، فدعا ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً؟

قال: نعم، وذكر الحديث.

وقد تصفيناً طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف، والله الحمد.

وقوله: ﴿هُوَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال السهيلي: وهما أصرم وصريم، ابنا كاشح وكان تحتة كثر لهما قيل: كان ذهباً، قاله عكرمة.

وقيل: علماء، قاله ابن عباس.

والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم.

قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحرث بن عبد الله اليماني، عن عياش بن عباس الغساني، عن بن حجرية، عن أبي ذر رفته، قال:

((إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت: عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب، وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله)).

وهكذا روي عن الحسن البصري، وعمر مولى عفرة، وجعفر الصادق نحو هذا.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوَاهُ صَالِحًا﴾ وقد قيل: إنه كان الأب السابع.

وقيل: العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، فإله المستعان.

وقوله: ﴿هَرَحَمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ دليل على أنه كان نبياً، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه، فهو نبي، وقيل: رسول، وقيل: ولي، وأغرب من هذا من قال: كان ملكاً، قلت: وقد أغرب جداً من قال: هو ابن فرعون، وقيل: إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة.

قال ابن جرير: والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون. ويقال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين، الذي قيل إنه كان أفريدون، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن.

وقيل: إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل.

وقيل: اسمه ملكان.

وقيل: أرميا بن خلفيا.

وقيل: كان نبياً في زمن سباسب بن لهراسب.

قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان في زمن أفريدون، واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام.

وكانت نبوة موسى في زمن منو شهر، الذي هو من ولد ايرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون، لعهد وكان عادلاً، وهو أول من خندق الخنادق، وأول من جعل في كل قرية دهقاناً، وكانت مدة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة.

ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم وقد ذكر عنه من الخطب الحسان، والكليم: البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل، ويحير السامع، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل، والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ...﴾ الآية [آل عمران: 84].

فأخذ الله ميثاق كل نبي، على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره، و استلزم ذلك الإيمان و أخذ الميثاق لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره، فلو كان الخضر حياً في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به، والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل، وسادات من الملائكة، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبياً، وهو الحق، أو رسولاً كما قيل، أو ملكاً فيما ذكر وأياً ما كان فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون؟ فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى.

ولم ينقل في حديث حسن، بل ولا ضعيف، يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التغرية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف، والله أعلم، وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا.

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير: من (سننه) عند قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40]

حديث الفتون:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟

فقال: استأنف النهار يا ابن جبير، فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لانتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال:

تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب.

فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم.

فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك.

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر و اتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولن تقتلوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم.

فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يا ابن جبير - ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به.

فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت، وتلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها، أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي، فواريته وكفنته، كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى عند فريضة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته كهيئته لم يخرج منه شيئاً، حتى دفعه إليها، فلما فتحته رأته فيه غلاماً، فألقى عليه منها محبة، لم تلق منها على أحد قط.

هُوَ أَصْبَحَ فَوَادُ أُمِّ مُوسَى فَارْعَاؤُ مِنْ ذَكَرِ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ ذَكَرِ مُوسَى، فَلَمَّا سَمِعَ الذَّبَّاحُونَ بِأَمْرِهِ، أَقْبَلُوا بِشَفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِذَبْحِهِ، وَذَلِكَ مِنَ الْفَتُونِ - يَا ابْنَ جَبِيرٍ - فَقَالَتْ لَهُمْ: أَقْرُوهُ فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَتَّى آتَى فِرْعَوْنَ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْهُ، فَإِنَّ وَهَبَهُ مِنْي كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ لَمْ أَلْمَكُمْ.

فأتت فرعون فقالت: {فِرَّةٌ عَيْنَ لِي وَكَذَلِكَ} فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له، كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك)).

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها، لأن تختار له ظئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه، لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل.

وأصبحت أم موسى والهأ، فقالت لأخته: قصي أثره واطليبه، هل تسمعين له ذكراً؟ أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟

ونسيت ما كان الله وعداها فيه. {فَبَصُرَتْ بِهِ} أخته {عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ} والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظورات: أنا {أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل تعرفينه حتى شكوا في ذلك. وذلك من الفتون - يا ابن جبير -.

فقال: نصحهم له، وشفقتهم عليه، ورغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، فأرسلوها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخير، فجاءت أمه، فلما وضعت في حجرها، نزا إلى ثديها فمصه، حتى امتلأ جنباه رياً.

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط.

قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطيني به فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً، فعلت فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعددها فتعاسرت، على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز مواعده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم، ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيروني ابني، فوعدها يوماً تزيروني إياه فيه.

وقالت امرأة فرعون لخازنها وظئورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا، والكرامة، والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون. فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه.

ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلته وليكرمنه، فلما دخلت به عليه، جعله في حجره، فتناول موسى لحيه فرعون، فمدها إلى الأرض.

فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، أنه زعم أنه يرثك ويعطوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون- يا ابن جبير - بعد كل بلاء ابتلى به، وأريد به.

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون.

فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

فقال: ألا ترى أنه يزعم أنه يصرعني ويعطوني.

فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق، انت بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين، عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل.

فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى، فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني، والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاعة إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره.

فركز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} [القصص: 15].

ثم قال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ...} [القصص: 16-18] الأخبار، فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله، من يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك أخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بيته، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي: لما فعل بالأمس واليوم: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ}.

فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس، الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لعوي مبين، أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: {قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}.

وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فنتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: {أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}.

فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم، يمشون على هينتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون - يا ابن جبير -.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: {عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} يعني بذلك: حابستين غنمهما.

فقال لهما: {ما خطبكما} معترلتين لا تسقيان مع الناس؟

قالتا: ليس لنا قوة تراحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم، فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، وانصرفنا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة وقال: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً، فقال إن لكما اليوم لشأنا فأخبرته بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه {قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين} ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما:

{يَأْتِبَ اسْتَأْجَرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ} فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته، وما أمانته؟

فقالت: أما قوته: فما رأيت منه في الدلو، حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة: فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له.

فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعني لي الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك {أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَنَجْدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القصص: 27] ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت السنان عدة منه، ففضى الله عنه عدته فأنمها عشرًا.

قال سعيد هو - ابن جبير - : فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً؟ وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين.

فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك، أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصي ویده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له رداءً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه الله عز وجل سؤله، وحل عقدة من لسانه.

وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47].

فقال: فمن ربكما؟

فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن.

قال: فما تريدان؟

وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت.

قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه وقال: ﴿فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة، فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون.

فلما رآها فرعون قاصدة إليه، خافها، فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى، أن يكفها عنه ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملاء حوله فيما رأى، فقالوا له: ﴿هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطُرُوقِكُمْ الْمُتَلَيِّ﴾ [طه: 63] يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش.

وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن، فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟

قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات، والحيال والعصي الذي نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا؟

قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم.

فتواعدوا ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحَى﴾ قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء، فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، لعلنا نتبع السحرة، إن كانوا هم الغالبين يعنون: موسى وهارون، استهزاءً بهما.

فقالوا: يا موسى بعد تريثهم بسحرهم ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُتْلِينَ﴾ [الأعراف: 115].

قال: بل ألقوا هُفَالِقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحيال حتى صارت جرزاً على الثعبان أن تدخل فيه، حتى ما أبقّت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعت.

فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحراً لم تبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله تعالى، أمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وامرأة فرعون بارزة ميتذلة، تدعو لله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتدلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف من غده.

وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟

فأرسل الله على قومه الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعدته، ونكث عهده، حتى أمر موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا، أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه.

ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصي، وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله عز وجل. فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب.

قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفردت اثنتي عشرة فرقة حتى أجازه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرد البحر كما أمره ربه، وكما وعد موسى.

فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببذنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثْبُورٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {الأعراف: 138} قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه عز وجل، وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان -.

قال: يا رب إنني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح.

قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرين ثم اتنتني.

ف فعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال:

إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم ودیعة استودعتموها ولا عارية، وألسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك، ولا ممسكية لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير.

ثم أوقد عليه النار فأحرقه فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتلم مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، ف قضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمر بهارون.

فقال له هارون: يا سامري ألا تلقي ما في يديك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك.

فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقىها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقىتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون.

فقال: أريد أن تكون عجلاً فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية، أو نحاس، أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح له خوار.

قال ابن عباس: لا والله ما كان فيه صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره، وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك. فتفرق بنو إسرائيل فرقاً.

فقال فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟

قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق.

وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى.

وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن به ولا نصدق.

واشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به. فقال لهم هارون عليه السلام: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ} [طه: 90] ليس هذا.

قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، قال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [طه: 86] فقال لهم: ما سمعتم ما في القرآن؟ {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له. فانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟

قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها، وعميت عليكم، فقدفتها {وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي} * قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَلَنْ نُعْطِيكَ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَآكِفًا لِنُحْرَقَنَّهُ ثُمَّ لِنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه: 96-97] ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واعتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فتكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في الحق، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض.

فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه، ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} [الأعراف: 155] وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... [الأعراف: 156-157].

فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت: إن رحمتي كتبتهما لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم، فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون أمرهم، وأطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فقتل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرروا بها، ونتاج الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم.

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكر من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها فقالوا: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها {فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}.

{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} [المائدة: 22-23]

قيل ليزيد: هكذا قراه؟

قال: نعم، من الجبارين، أما بموسى وخرجنا إليه.

فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون.

ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله لهم، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة، يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محله إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالمنزل الأول بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأفكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟

فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل موسى، الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي، الذي شهد ذلك وحضره.

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، في (تفسيرهما) من حديث يزيد بن هارون، والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأخبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً، والله أعلم.

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز، وجلود الأنعام، وشعر الأغنام، وأمر بزینتها بالحريير المصبغ، والذهب والفضة، على كفييات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب، وأطناب من حريير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة، وستور من حريير مصبغ، وغير ذلك مما يطول ذكره.

ويعمل تابوت من خشب الشمشاز، يكون طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعين، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، ويكون مصبباً بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيبان من ذهب، يعنون صفة ملكين بأجنحة، وهما متقابلان، صنعه رجل اسمه: بصليال.

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز، طولها ذراعان، وعرضها ذراعان ونصف، لها ضباب ذهب، وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مغرزة في مثل الرمان، من خشب ملبس ذهباً، وأن يعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة.

وأن يصنع منارة من الذهب، دلى فيها ست قصبات من ذهب، من كل جانب ثلاثة، على كل قصبية ثلاث سرج، وليكن في المنارة أربع قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الأنوية من قنطار من ذهب، صنع ذلك بصليال أيضاً، وهو الذي عمل المذبح أيضاً، ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع.

ونصب تابوت الشهادة، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم مِّن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 248].

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم، وكيفيته، وفيه: أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيء بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها، ويتقربون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل.

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام، الذي هو نور، ويخاطبه ويناجيه، ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت، صامد إلى ما بين الكروبيين، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء، يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت، ويصمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم، أعني استعمال الذهب والحري المصبغ، واللالى في معبدهم وعند مصلاهم، فأما في شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها، لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما وسع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر، فتفتن الناس.

وقال ابن عباس: لنزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم، إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وسان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدد، من العبادة العظيمة، قلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه، يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام، فلما مات هارون، ثم موسى عليهما السلام، استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن.

وقام بأعباء النبوة بعد موسى، وتدبير الأمر بعده: فتاه يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس، كما سيأتي بيانه، والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس، نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلتها، وهي الصخرة، فلها كانت قبة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد صلى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، فصلى إليها ستة عشر - وقيل: سبعة عشر شهراً - ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم، في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر، وقيل: الظهر، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَكَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا..} {إلى قوله:} {فَقَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...} {الآيات [البقرة: 142-144] وما بعدها].

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَلُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِزِّي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ *} فخرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَوَ حَظٌّ

عَظِيمٌ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمَلَ صَالِحًا وَلَا يُقَاہَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنْصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَأَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئِنَ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ { [القصص: 83-76]

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو بن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال: إبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحرث بن نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جريج، وزاد فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

قال ابن جريج: وهذا قول أكثر أهل العلم، أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى.

قال قتادة: وكان يسمى المنور، لحسن صوته بالتوراة. ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طويلاً ترفعاً على قومه، وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد.

وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً، فانه أعلم. وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تفرح أي: لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك إن الله لا يحب الفرحين * وأبغ فيما أتاك الله الدار الآخرة} يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا هو كما نئس نصيبك من الدنيا} أي: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملذات الطيبة الحلال.

هو أحسن كما أحسن الله إليك} أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك.

هو كما تبغ الفساد في الأرض} أي: ولا تسيء إليهم، ولا تفسد فيهم، فقابلهم ضد ما أمرت فيهم، فيعاقبك ويسلبك ما وهبك.

إن الله لا يحب المفسدين} فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قال: إننا أوتيناه على علم عدي} يعني: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا، لعلمه أنني أستحقه، وأني أهل له، ولولا أنني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى رداً عليه ما ذهب إليه: {وَلَمْ يَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنِ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ} أي: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم، من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالا منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به. كما قال تعالى: {هُوَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سبأ: 37].

وقال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: 55-56] وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: {إِنَّمَا أُوتِينَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَدِي}.

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم، فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن، منافقاً في الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا (التفسير)، والله الحمد.

قال الله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} ذكر كثير من المفسرين: أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس، ومراكب، وخدم، وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح، الزهاد الألباء قالوا لهم: {هُوَ يَلْكُمُ الثَّوَابَ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى، وأجل وأعلى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُقَاہَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة، وهذه الهممة السامية، إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية، إلا من هدى الله قلبه، وثبت فؤاده، وأيد لبه، وحقق مراده، وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها، قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

كما روى البخاري، من حديث الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)).

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد، عن سالم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

وقد ذكر ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملاء من الناس إنك فعلت بي كذا وكذا.

فيقال: إنها قالت له ذلك، فارعد من الفرق، وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجداً، ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه أي قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلع داره، فكان ذلك، فأنه أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته، مر بجحفة، وبغاله، وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يذكر قومه بأيام الله.

فلما رآه الناس، انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعا موسى عليه السلام، فقال له: ما حملك على هذا؟

فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي، ولأدعون عليك.

فخرج، وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أَدعو؟

قال: أَدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب في موسى.

فقال موسى: أَدعو؟

قال: نعم.

فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطغى اليوم، فأوحى الله إليه إنني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض.

وقد روي عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحاً، وتركناها قصداً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10]

ولما حل به ما حل من الخسف، وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتي، وشكروا الله تعالى الذي يبدي عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكْفُرُونَ﴾ وقد تكلمنا على لفظ ويك في التفسير، وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى أن الدار الآخرة - وهي دار القرار - وهي الدار التي يغط من أعطيها، ويعزى من حرمها، إنما هي سعدة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فالعلو هو: التكبر، والفخر، والأشر، والبطر، والفساد: هو عمل المعاصي اللازمة، والمتعدية من أخذ أموال الناس، وإفساد معاشهم، والإساءة إليهم، وعدم النصح لهم.

ثم قال تعالى: ﴿رَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقصة قارون هذه، قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة:

يا دارا عبلة بالجواء تكلمي * وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

والله أعلم. وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 23-24].

وقال تعالى في سورة العنكبوت، بعد ذكر عاد وشمود وقارون وفرعون وهامان: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 39-40].

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذي أغرق: فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصديقي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال:

((من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف)).

انفرد به أحمد رحمه الله.

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفائه

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 51-53].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ...﴾ [الأعراف: 144].

وتقدم في ((الصحيحين)): عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور؟)).

وقدمنا أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الهضم والتواضع، وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ...﴾ {إلى أن قال:} ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 163-164].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آتَوْا مُوسَى فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69].

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن روح بن عباد، عن عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه، فأذاه من أذاه من بني إسرائيل.

فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص أو أذرة، وإما آفة، وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه.

فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول:

ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وبرأه مما يقولون.

وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال: فذلك قوله عز وجل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آتَوْا مُوسَى فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69].

وقد رواه الإمام أحمد: من حديث عبد الله بن شقيق، وهمام بن منبه، عن أبي هريرة به.

وهو في (الصحاحين): من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عنه به. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه.

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيراً، فأجابته الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته، وجعله نبياً كما قال: ﴿هُوَ هَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

ثم قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا الأعمش، سألت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال:

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً.

فقال رجل: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: ((يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر)).

وكذا رواه مسلم من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان، عن زيد بن أبي زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

((لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)).

قال: وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه.

قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة.

فثبت حتى سمعت ما قالوا .

ثم أتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله إنك قلت لنا: لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً وإنني مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا.

فاحمرّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه ثم قال: ((دعنا منك فقد أوزي موسى أكثر من ذلك فصبر)).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي من حديث إسرائيل، عن الوليد بن أبي هاشم به.

وفي رواية للترمذي، ولأبي داود من طريق ابن عبد، عن إسرائيل، عن السدي عن الوليد به.

وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقد ثبت في (الصحيحين) في أحاديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بموسى، وهو قائم يصلي في قبره. ورواه مسلم عن أنس.

وفي (الصحيحين) من رواية قتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعة.

((عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة.

فقال له جبريل: هذا موسى، فسلم عليه.

قال: فسلمت عليه.

فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

فلما تجاوزت بكى.

قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي)).

وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس، من أن إبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله.

فقد ذكر غير واحد من الحفاظ، أن الذي عليه الجادة، أن موسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فمر بموسى قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وأن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فلم يزل يتردد بين موسى، وبين الله عز وجل، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.

وقال الله تعالى: هي خمس، وهي خمسون، أي: بالمضاعفة، فجزى الله عنا محمداً صلى الله عليه وسلم خيراً، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً.

وقال البخاري: حدثنا مسدد، حدثنا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: ((عرضت علي الأمم، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هذا موسى في قومه)).

هكذا روى البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً.

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال: حدثنا شريح، حدثنا هشام، حدثنا حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عن سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا.

ثم قلت: إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغت.

قال: وكيف فعلت؟

قلت: استرقيت.

قال: وما حملك على ذلك؟

قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي، أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة.

فقال سعيد يعني - ابن جبير -: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي معه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم.

فقلت: هذه أمتي.

فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم.

ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم.

فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فحاض القوم في ذلك.

فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط، وذكروا أشياء.

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟

فأخبروه بمقالتهم.

فقال: هم الذين لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون.

فقام عكاشة بن محيصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟

قال: أنت منهم.

ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟

فقال: سبقك بها عكاشة)).

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً، وهو في الصحاح، والحسان، وغيرها، وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنة، عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً، وأثنى عليه، وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً، وكررها كثيراً، مطولة ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه بليغاً وكثيراً، ما يقرنه الله ويذكره، ويذكر كتابه مع محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه كما قال في سورة البقرة:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 101].

وقال تعالى: {الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [آل عمران: 1-4].

وقال تعالى في سورة الأنعام: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قِرَاطِينَ تُبَدُّونَهَا نُجُفًا وَيُحْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 91-92].

فأثنى تعالى على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً، وقال تعالى في آخرها: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: 154-155].

وقال تعالى في سورة المائدة: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا النَّاسَ وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44] إلى أن قال: {وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْبَلَدِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...} [الآية 47-48].

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره، وجعله مصدقاً لها، ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدرُوا على حفظها، ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم، لسوء فهمهم، وقصورهم في علومهم، وردائهم قسودهم، وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله، ولا يعرف.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُتَّقِفُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ} [الأنبياء: 48-50].

وقال الله تعالى في سورة القصص: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [48-49].

فأثنى الله على الكتابين، وعلى الرسولين عليهما السلام، وقالت الجن لقومهم: إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى.

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى من الأول الوحي، وتلا عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

قال: سبحو سبحو، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران.

وبالجملة فشرية موسى عليه السلام كانت عظيمة، وأمتة كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء، وعلماء، وعباد، وزهاد، وألباء، وملوك، وأمراء، وسادات، وكبراء، لكنهم كانوا فيادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم، ومسخوا قرده وخنزير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور، يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنع، لمن أراد أن يبلغه خبرها، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

ذكر حبه عليه السلام إلى البيت العتيق و صفته

قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا داود بن أبي هند، عن أبي العالية، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بوادي الأزرق:

((فقال أي واد هذا؟)).

قالوا: وادي الأزرق.

قال: ((كأنني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جوار إلى الله عز وجل بالتلبية)).

حتى أتى على ثنية هرشاء.

فقال: ((أي ثنية هذه؟)).

قالوا: هذه ثنية هرشاء.

قال: ((كأنني انظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف، ختام ناقته خلبة)).

قال هشيم: يعني ليفاً وهو يلبي، أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به.

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: إن موسى حج على ثور أحمر وهذا غريب جداً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن مجاهد قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه: (ك ف ر).

قال: ما يقولون؟

قال: يقولون مكتوب بين عينيه: (ك ف ر).

فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال:

((أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى: فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأنني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي)).

قال هشيم: الخلبة الليف.

ثم رواه الإمام أحمد، عن أسود، عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((رأيت عيسى بن مريم، وموسى، وإبراهيم.

فأما عيسى: فأبيض جعد عريض الصدر، وأما موسى: فآدم جسيم)).

قالوا: فأبراهيم؟

قال: ((انظروا إلى صاحبكم)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان قال: حدث قتادة، عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم:

((رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنؤة، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأي)).

وأخرجاه من حديث قتادة به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر قال: الزهري وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((حين أسري بي لقيت موسى فنعته.

فقال رجل: قال - حسبته قال - مضطرب رجل الرأس، كأنه من رجال شنؤة.

قال: ولقيت عيسى فنعته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس، يعني: حماما. قال: ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)).

الحديث، وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في (صحيحه) وفاة موسى عليه السلام: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال:

أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز وجل، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن.

قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رميه بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر)).

قال: وأنبأنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به.

ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس يعني - سليم بن جبير - عن أبي هريرة، قال الإمام أحمد: لم يرفعه.

قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال: أجب ربك فطم موسى عين ملك الموت، ففأها.

فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت.

قال: وقد فقأ عيني.

قال: فرد الله عينه.

وقال: ارجع إلى عبي، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة.

قال: ثم مه؟

قال: ثم الموت.

قال: فالآن يا رب من قريب.

تفرد به أحمد وهو موقف بهذا اللفظ.

وقد رواه ابن حبان في (صحيحه)، من طريق معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال معمر: وأخبرني من سمع الحسن، عن رسول الله فذكره، ثم استشكله ابن حبان، وأجاب عنه بما حاصله، أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام، كما جاء جبريل في صورة أعرابي، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً، وكذلك موسى لعله لم يعرفه.

لذلك ولطمه ففقأ عينه، لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن.

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه.

قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت، ففقأ عينه)).

وذكر تمام الحديث.

كما أشار إليه البخاري، ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه، قال له: أجب ربك، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله: أجب ربك بلطمه، ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة.

ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق، إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة، كان يحب وقوعها في حياته من خروجه من التيه، ودخولهم الأرض المقدسة، وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام، هو الذي خرج بهم من التيه، ودخل بهم الأرض المقدسة، وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين. ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتية.

وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها، وحث قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية حجر، ولهذا قال سيد البشر ورسول الله إلى أهل الوبير والمدن:

((فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر)).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت، وسليمان التيمي، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره، عند الكتيب الأحمر)).

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

وقال السدي: عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هارون فانت به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هم بشجرة، لم تر شجرة مثلها، وإذا هم ببيت مبني، وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير.

قال له موسى: فتم عليه.

قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب علي.

قال له: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فتم.

قال يا موسى: نم معي، فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً، فلما ناما أخذ هارون الموت، فلما وجد حسه قال يا موسى: خدعتني، فلما قبض، رفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: فإن موسى قتل هارون، وحسده حب بني إسرائيل له.

وكان هارون أكف عنهم، وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم كان أخي أفتروني أقتله، فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض.

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه، إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله، فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص، وترك القميص في يدي يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبي الله، فقال: لا والله ما قتلته ولكنه استل مني، فلم يصدقوه وأرادوا قتله.

قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام، فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وإنما قد رفعناه إلينا فتركوه، ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات، ولم يشهد الفتح. وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة، والله أعلم.

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم، اللذان أشارا على ملا بني إسرائيل بالدخول عليهم.

وذكر وهب بن منبه: أن موسى عليه السلام مر بملاً من الملائكة يحفرون قبراً، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر، فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه، وتوجه إلى ربك، وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلت عليه الملائكة ودفنوه، وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد ويونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال يونس رفع هذا الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم - قال:

((كان ملك الموت يأتي الناس عياناً).

قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقا عينه، فأتى ربه.

فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه.

وقال يونس: لشققت عليه.

قال له: اذهب إلى عبدي فقل له: فليضع يده على جلد، أو مسك ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة.

فأتاه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟

قال: الموت.

قال: فالآن.

قال: فشمة شمة فقبض روحه)).

قال يونس: فرد الله عليه عينه، وكان يأتي الناس خفية.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن مصعب بن المقدم، عن حماد بن سلمة به. فرفعه أيضاً.

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. وأهل الكتاب يقولون يوشع بن عم هود.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر، كما تقدم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَّاهُ﴾ [الكهف: 60] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَّاهُ﴾ [الكهف: 62]

وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه يوشع بن نون، وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون، لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين، عن محمد بن إسحاق: من أن النبوة حولت من موسى، إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقي يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي، حتى قال له: يا كليم الله، إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت، ابتداء من تلقاء نفسك، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت.

ففي هذا نظر، لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل، ولم يزل معززاً مكرماً مدلاً وجيهاً عند الله، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقته عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة، فليضع يده على جلد ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال: ثم ماذا؟ قال: الموت. قال: فالآن يا رب، وسأل الله أن يدينه إلى بيت المقدس رمية بحجر، وقد أوجب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان، إنما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة: أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه، إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان.

وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلوا على كل سبط من الاثني عشر أميراً، وهو النقيب. وماذا إلا ليتأهبوا للقتال - قتال الجبارين عند الخروج من التيه -

وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة، ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام.

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أراد غزو الروم بالشام، فوصل إلى تبوك، ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع. ثم حج في سنة عشر، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام، طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

ولما جهز رسول الله جيش أسامة، توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف، ففذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم لما لم شعث جزيرة العرب وما كان دهي من أمر أهلها، وعاد الحق إلى نصابه، جهز الجيوش يمينا ويسرة إلى العراق: أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام: أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم، ومكن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم، كما سنورده عليك في موضعه، إذا انتهينا إليه مفصلاً إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده.

وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل، وأن يجعل عليهم نقباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12]

يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تتكلموا عن القتال كما نكلتم أول مرة، لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُوعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 16].

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم موثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم. وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى، والله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل، ممن يحمل السلاح، ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

السبط الأول: سبط روبيل، لأنه بكر يعقوب، كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة، ونقيبهم منهم وهو: اليبصور بن شديئورا.

السبط الثاني: سبط شمعون، وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة. ونقيبهم: شلوميئيل بن هوريشداي.

السبط الثالث: سبط يهوذا، وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة. ونقيبهم: نحشون بن عميناداب.

السبط الرابع: سبط إيساخر، وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة، ونقيبهم نشائيل بن صوغر.

السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام، وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة، ونقيبهم يوشع بن نون.

السبط السادس: سبط ميشا، وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين، ونقيبهم جملبيئيل بن فدهصور.

السبط السابع: سبط بنيامين، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة، ونقيبهم: أبیدن بن جدعون.

السبط الثامن: سبط حاد، وكانوا خمسة وأربعة آلاف وستمائة وخمسين رجلاً، ونقيبهم: الياساف بن رعوييل.

السبط التاسع: سبط أشير، وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة. ونقيبهم: فجعيئيل بن عكرن.

السيط العاشر: سبط دان، وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة، ونقيبهم: أخيعزر بن عمشداي.

السيط الحادي عشر: سبط نفتالي، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة. ونقيبهم: أخيرع بن عين.

السيط الثاني عشر: سبط زبولون، وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة، ونقيبهم: الباب بن حيلون.

هذا نص كتابهم الذي بأيديهم، والله أعلم.

وليس منهم: بنو لاوي، فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم، لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة، وضربها وخزنها، ونصبها، وحملها إذا ارتحلوا، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك، وهم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان، يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها، وهم كلهم حولها، ينزلون، ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها.

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون. لكن قالوا: فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك، ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً، سوى بني لاوي، وفي هذا نظر.

فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم، لا تطابق الجملة التي ذكروها، والله أعلم.

فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان، يسيرون في وسط بني إسرائيل، وهم القلب، ورأس اليمين: بنو روبيل، ورأس اليسرة: بنودان، وبنو نفتالي يكونون ساقية.

وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - الكهانة في بني هارون، كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم ناداب، وهو بكره، وأبيهو، والعازر، ويثمر.

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين، الذين قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24] قاله الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس.

وقاله: قتادة، وعكرمة.

ورواه السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة، حتى قال ابن عباس، وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً.

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى، وإنما كان يوشع على مقدمته، وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه:

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِالْآعْرَافِ﴾ [الأعراف: 175-177].

وقد ذكرنا قصته في التفسير، وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم، ولما ألحوا عليه، ركب حمارة له؛ ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها، حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت، فضربها ضرباً أشد من الأول، فقامت ثم ربضت، فضربها فقالت له: يا بلعام أين تذهب، أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا، أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسيان.

ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه، ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة.

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمته ببيعن عليهم، ويتعرضن لهم، حتى لعلهم يقعون في الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموه، ففعلوا وزينوا نساءهم، وبعثوهن إلى المعسكر، فمرت امرأة منهم اسمها كستي برجل من عظماء بني إسرائيل - وهو زمري بن شلوم - يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب، فدخل بها قبتة، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل، فجعل يحوس فيهم.

فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العزار بن هارون، أخذ حربته وكانت من حديد، فدخل عليهما القبة فانتظهما جميعاً فيها، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون.

فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً، والمقل يقول عشرين ألفاً، وكان فنحاص بكر أبيه العزار بن هارون، فلماذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية والذراع واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح، قد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية، ولعله مراد ابن إسحاق، ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا، والله أعلم.

ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه، فإن في هذا السياق ذكر حسان، وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو لعله كان هذا لجيش موسى، الذين عليهم يوشع بن نون، حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس، كما صرح به السدي، والله أعلم.

وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور: أن هارون توفي بالتية قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا، وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذي خرج بهم من التيه، وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ: أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً، وأعلىها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر.

ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون - يعني الأبواق - وكبروا تكبيرة رجل واحد، فففسخ سورها، وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكاً كثيرة.

ويقال: إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم، وشرع لهم ذلك الزمان قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي، فحبسها الله عليه، حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول، وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره.

وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد، فلا تصدق ولا تكذب، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا، فيه نظر، والأشبه والله أعلم أن هذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)).

انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاري.

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا، كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام، فيدل على ضعف الحديث الذي روينا، أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي صلى الله عليه وسلم على ركبته، فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلي العصر، فرجعت.

وقد صححه علي بن صالح المصري، ولكنه منكر، ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتكررت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما بين، ولا آخر قد بنى بنياناً، ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية حين صلي العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي شيئاً، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا فأنت النار لتأكله فأبى أن تطعمه.

فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده.

فقال: فيكم الغلول، وليتابيعني قبيلتك، فبايعته قبيلته، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة.

فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم، فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب.

قال: فوضعوه بالمال، وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا)).

انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقد روى البزار، من طريق مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

قال: ورواه محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري.

قال: ورواه قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والمقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة، أمروا أن يدخلوها سجداً أي ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم، الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم حطة أي: حط عنا خطيانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا.

ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، حتى أن عثنونه - وهو طرف لحيته - ليمس مورك رحله، مما يطأطأء رأسه خضعاناً لله عز وجل، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق، ولا سيما الكتبية الخضراء التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لما دخلها اغتسل، وصلى ثماني ركعات، وهي صلاة الشكر على النصر.

على المشهور من قولي العلماء، وقيل: إنها صلاة الضحى، وما حمل هذا القائل على قوله هذا، إلا لأنها وقعت وقت الضحى.

وأما بنو إسرائيل، فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، دخلوا الباب يزحفون على أستاههم، يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة. وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤا به، كما قال تعالى حاكياً عنهم

في سورة الأعراف - وهي مكية - : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَاقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 161-162].

وقال في سورة البقرة - وهي مدنية - مخاطباً لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَعْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 58-59].

وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾
قال: ركعاً من باب صغير. رواه الحاكم، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وكذا روى العوفي، عن ابن عباس، وكذا روى الثوري، عن ابن إسحاق، عن البراء.

قال مجاهد، والسدي، والضحاك، والباب: هو باب حطة من بيت ايلياء بيت المقدس.

قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أمروا به، وهذا لا يناقي قول ابن عباس: أنهم دخلوا يزحفون
على أستاههم.

وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعو رؤوسهم.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة، أي: ادخلوا سجداً في حال قولكم حطة.

قال ابن عباس، وطاء، والحسن، وقتادة، والربيع: أمروا أن يستغفروا.

قال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن
أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((قال: قيل لئبي إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم.

فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة)).

وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه.

ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن ابن مهدي به موقوفاً.

وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم:

((قال الله لئبي إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على
أستاههم، فقالوا: حبة في شعرة)).

ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من حديث عبد الرزاق.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة،
وعمن لا أنهم، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حطة في شعيرة)).

وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود قال: في قوله: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} قال: قالوا: هطى سقانا أزمة مزيا.

فهي في العربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء.

وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة، بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم وهو الطاعون.

كما ثبت في (الصحيحين)، من حديث الزهري، عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم)).

وروى النسائي، وابن أبي حاتم وهذا لفظه، من حديث الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الطاعون رجز عذاب، عذب به من كان قبلكم)).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: الرجز: العذاب. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والحسن، وقتادة.

وقال أبو العالية: هو الغضب.

وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد.

وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس، استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع، يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكان مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني. وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف.

وذكرنا في تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا ذكر الحديث

المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن - على أقوال - سأذكرها لك ههنا إن شاء الله وبحوله وقوته.

قال الحافظ ابن عساكر: يقال: إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه. ثم روى من طريق الدارقطني: حدثنا محمد بن الفتح القلانسي، حدثنا العباس بن عبد الله الرومي، حدثنا رواد بن الجراح، حدثنا مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: الخضر بن آدم لصلبه، ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال، وهذا منقطع وغريب.

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني: سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: إن أطول بني آدم عمراً الخضر، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم. قال: وذكر ابن إسحاق: أن آدم عليه السلام لما حضرته

الوفاة، أخبر بنبيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه معهم في مكان عينه لهم.

فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنبيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى. فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك.

وقال: إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيى.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه: أن اسم الخضر {بلييا} ويقال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وقال إسماعيل بن أبي أويس: اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم: المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لآزد.

وقال غيره: هو: خضرون بن عميايل بن اليفز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل.

ويقال: هو أرميا بن خلقيا فآله أعلم.

وقيل: إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر، وهذا غريب جدا.

قال ابن الجوزي: رواه محمد بن أيوب، عن ابن لهيعة وهما ضعيفان.

وقيل: إنه ابن مالك، وهو أخو إلياس، قاله السدي كما سيأتي.

وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين.

وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه.

وقيل: كان نبيا في زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدما في زمن أفريدون بن أنفيا حتى أدركه موسى عليهما السلام.

وروى الحافظ بن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه رومية وأبوه فارسي.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً.

قال أبو زرعة في (دلائل النبوة): حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليله أسري به وجد رائحة طيبة فقال:

((يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟)).

قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها.

وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشرف بني إسرائيل، وكان ممره براهب في صومعته، فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام.

فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام، وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً وكان لا يقرب النساء، ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام، وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً، ثم طلقها، فكتمت إحداهما وأقشيت عليه الأخرى، فانطلق هاربا حتى أتى جزيرة في البحر فأقبل رجلان يحتطبان، فرأياه فكتم أحدهما وأقشى عليه الآخر.

قال: قد رأيت العزقيل ومن رآه معك، قال: فلان فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة.

قال: فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها.

فقال: نعت فرعون فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا، فقال: إني قاتلكما فقالا: إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد فجعلهما في قبر واحد، فقال: وما وجدت ريحا أطيب منهما وقد دخلت الجنة.

وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجا من كلام أبي بن كعب، أو عبد الله بن عباس، والله أعلم.

وقال بعضهم: كنيته أبو العباس. والأشبه والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)).

تفرد به البخاري وكذلك رواه عبدالرزاق، عن معمر به.

ثم قال عبد الرزاق: الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبهه، يعني: الهشيم اليابس.

وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة: الأرض البيضاء التي لا نبات فيها.

وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة، ومنه قيل: فروة الرأس وهي جلده بما عليها من الشعر، كما قال الراعي:

ولقد ترى الحبشي حول بيوتنا * جذلاً إذا ما نال يوماً ماكلاً

صعلاً أصك كأن فروة رأسه * بذرت فأنبت جانباه فلفلاً

قال الخطابي: إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه.

قلت: هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى بل لا يلتفت إلى ما عداه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلي، حدثنا عثمان، وأبو جزي، وهمام بن يحيى، عن قتادة، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء)).

وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال قبيصة، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد، قال: إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله.

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر، وهو مسجى بثوب، قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلم عليه السلام.

فكشفت عن وجهه فرد وقال: أني بأرضك السلام؟ من أنت؟

قال: أنا موسى.

قال: موسى نبي بني إسرائيل؟

قال: نعم. فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 66-70].

فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه، فلو كان غير نبي لم يكن معصوما، ولم تكن لموسى، وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبه في علم ولي غير واجب العصمة.

ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقا من الزمان قيل: ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه، دل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية، بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم.

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام.

وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس، بمجرد ما يلقى في خلدته لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق.

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، علما منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه عن الكفر لشدة محبتهم له فيتابعانه عليه ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته.

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصحة. وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضا.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلّى، قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82] يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمر أمرت به وأوحى إلي فيه. فدلّت هذه الوجوه على نبوته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته كما قاله آخرون.

وأما كونه ملكا من الملائكة فقول فغريب جداً، وإذا ثبت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته، وإن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه.

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باق إلى اليوم. قيل: لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان، فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة. وقيل: لأنه شرب من عين الحياة فحيى.

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وهذه وصيته لموسى حين قالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا [الكهف: 78] روي في ذلك آثار منقطعة كثيرة.

قال البيهقي: أنبأنا أبو سعيد ابن أبي عمرو، حدثنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير، حدثني أبو عبد الله الملقب قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر.

قال له موسى: أوصني.

قال: كن نفاعاً ولا تكن ضراراً، كن بشاشاً ولا تكن غضبان، ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة.

وفي رواية من طريق أخرى زيادة: ولا تضحك إلا من عجب.

وقال وهب بن منبه: قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها.

وقال بشر بن الحارث الحافي: قال موسى للخضر: أوصني. فقال: يسر الله عليك طاعته.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، رواه ابن عساكر من طريق ذكرى بن يحيى الوراق، إلا أنه من الكذابين الكبار قال: قرئ على عبد الله بن وهب، وأنا أسمع: قال الثوري: قال مجالد: قال أبو الوداك: قال أبو سعيد الخدري: قال عمر بن الخطاب:

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((قال أخي موسى يا رب - وذكر كلمته - فأثاه الخضر وهو فتى طيب الريح، حسن بياض الثياب، مشمرها، فقال: السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران، إن ربك يقرأ عليك السلام.

قال موسى: هو السلام وإليه السلام، والحمد لله رب العالمين، الذي لا أحصي نعمه، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته.

ثم قال موسى: أريد أن توصيني بوصية ينفعني الله بها بعدك.

فقال الخضر: يا طالب العلم إن القائل أقل ملامة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك، فإنها ليست لك بدار، ولا لك فيها محل قرار، وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد، ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم.

يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده، وإنما العلم لمن تفرغ له، ولا تكن مكثراً للعلم مهذاراً، فإن كثرة المنطق تشين العلماء، وتبدي مساوي السخفاء، ولكن عليك بالاعتقاد، فإن ذلك من التوفيق والسداد، وأعرض عن الجهال وماطلهم، واحلم عن السفهاء، فإن ذلك فعل الحكماء، وزين العلماء.

إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً، وجانبه حزماً، فإن ما بقي من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم، يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً، فإن الاندلاط والتعسف من الاقتحام والتكلف.

يا ابن عمران: لا تفتحن باباً لا تدري ما غلقه، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه.

يا ابن عمران: من لا ينتهي من الدنيا نهمته، ولا تنفسي منها رغبته، ومن يحقر حاله، ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً. هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه.

يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به، ولا تعلمه لتحدث به، فيكون عليك بواره، ولغيرك نوره.

يا موسى بن عمران: اجعل الزهد والتقوى لباسك، والعلم والذكر كلامك، واستكثر من الحسنات، فإنك مصيب السيئات، وزرع بالخوف قلبك، فإن ذلك يرضى ربك، واعمل خيراً فإنك لا بد عامل سوء، قد وعظت إن حفظت. قال: فتولى الخضر، وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي.

لا يصح هذا الحديث، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري، كذبه غير واحد من الأئمة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي، حدثنا بقية بن الوليد، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه:

((ألا أحدثكم عن الخضر؟)).

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: ((بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب.

فقال: تصدق عليّ بارك الله فيك.

فقال الخضر: أمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون، ما عندي من شيء أعطيكه.

فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت عليّ، فإني نظرت إلى السماء في وجهك ورجوت البركة عندك.

فقال الخضر: أمنت بالله ما عندي من شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعي.

فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟

قال: نعم الحق أقول لك، لقد سألتني بأمر عظيم، أما أني لا أخيبك بوجه ربي بعني.

قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء.

فقال له: إنك ابتعتني التماس خير عندي، فأوصني بعمل. قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف.

قال: ليس يشق عليّ.

قال: فانقل هذه الحجارة، وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف، وقد نقل الحجارة في ساعة.

فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه، ثم عرض للرجل سفر، فقال: إنني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة.

قال: فأوصني بعمل.

قال: إنني أكره أن أشق عليك.

قال: ليس تشق عليّ.

قال: فاضرب من اللبن لبيتني، حتى أقدم عليك، فمضى الرجل لسفره فرجع، وقد شيد بناؤه فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟

فقال: سألتني بوجه الله، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية، سأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به، سألتني مسكين صدقة، فلم يكن عندي من شيء أعطيه، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتني، فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو بقدر، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم، يتقعقع.

فقال الرجل: آمنت بالله، شقت عليك يا نبي الله، ولم أعلم.

فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت.

فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله، أو أخبرك فأخلي سبيلك.

فقال: أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي، فخلي سبيله.

فقال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية، ثم نجاني منها)).

وهذا حديث رفعه خطأ، والأشبه أن يكون موقوفاً وفي رجاله من لا يعرف، فانه أعلم.

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه (عجالة المنتظر في شرح حال الخضر) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك، عن بقرية.

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السدي: أن الخضر وإلياس كانا أخوين.

وكان أبوهما ملكاً فقال إلياس لأبيه: إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك، فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له.

فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر.

فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لي في النساء فإن شئت أطلقت سراحك، وإن شئت أقت معي تعبدن الله عز وجل وتكتمين علي سري؟

فقالت: نعم، وأقامت معه سنة، فلما مضت السنة دعاها الملك فقال: إنك شابة وابني شاب، فأين الولد؟

فقالت: إنما الولد من عند الله، إن شاء كان، وإن لم يشأ لم يكن. فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها، فأجابته إلى الإقامة عنده.

فلما مضت السنة سألتها الملك عن الولد فقالت: إن ابنك لا حاجة له بالنساء، فتطلبه أبوه فهرب، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه.

فيقال: إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره، فهرب من أجل ذلك، وأطلق سراح الأخرى، فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة، فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول: بسم الله.

فقالت له: أنى لك هذا الاسم؟

فقال: إني من أصحاب الخضر، فتزوجته فولدت له أولاداً. ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون، فبينما هي يوماً تمشطها، إذ وقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله.

فقالت ابنة فرعون: أباي؟

فقالت: لا، ربي وربك ورب أبيك، الله.

فأعلمت أباها، فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها فألقيت فيه، فلما عابنت ذلك تقاعست أن تقع فيها، فقال لها ابن معها صغير: يا أمه اصبري فإنك على الحق فألقت نفسها في النار، فماتت رحمها الله.

وقد روى ابن عساكر، عن أبي داود الأعمى - نفيح وهو كذاب - وضاع عن أنس بن مالك، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف - وهو كذاب أيضاً - عن أبيه، عن جده: أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو ويقول:

((اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني، وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إلي)).

فبعث إليه رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه، فرد عليه السلام وقال: قل له: إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره.

الحديث، وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً.

كيف لا يتمثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحيى بنفسه مسلماً ومتعلماً. وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم، أن الخضر يأتي إليهم ويسلم عليهم، ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله، الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بن إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي بعد إيراده حديث أنس هذا: وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد، سقيم المتن، يتبين فيه أثر الصنعة.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلاً: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن بالويه، قال: حدثنا محمد بن بشر بن مطر، قال: حدثنا كامل بن طلحة، قال: حدثنا عباد بن عبد الصمد، عن أنس بن مالك قال:

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدق به أصحابه، فبكوا حوله، واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية، جسيم صبيح، فتخطى رقابهم، فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا، ونظر إليكم في البلاء، فانظروا فإن المصاب من لم يجبر وانصرف، فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي

نعم: هو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضر عليه السلام.

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا، عن كامل بن طلح به وفي منته مخالفة لسياق البيهقي.

ثم قال البيهقي: عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهذا منكر بمرّة قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو: ابن معمر البصري روى عن أنس نسخة.

قال ابن حبان والعقيلي: أكثرها موضوع.

وقال البخاري: منكر الحديث.

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جداً منكره.

وقال ابن عدي: عامة ما يرويه في فضائل علي وهو ضعيف غال في التشيع.

وقال الشافعي في (مسنده): أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، ودركا من كل فانت، فبإله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب.

قال علي بن الحسين: أتدرون من هذا، هذا الخضر.

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك.

قال أحمد بن حنبل: ويحيى بن معين يكذب.

زاد أحمد ويضع الحديث، ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا والله أعلم.

وقد روى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن أبيه، عن علي ولا يصح. وقد روى عبد الله بن وهب عن حدثه عن محمد بن عجلان، عن محمد بن المنكر: أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول: لا تسبقنا یرحمك الله، فانتظره حتى لحق بالصف، فذكر دعاء للميت إن تعذبه فكثيراً عصاك، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك.

ولما دفن قال: طوبى لك يا صاحب القبر، إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً.

فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عن هو.

قال: فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع، فقال عمر: هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ بن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن محرز، عن يزيد بن الأصم، عن علي بن أبي طالب قال: دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يمنعه سمع من سمع، ويا من لا تغلظه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحنيين، ولا مسألة السائلين أرزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك.

قال: فقلت: أعد علي ما قلت.

فقال لي: أو سمعته؟

قلت: نعم.

فقال لي: والذي نفس الخضر بيده.

قال: وكان هو الخضر لا يقولها عيد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر، وورق الشجر، وعدد النجوم لغفرها الله له.

وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز فإنه متروك الحديث، ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً؛ ومثل هذا لا يصح، والله أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي: حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا صالح بن أبي الأسود، عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي، عن محمد بن يحيى، قال: بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يغلظه السائلون، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحنيين، أرزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك.

قال: فقال له علي: يا عبد الله أعد دعاءك هذا.

قال: وقد سمعته؟

قال: نعم.

قال: فادع به في دبر كل صلاة، فالذي نفس الخضر بيده لو كانت عليك من الذنوب عدد نجوم السماء، ومطرها، وحصباء الأرض، وترايبها لغفر لك أسرع من طرفة عين. وهذا أيضا منقطع وفي إسناده من لا يعرف، والله أعلم.

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه.

ثم قال: وهذا إسناده مجهول منقطع وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد، أنبأنا أبو إسحق المزكي، حدثنا محمد بن إسحق بن خزيمة، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان، أنبأنا عمرو بن عاصم، حدثنا الحسن بن زريق، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، قال:

ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال:

((يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف الشر إلا الله، ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله)).

وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات، آمنه الله من الغرق والحق والسرق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان، والسلطان، والحية، والعقرب.

قال الدارقطني في الأفراد: هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه، يعني الحسن بن زريق هذا.

وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضا، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: ليس بالمعروف.

وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ.

وقال أبو الحسن بن المنادي: هو حديث واه بالحسن بن زريق.

وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي، وهو كذاب عن ضمرة بن حبيب المقدسي، عن أبيه، عن العلاء بن زياد القشيري، عن عبد الله بن الحسن عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب مرفوعا قال: يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل، وميكائيل، وإسرافيل والخضر. وذكر حديثا طويلا موضوعا تركنا إيراده قصدا، والله الحمد.

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد، عن الحسن بن يحيى الخشني، عن ابن أبي رواد، قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس، ويحجان في كل سنة، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل.

وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان، باني جامع دمشق، أحب أن يتعبد ليلة في المسجد، فأمر القوم أن يخلوه له ففعلوا، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء، فقال للقوم: ألم أمركم أن تخلوه؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ههنا.

وقال ابن عساكر أيضا: أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد، أنبأنا أبو بكر بن الطبري، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل، أنبأنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب - هو ابن سفيان الفسوي - حدثني محمد بن عبد العزيز حدثنا

حمزة، عن السري بن يحيى، عن رباح بن عبيدة، قال: رأيت رجلاً يماشى عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه، فقلت في نفسي:

إن هذا الرجل حافي، قال: فلما انصرف من الصلاة.

قلت: من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً؟

قال: وهل رأيت يا رباح؟

قلت: نعم.

قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر بشرني أني سألي وأعدل.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: الرملي مجروح عند العلماء.

وقد قذح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة والسري ورباح، ثم أورد من طرق آخر، عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر وضعفها كلها.

وروى ابن عساكر أيضاً: أنه اجتمع بإبراهيم التيمي، وبسفيان بن عيينة، وجماعة يطول ذكرهم.

وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصرها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره، لأنه يجوز عليه الخطأ والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال. وقال فيما يحدثنا:

((يأتي الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خيرهم.

فيقول له: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثه.

فيقول الدجال: أرايتم إن قتلت هذا ثم أحببته أتشكون في الأمر؟

فيقولون: لا.

فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحيى: والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن.

قال: ف يريد قتله الثانية فلا يسلم عليه)).

قال معمر: بلغني أنه جعل على حلقة صحيفة من نحاس، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه، وهذا الحديث مخرج في (الصحيحين) من حديث الزهري به.

وقال أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي، عن مسلم: الصحيح أن يقال: إن هذا الرجل الخضر، وقول معمر، وغيره: بلغني ليس فيه حجة، وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث، فيأتي بشاب ممتلىء شباب فيقتله، وقوله الذي حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر.

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - في كتابه (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبين أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم، فبين ضعف أسانيدنا ببيان أحوالها، وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد.

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم: البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو الحسين بن المنادي، والشيخ أبو الفرج بن الجوزي، وقد انتصر لذلك، وألف فيه كتاباً سماه: (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) فيحتج لهم بأشياء كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: 34].

فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح. انتهى.

والأصل عدمه حتى يثبت.

ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله. ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه. ذكره البخاري عنه.

فالخضر إن كان نبياً أو ولياً، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله، أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه، وإن كان نبياً فموسى أفضل منه. (ج/ص: 391 / 1)

وقد روى الإمام أحمد في (مسنده): حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)).

وهذا الذي يقطع به، ويعلم من الدين علم الضرورة.

وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكانوا كلهم أتباعاً له، وتحت أوامره، وفي عموم شرعه.

كما أنه صلوات الله وسلامه عليه، لما اجتمع معهم ليلة الإسراء، رفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس، وحانت الصلاة، أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم، ودار إقامتهم، فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم، صلوات الله وسلامه عليه، وعليهم أجمعين.

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك.

هذا عيسى بن مريم عليه السلام، إذا نزل في آخر الزمان بحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يجيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه، أنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد.

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق، فيما دعا به لربه عز وجل، واستنصره، واستفتحه على من كفره:

((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض)).

وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أضر بيت قالته العرب:

وثبیر بدر إذ یرد وجوهم * جبریل تحت لواننا ومحمد

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته، وأعظم غزواته.

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات؟

فقال: نعم.

قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري.

قال: وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. نقله ابن الجوزي في العجالة.

فإن قيل: فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها؟ ولكن لم يكن أحد يراه.

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد، الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات.

ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء، وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته، وأظهر لمعجزته؟

ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده جمعه وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقديره الأدلة والأحكام، أفضل ما يقال عنه من كونه في الأمصار، وجوبه الفيافي والأقطار.

واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك ما ثبت في (الصحيحين) وغيرهما، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلى ليلة العشاء ثم قال:

((أرأيتم ليلتكم هذه، فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد)).

وفي رواية: ((عين تطرف)) قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه، وإنما أراد انخرام قرنه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، قال: أخبرني سالم بن عبد الله، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، أن عبد الله بن عمر قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام، فقال:

((أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد)).

وأخرجه البخاري، ومسلم من حديث الزهري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بقليل، أو بشهر:

((ما من نفس منفوسة، أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتي عليها مائة سنة، وهي يومئذ حية)).

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بشهر:

((يسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم، يأتي عليها مائة سنة)).

وهكذا رواه مسلم، من طريق أبي نضرة، وأبي الزبير، كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه.

وقال الترمذي: حدثنا عباد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما على الأرض من نفس منقوسة يأتي عليها مائة سنة)).

وهذا أيضاً على شرط مسلم.

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر. قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع، فلا إشكال.

وإن كان قد أدرك زمانه، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعيش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً، لأنه داخل في هذا العموم، والأصل عدم المخصص له، حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله، والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والأعلام) عن البخاري، وشيخه أبي بكر ابن العربي أنه أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن مات بعده، لهذا الحديث. وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا، وأنه بقي إلى زمان النبي صلى الله عليه وسلم نظر.

ورجح السهيلي بقاءه، وحكاه عن الأكثرين قال: وأما اجتماعهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل البيت بعده، فمروى من طرق صحاح، ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه، ولم يورد أسانيدنا، والله أعلم.

وأما إلياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * فَكذبوه فإيهم لمحضرون * إنا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إلی یاسین * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين} [الصافات: 123-132]

قال علماء النسب: هو إلياس التشبي، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران.

قالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى الله عز وجل، وأن يتركوا عبادة صنم لهم، كانوا يسمونه بعلًا.

وقيل: كانت امرأة اسمها بعل، والأول أصح.

ولهذا قال لهم: {أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ} فكذبوه وخالفوه، وأرادوا قتله. فيقال: إنه هرب منهم، واختفى عنهم.

قال أبو يعقوب الأزرعي، عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأبحار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار، الذي تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك الله الملك، وولي غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل، عشرين ليلة - أو قال: أربعين ليلة - تأتية الغربان برزقه.

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلابي، عن أبيه قال: أول نبي بعث إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهارون ابنا عمران، ثم إلياس التثبيبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. هكذا قال وفي هذا الترتيب نظر.

وقال مكحول عن كعب: أربعة أنبياء أحياء: اثنان في الأرض، إلياس والخضر، واثنان في السماء: إدريس وعيسى عليهما السلام، وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام، في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذي فيه: أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة. وبيننا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات، وكذلك إلياس عليهما السلام.

وما ذكره وهب بن منبه، وغيره: أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه، فجاءته دابة لونها لون النار، فركبها وجعل الله له ريشاً، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكياً بشرياً، سماوياً أرضياً، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب، ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة، والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني أبو أحمد بن سعيد المعداني ببخارى، حدثنا عبد الله بن محمود، حدثنا عیدان بن سنان، حدثني أحمد بن عبد الله اليرقي، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن الأوزاعي، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال:

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، المرحومة المغفورة المثاب لها، قال فأشرفت على الوادي، فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لي: من أنت؟

فقلت: أنس بن مالك، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فأين هو؟

قلت: هو ذا يسمع كلامك.

قال: فأتته فأقرئه السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام

قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم، ثم قعدا يتحادثان، فقال له: يا رسول الله إني ما أكل في سنة إلا يوماً، وهذا يوم فطري فأكل أنا وأنت.

قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت وكرفس، فأكلا وأطعماني، وصلينا العصر، ثم ودعه ثم رأيته مر في السحاب نحو السماء.

فقد كفانا البيهقي أمره، وقال: هذا حديث ضعيف بمرّة، والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في (مستدرکه) على (الصحيحين)، وهذا مما يستدرك به على (مستدرکه)، فإنه حديث موضوع، مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه.

ومعناه لا يصح أيضاً، فقد تقدم في (الصحيحين) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء)).

إلى أن قال: ((ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)).

وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان هو الذي ذهب إليه. وهذا لا يصح لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء، وفيه أنه يأكل في السنة مرة، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب، وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر.

وهذه أشياء متعارضة، وكلها باطلة، لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى، واعترف بضعفها، وهذا عجب منه، كيف تكلم عليه فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة، عن هانئ بن الحسن، عن بقية، عن الأوزاعي، عن مكحول، عن واثلة، عن ابن الأسقع فذكر نحو هذا مطولاً.

وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان قالاً: فإذا هو أعلى جسماً بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل.

وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلا من طعام الجنة، وقال: إن لي في كل أربعين يوماً أكلة، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل، ما عدا الكراث.

وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عن الخضر فقال: عهدي به عام أول، وقال لي: إنك ستلقاه قبلي، فأقرئه مني السلام.

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما، وصحة هذا الحديث، لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهنا لا يسوغ شرعاً، وهذا موضوع أيضاً، وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد، وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها، أو لجهالة المسند إليه فيها.

ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني بشر بن معاذ، حدثنا حماد بن واقد، عن ثابت قال: كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي فيه ركعتين، فافتتحت لحم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول.. { [غافر: 1-3] فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء، عليه مقطعات يمنية، فقال لي: إذا قلت غافر الذنب فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي.

وإذا قلت: قابل التوب، فقل: يا قابل التوب تقبل توبتي.

وإذا قلت: شديد العقاب، فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني.

وإذا قلت: ذي الطول، فقل: يا ذا الطول تطول علي برحمة. فالتفت فإذا لا أحد، وخرجت فسألت مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية؟

فقالوا: ما مر بنا أحد، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس.

وقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: 127] أي: للعذاب إما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة. والأول أظهر، على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: {إِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} [الصافات: 128] أي: إلا من آمن منهم.

وقوله: {هُوَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} [الصافات: 129] أي: أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين، فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال: {سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ} [الصافات: 130] أي: سلام على إلياس.

العرب تلحق النون في أسماء كثيرة، وتبدلها من غيرها، كما قالوا: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائيلين، وإلياس وإلياسين، ومن قرأ: سلام على آل ياسين أي: على آل محمد، وقرأ ابن مسعود، وغيره: سلام على إدراسين.

ونقل عنه من طريق إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس، وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة، ومحمد بن إسحاق. والصحيح أنه غيره كما تقدم، والله أعلم.